

قصص

1





الواقعية

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي



دار عباد الرحمن


منتدى إقراء الثقافي

قصص العريفي


بسم الله الرحمن الرحيم

الأرض تنتصر للرسول ﷺ

كان في عهد النبي ﷺ رجل نصراني.. فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران.. وكان كاتبًا قارئًا.. فكان من ضمن من يكتب للنبي ﷺ أحيانًا.. وفجأة.. عاد الرجل نصرانيًا.. ولحق بقوم من أهل الكتاب.. وجعل ينتقص النبي ﷺ.. ويشكك في القرآن.. ويقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له..

فلما رأىٰ النبي ﷺ ذلك.. دعا عليه فقال: «اللهم اجعله آية».. فما مر عليه أيام حتىٰ أماته الله.. فأخذه أصحابه.. ودفنوه.. فلما أصبحوا فإذا الأرض قد لفظته فوقها!!

فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه.. لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا.. فألقوه..!!

فحفروا له فأعمقوا ما استطاعوا.. فلما أصبحوا.. أقبلوا إلىٰ قبره.. فإذا هو قد لفظته الأرض.. فقالوا: هذا أيضًا من فعل محمد وأصحابه.. لما هرب منهم صاحبنا نبشوا عن قبره فأخرجوه..!! ثم حفروا له وأعمقوا أكثر ما استطاعوا.. فلما أصبحوا.. فإذا الأرض أيضًا قد لفظته فوقها..

فعلموا أنه ليس من فعل الناس فتركوه منبوذًا علىٰ الأرض.. فظل ملقىٰ علىٰ التراب.. تمر به الكلاب فتبول عليه.. وتعبث بجسده الذئاب.. وتفتت أعضاءه الطيور.. نعم.. ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر:٩٥].

مع ابن النضير..

كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود..

فيها: بنو قريظة.. وبنو النضير.. وبنو قينقاع..

كان بين النبي ﷺ وبينهم عهد علىٰ أن يتعاونوا في ديات القتل.. وغيرها..

ذهب النبي ﷺ مع بعض أصحابه.. إلىٰ بني النضير يومًا يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما الصحابي عمرو بن أمية خطأً..

وكان بين قبيلة القتيلين.. وبين المسلمين عهد.. فكان لا بد من دفع دية القتيلين..

وصل ﷺ إلىٰ يهود بني النضير.. عرض عليهم مساعدته في دية القتيلين..

قالوا: نعم.. يا أبا القاسم!.. نعينك علىٰ ما أحببت..

لكن اليهود قوم غدر..

فأجلسوا النبي ﷺ في ظل جدَّار.. وغابوا عنه كأنهم يجمعون له المال.. فلما خلا بعضهم ببعض.. قالوا: إنكم لن تجدوا الرجل علىٰ مثل حاله هذه..

فمن رجل منكم يعلو علىٰ هذا البيت.. فيلقي عليه صخرة.. ويريحنا منه؟!

فتطوع لهذه الجريمة النكراء رجل منهم.. اسمه عمرو بن جحاش.. فقال: أنا لذلك..

فصعد ابن جحاش علىٰ سطح البيت الذي يتكئ النبي ﷺ علىٰ جدَّاره.. ليلقي عليه صخرة.. ورسول الله ﷺ مع أصحابه.. في ظل الجدَّار..

فإذا بالخبر من السماء.. يتنزل علىٰ رسول الله ﷺ.. ويخبره الله بمكيدة القوم.. وإذا برسول الله ﷺ يقوم فجأة مسرعًا من مكانه.. راجعًا إلىٰ المدينة..

وأصحابه مكانهم.. ينتظرون اليهود.. وقد ظنوا أن النبي ﷺ قام لحاجة وأنه راجع إليهم.. فلما أبطأ النبي ﷺ علىٰ أصحابه.. قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة..

فسألوه: هل رأيت رسول الله ﷺ؟

فقال: رأيته داخلاً المدينة.. فعجب الصحابة من رجوعه.. فلما وصلوا إليه.. سألوه؟ فأخبرهم ﷺ بالخبر.. وبما كانت يهود أرادت من الغدر به.. ثم

كان ما كان بعدها من الحرب بين النبي ﷺ وبين يهود بني النضير.. وحاصرهم.. حتىٰ أخرجهم من المدينة..

أم أبي هريرة

أم أبي هريرة: إن أم أبي هريرة بقيت علىٰ دين قومها.. تعبد الأصنام.. وكان أبو هريرة يدعوها إلىٰ الإسلام.. وتأبىٰ.. فدعاها يومًا فأسمعته في رسول الله ﷺ ما يكره..

فبكىٰ أبو هريرة.. ومضىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ.. وهو يبكي..

فقال: يا رسول الله!.. إني كنت أدعو أمي إلىٰ الإسلام فتأبىٰ علي.. فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره.. فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة..

فقال ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة»..

فخرج أبو هريرة مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ.. فلما وصل البيت وحرك الباب ليدخل.. سمعت أمه خشف قدميه.. فقالت: مكانك يا أبا هريرة!..

وسمع أبو هريرة خضخضة الماء.. وكأن أمه تغتسل..

فانتظر قليلاً عند الباب ليدخل.. فإذا أمه قد اغتسلت.. ولبست درعها.. وعجلت عن خمارها..

ثم فتحت له الباب وقالت: يا أبا هريرة!.. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. استبشر أبو هريرة.. وغلبه الفرح حتىٰ بكىٰ..

فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ.. يبكي من الفرح.. فقال: يا رسول الله.. أبشر قد استجاب الله دعوتك.. وهدىٰ أم أبي هريرة..

ففرح النبي ﷺ.. وحمد الله.. وأثنىٰ عليه.. وقال لأبي هريرة خيرًا..

فطمع أبو هريرة في زيادة الخير.. فقال: يا رسول الله!.. ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلىٰ عباده المؤمنين.. ويحببهم إلينا..

فقال ﷺ: «اللهم حبب عبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين.. وحبب إليهم المؤمنين»..

قال أبو هريرة: فما خلق مؤمن يسمع بي.. ولا يراني.. إلا أحبني..

أبو طلحة وزوجه:

تزوجت أم سليم أبا طلحة.. ورزقت منه بغلام صبيح.. هو أبو عمير.. وكان أبو طلحة يحبه حبًّا عظيمًا..

بل كان ﷺ يحبه.. ويمر بالصغير فيرىٰ معه طيرًا يلعب به.. اسمه النغير.. فكان يمازحه ويقول: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟».

فمرض الغلام.. فحزن أبو طلحة عليه حزنًا شديدًا.. حتىٰ اشتد المرض بالغلام يومًا.. وخرج أبو طلحة في حاجة إلىٰ رسول الله ﷺ.. وتأخر عنده..

فازداد مرض الغلام ومات.. وأمه عنده..

بكىٰ بعض أهل البيت.. فهدأتهم.. وقالت: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتىٰ أكون أنا أحدثه.. فوضعت الغلام في ناحية من البيت وغطته.. وأعدت لزوجها طعامه.. فلما عاد أبو طلحة إلىٰ بيته.. سألها: كيف الغلام؟

قالت: هدأت نفسه.. وأرجو أن يكون قد استراح..

فتوجه إليه ليراه.. فأبت عليه وقالت: هو ساكن فلا تحركه.. ثم قربت له عشاءه فأكل وشرب.. ثم أصاب منها ما يصيبه الرجل من امرأته.. فلما رأت أنه قد شبع واستقر..

قالت: يا أبا طلحة! أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم - أي أسلفوا متاعًا لهم - لأهل بيت فطلبوا عاريتهم.. ألهم أن يمنعوهم؟

قال: لا..

قالت: ألا تعجب من جيراننا؟

قال: وما لهم؟!

قالت: أعارهم قوم عارية.. وطال بقاؤها عندهم حتىٰ رأوا أن قد ملكوها.. فلما جاء أهلها يطلبونها.. جزعوا أن يعطوها إياها..

فقال: بئس ما صنعوا..

فقالت: هذا ابنك.. كان عارية من الله.. وقد قبضه إليه.. فاحتسب ولدك عند الله..

ففزع.. ثم قال: والله.. ما تغلبيني علىٰ الصبر الليلة.. فقام وجهز ولده..

فلما أصبح غدا علىٰ رسول الله ﷺ فأخبره.. فدعا لهما بالبركة.. فولدت له غلامًا سماه رسول الله ﷺ عبد الله فجاء من صلبه تسعة أولاد.. كلهم قد حفظ القرآن.

قبيلة دوس

الطفيل بن عمرو.. كان سيدًا مطاعًا في قبيلته دوس.. قدم مكة يومًا في حاجة.. فلما دخلها.. رآه أشراف قريش.. فأقبلوا عليه.. وقالوا: من أنت؟ قال: أنا الطفيل بن عمرو.. سيد دوس..

فقالوا: إن ههنا رجلاً في مكة يزعم أنه نبي.. فاحذر أن تجلس معه أو تسمع كلامه.. فإنه ساحر.. إن استمعت إليه ذهب بعقلك..

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي يخوفونني منه.. حتىٰ أجمعت ألا أسمع منه شيئًا.. ولا أكلمه.. بل حشوت في أذني كرسفًا - وهو القطن - خوفًا من أن يبلغني شيء من قوله.. وأنا مار به..

قال الطفيل: فغدوت إلىٰ المسجد.. فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة.. فقمت منه قريبًا.. فأبىٰ الله إلا أن يسمعني بعض قوله..

فسمعت كلامًا حسنًا.. فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب..

ما يخفىٰ علىٰ الحسن من القبيح.. فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول.. فإن كان الذي به حسنًا قبلته.. وإن كان قبيحًا تركته.. فمكثت حتىٰ قضىٰ صلاته.. فلما قام منصرفًا إلىٰ بيته تبعته.. حتىٰ إذا دخل بيته دخلت عليه.. فقلت: يا محمد!.. إن قومك قالوا لي كذا وكذا.. والله ما برحوا يخوفونني منك حتىٰ سددت أذني بكرسف؛ لئلا أسمع قولك.. وقد سمعت منك قولاً حسنًا.. فاعرض علي أمرك..

فابتهج النبي عليه الصلاة والسلام.. وفرح.. وعرض الإسلام علىٰ الطفيل.. وتلا عليه القرآن.. فتفكر الطفيل في حاله.. فإذا كل يوم يعيشه يزيده من الله بعدًا..

وإذا هو يعبد حجرًا.. لا يسمع دعاءه إذا دعاه.. ولا يجيب نداءه إذا ناداه.. وهذا الحق قد تبين له.. ثم بدأ الطفيل يتفكر في عاقبة إسلامه..

كيف يغير دينه ودين آبائه!!.. ماذا سيقول الناس عنه؟!

حياته التي عاشها.. أمواله التي جمعها.. أهله.. ولده.. جيرانه.. خلانه.. كل هذا سيضطرب..

سكت الطفيل.. يفكر.. يوازن بين دنياه وآخرته.. وفجأة إذا به يضرب بدنياه عرض الحائط..

نعم سوف أستقيم علىٰ الدين.. وليرض من يرضىٰ.. وليسخط من يسخط.. وماذا يكون أهل الأرض.. إذا رضي أهل السماء؟!..

ماله ورزقه بيد من في السماء.. صحته وسقمه بيد من في السماء.. منصبه وجاهه بيد من في السماء.. بل حياته وموته بيد من في السماء.. فإذا رضي أهل السماء.. فلا عليه ما فاته من الدنيا..

إذا أحبه الله.. فليبغضه بعدها من شاء.. وليتنكر له من شاء.. وليستهزئ به من شاء..

نعم.. أسلم الطفيل في مكانه.. وشهد شهادة الحق.. ثم ارتفعت همته.. فقال: يا نبي الله!.. إني امرؤ مطاع في قومي.. وإني راجع إليهم وداعيهم إلىٰ الإسلام..

ثم خرج الطفيل من مكة.. مسرعًا إلىٰ قومه.. حاملاً هم هذا الدين.. يصعد به جبل.. وينزل به وادٍ.. حتىٰ وصل ديار قومه.. فلما دخلها.. أقبل إليه أبوه.. وكان شيخًا كبيرًا..

فقال الطفيل: إليك عني يا أبت.. فلست منك ولست مني..

قال: ولم يا بني؟

قال: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ..

قال: أي بني ديني دينك..

قال: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك.. ثم ائتني حتىٰ أعلمك مما علمت..

فذهب أبوه واغتسل وطهر ثيابه.. ثم جاء فعرض عليه الإسلام فأسلم.. ثم مشىٰ الطفيل إلىٰ بيته.. فأتته زوجته مرحبة..

فقال: إليك عني.. فلست منك ولست مني..

قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي..

قال: فرق بيني وبينك الإسلام.. وتابعت دين محمد ﷺ..

قالت: فديني دينك..

قال: فقلت فاذهبي فتطهري.. ثم ارجعي إلي.. فولته ظهرها ذاهبة.. ثم خافت من صنمهم أن يعاقبها في أولادها إن تركت عبادته..

فرجعت إليه وقالت: بأبي أنت وأمي.. أما تخشىٰ علىٰ الصبية من ذي الشرىٰ..؟ وذو الشرىٰ صنم عندهم يعبدونه.. وكانوا يرون أن من ترك عبادته أصابه أو أصاب ولده بأذىٰ..

فقال الطفيل: اذهبي.. أنا ضامن لك ألا يضرهم ذو الشرىٰ.. فذهبت

فاغتسلت.. ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت..

ثم جعل الطفيل يطوف في قومه.. يدعوهم إلىٰ الإسلام بيتًا بيتًا.. ويقبل عليهم في نواديهم.. ويقف عليهم في طرقاتهم.. لكنهم أبوا إلا عبادة الأصنام.. فغضب الطفيل.. وذهب إلىٰ مكة..

فأقبل علىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله!.. إن دوسًا قد عصت وأبت.. يا رسول الله!.. فادع الله عليهم.. فتغير وجه النبي عليه الصلاة والسلام.. ورفع يديه إلىٰ السماء..

فقال الطفيل في نفسه: هلكت دوس..

فإذا بالرحيم الشفيق ﷺ.. يقول: «اللهم اهد دوسًا.. اللهم اهد دوسًا»..

ثم التفت إلىٰ الطفيل وقال: ارجع إلىٰ قومك.. فادعهم.. وارفق بهم.. فرجع إليهم.. فلم يمض عليهم وقت حتىٰ أسلموا..

استجابة دعائه على أعدائه:

انظر إلىٰ رسول الله ﷺ وقد جلس في مجلسه المبارك.. بعدما انتشر الدين.. ووحد رب العالمين.. فجعل رؤساء القبائل يأتون إليه مذعنين مؤمنين.. ومنهم من كانوا يأتون صاغرين حاقدين..

وفي يوم أقبل رئيس من رؤساء العرب.. له في قومه ملك ومنعة..

أقبل عامر بن الطفيل.. وكان قومه يقولون له لما رأوا انتشار الإسلام: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم.. وكان متكبرًا متغطرسًا..

فكان يقول لهم: والله لقد كنت أقسمت ألا أموت حتىٰ تملكني العرب عليهم وتتبع عقبي.. فأنا أتبع عقب هذا الفتىٰ من قريش!!

ثم لما رأىٰ تمكن الإسلام.. وانصياع الناس لرسول الله ﷺ.. ركب ناقته مع بعض أصحابه ومضىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ..

دخل المسجد علىٰ رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه الكرام.. فلما وقف بين

يدي النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا محمد خالني - أي: قف معي علىٰ انفراد..

وكان ﷺ حذرًا من أمثال هؤلاء.. فقال: «لا والله حتىٰ تؤمن بالله وحده»..

فقال: يا محمد خالني.. فأبىٰ النبي ﷺ.. فلا زال يكرر.. يا محمد قم معي أكلمك.. يا محمد قم معي أكلمك.. حتىٰ قام معه رسول الله ﷺ.. فاجترّ عامر إليه أحد أصحابه اسمه إربد.. وقال: إني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاضربه بالسيف.. فجعل إربد يده علىٰ سيفه واستعد..

فانفرد الاثنان إلىٰ الجدّار.. ووقف معهما رسول الله ﷺ يكلم عامرًا.. وقبض إربد بيده علىٰ السيف.. فكلما أراد أن يسله يبست يده.. فلم يستطع سل السيف..

وجعل عامر يشاغل رسول الله ﷺ.. وينظر إلىٰ إربد.. وإربد جامد لا يتحرك.. فالتفت ﷺ فرأىٰ إربد وما يصنع.. فقال: «يا عامر بن الطفيل.. أسلم»..

فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟

فقال ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم»..

قال عامر: أتجعل لي الملك من بعدك إن أسلمت؟

فقال ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك»..

فقال: أسلم علىٰ أن لي الوبر ولك الدر.. - أي: أكون ملكًا علىٰ البادية وأنت علىٰ الحاضرة.

فقال ﷺ: «لا»..

عندها غضب عامر وتغير وجهه.. وصاح بأعلىٰ صوته: والله يا محمد.. لأملأنها عليك خيلاً جردًا.. ورجالاً مردًا.. ولأربطن بكل نخلة فرسًا.. ولأغزونك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء.. ثم خرج يبرق ويرعد.. فرفع

رسول الله ﷺ بصره إلىٰ السماء وقال: «اللهم اكفني عامرًا واهد قومه»..

فخرج مع أصحابه حتىٰ إذا فارق المدينة.. تعب من المسير.. فصادف امرأة من قومه يقال لها: سلولية وكانت في خيمة لها.. فنزل عن فرسه ونام في بيتها..

فأخذته غدة وانتفاخ في حلقه كما يظهر في أعناق الإبل فيقتلها.. ففزع واضطرب.. ووثب علىٰ فرسه.. وأخذ رمحه.. وأقبل يجول.. ويصيح من شدة الألم.. ويتحسس عنقه بيده ويقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية.. فلم تزل تلك حاله يدور به فرسه.. حتىٰ سقط عن فرسه ميتًا..

فتركه أصحابه.. ورجعوا إلىٰ قومهم.. فلما دخلوا ديارهم.. أقبل الناس إلىٰ إربد يسألونه: ما وراءك يا إربد؟

قال: لا شيء.. والله لقد دعانا محمد إلىٰ عبادة شيء.. لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتىٰ أقتله..

فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له ليبيعه.. فأرسل الله عليه وعلىٰ جمله صاعقة فأحرقتهما.. وأنزل الله ﷻ في حال عامر وإربد: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٠-١٣].

المشركون يشهدون

قبل فتح مكة.. خرج ﷺ إليها معتمرًا.. فلما أقبل علىٰ الحرم بعثت قريش إليه البعوث يردونه عن المسجد الحرام..

فكان ممن جاءه عروة بن مسعود وجعل يكلم النبي ﷺ وينظر إلىٰ الصحابة

حوله.. فوالله ما انتخم النبي ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم.. فدلك بها وجهه وجلده.. وإذا أمر ابتدروا أمره.. وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه.. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم.. وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له..

فلما رأىٰ عروة ذلك رجع إلىٰ أصحابه.. فقال: أي قوم.. والله قد وفدت علىٰ الملوك.. كسرىٰ.. وقيصر.. والنجاشي..

والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه.. كما يعظم أصحاب محمد محمدًا..

كانوا يحبونه.. بل كان الصحابة يصرحون بهذا الحب العظيم حتىٰ قال له عمر يومًا: يا رسول الله.. أنت أحب إلي من مالي وولدي.. بل والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي..

وجاء رجل إليه ﷺ فقال: متىٰ الساعة يا رسول الله؟

قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت»..

فما فرح الصحابة بشيء كفرحهم بهذه الكلمة.. أنت مع من أحببت..

وكانوا ﷺ إذا مشوا بجانبه أظلوه من الشمس.. وإذا سافروا معه فأتوا علىٰ شجرة ظليلة تركوها له ﷺ يرتاح في ظلها..

كيف أحبوه؟

ولكن بالرغم من كل هذه المحبة والإجلال.. والحب والوفاء.. والمكانة العظيمة له ﷺ في قلوب صحابته الكرام.. فإنهم لم ينزلوه فوق منزلته.. أو يرفعوه عن منزلة البشرية..

فمحمد بن عبد الله ﷺ.. هو رسول الله.. ونبيه.. وعبده..

نعم.. هو سيد ولد آدم.. والشافع يوم الحشر.. لكنه كما قال الله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ

﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت:٦]..

فكونه ﷺ بشرًا.. لا ينقص من قدره.. وقد بلغ ﷺ رسالة ربه.. وتحمل الأذىٰ.. حتىٰ نصره الله.. وبلغ دينه..

فما حق الرسول ﷺ على أمته؟ أهو إنشاد المدائح مع ما فيها من الغلو؟؟

كلا.. فقد نهىٰ ﷺ عن ذلك فقال كما في الصحيحين: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم؛ إنما أنا عبد الله ورسوله»..

أم حقه.. في إقامة الموالد والاحتفال بالإسراء والمعراج..؟؟

كلا.. فقد نهىٰ ﷺ عن ذلك فقال كما في الصحيحين: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»..

أم حقه.. في الاستغاثة به.. ودعائه من دون الله؟ أو الطواف علىٰ قبره.. أو الحلف باسمه من دون الله..؟

كلا.. كلا.. فهذا كله من الشرك بالله..

مقتل أمية بن خلف في بدر

روىٰ موسىٰ بن عقبة في مغازيه: أن سعد بن معاذ كان بينه وبين أمية بن خلف إخاء في أيام الجاهلية، فكان أمية بن خلف إذا أراد أن يسافر إلىٰ الشام يخرج من مكة شمالاً فيمر بالمدينة فينزل عند سعد بن معاذ، ينزل عنده يومًا أو يومين ليستريح ثم يكمل طريقه إلىٰ الشام، وإذا رجع من الشام جنوبًا فإنه يمر بالمدينة أولاً ثم يمضي منها إلىٰ مكة فكان أيضًا يرتاح عند صديقه سعد بن معاذ أيامًا، وكان سعد بن معاذ يفعل الشيء نفسه إذا أراد أن يمضي إلىٰ اليمن أو صارت له حاجة في مكة يمضي ويجلس عند أمية بن خلف، يرتاح عنده يومًا أو يومين، ولم تقع حروب بعد بين المسلمين وقريش، وكان النبي ﷺ ما هاجر إلا قبل وقت يسير إلىٰ المدينة.

فجأة في يوم من الأيام ذهب سعد بن معاذ إلىٰ مكة في حاجة، فنزل عند صديقه أمية بن خلف وهو نازل قال لأمية: يا أمية، انظر لي ساعة خلوة أريد أن أطوف بالبيت.

فقال له أمية: إذًا انتظر إذا تعالىٰ النهار، واشتد الحر - يعني: قبيل الزوال بقليل - فقبيل الظهر الناس يأوون إلىٰ بيوتهم، وعندها أخرج أنا وأنت وتطوف بالبيت، فلا يكون فيه زحام ولا يرانا أحد في الطريق - يعني يصطنع معنا مشاكل - فلما تعالىٰ النهار أخذ أمية بن خلف بيد صاحبه وخرجا، وفي أثناء الطريق ما لقيهم مملوك من مماليك مكة أو أمة من الإماء، أو رجل من الضعفاء، فإذا بفرعون هذه الأمة ورأس الكفر؛ إذا بأبي جهل هو الذي يلقاه، فقال أبو جهل لأمية بن خلف: من هذا؟

قال: هذا أخي اليثربي.

فقال أبو جهل: من يثرب؟

قال: نعم.

فغضب أبو جهل، وقال لسعد بن معاذ: آويتم محمدًا والصباة معه - والصباة: صابئ، وهو الذي غير دينه - ثم تأتي تريد أن تطوف بالبيت آمنًا، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلىٰ أهلك سالمًا.

فغضب سعد بن معاذ وهو سيد غير متعود أن يسخر منه واحد هكذا، فهو سيد من سادات قومه في المدينة.

فغضب سعد بن معاذ وقال: لئن منعتني يا أبا جهل من هذا - يعني: الطواف بالبيت - لأمنعنك ما هو أحب إليك من ذلك.

قال أبو جهل: تمنعني ماذا؟ أنتم عندكم كعبة بالمدينة تمنعني منها؟!

قال سعد: أمنعك طريقك إلىٰ الشام.

فغضب أبو جهل وقال: والله ما تقدر.

فقال سعد: بل أقدر.

فصارت بينهما الخصومة وأمية بن خلف المسكين تورط يتلفت يمينه فإذا سعد بن معاذ، وهو سيد من سادات قومه في المدينة، ويلتفت يسارًا فإذا بأبي جهل سيد من سادات قومه في مكة وما عاد يدري يفزع مع هذا أم مع هذا؟

فمالت نفسه إلىٰ أبي جهل، والتفت إلىٰ سعد وقال: يا سعد لا ترفع صوتك علىٰ أبي الحكم؛ فإنه سيد هذا الوادي.

وأما سعد فقد غسل يديه من الاثنين والتفت إلىٰ أمية فقال: وأنت دعني منك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يخبرنا أننا نقتلك.

قال أمية: هاه!! محمد قال لكم: إنكم تقتلوني؟

قال سعد: نعم.

قال أمية: والله ما يكذب محمد أبدًا، لكن قال لكم: ستقتلونني في مكة أم في غيرها؟

قال سعد: ما أدري في مكة أم في غيرها، المهم أنك مقتول، مقتول بأيدي المسلمين.

فترك أمية بن خلف الاثنين ومضىٰ يكلم نفسه، ويقول: والله ما يكذب محمد أبدًا، حتىٰ دخل علىٰ امرأته، فقال لها: يا أم صفوان. قالت: نعم.

قال: أما علمت ما قال لي أخي اليثربي؟

قالت: وماذا قال لك؟

قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم يقتلونني، قالت: والله ما يكذب محمد أبدًا، لكن يقتلونك في مكة أم غيرها؟ قال: والله ما أدري، لكن لك علي أن لا أخرج من مكة أبدًا، مكة فيها الحرس، فيها عبيدي ومماليكي، وفيها قومي، لن أخرج من مكة أبدًا.

ومضت الأيام.. فأقبلت قافلة لقريش ومرت بطريق قريب من المدينة وخرج

النبي ﷺ إليهم، فأرسل أبو سفيان إلىٰ مكة يستنصرهم ويستخرجهم للخروج والدفاع عن قافلتهم، فجعل أبو جهل يطوف في الناس يقول: أيها الناس انفروا إلىٰ قافلتكم ودافعوا عنها.

كل الناس في مكة تجهزوا للخروج للقتال إلا واحدًا من هو؟ أمية بن خلف ظل جالسًا، أبو جهل يذهب ويجيء والناس يتجهزون، وأمية بن خلف جالس في ظل الكعبة، مر أبو جهل مرة ومرتين وأمية جالس، فوقف عليه أبو جهل قال: يا أمية، يا أبا صفوان، ها تجهز.

قال: ما أريد أن أخرج.

قال أبو جهل: عجبًا!! إنك متىٰ جلست جلس الناس معك، فأنت لست أي واحد، أنت سيد من السادات، قال أمية: أما تذكر ما قال أخي اليثربي؟

قال أبو جهل: يا أبا صفوان اخرج معنا، أنت الآن تخرب علينا الجيش كله، قال أمية: ولا أتحرك من مكة أبدًا.

أبو جهل صحيح إنه كافر وضال لكنه ذكي.

مضىٰ أبو جهل وأحضر مبخرة ووضع فيها جمرًا، ووضع عليها كسرة - عود بخور - ثم أقبل علىٰ أمية وهو جالس مع قومه، فقال: يا أبا صفوان خذ هذا وتطيب إنما أنت من النساء.

قال أمية: هاه!! النساء.

قال أبو جهل: نعم، لو أنك رجل طلعت تقاتل مع الرجال، لكن اقعد مع الحريم، ونحن نخرج لنقاتل؛ فغضب أمية وضرب المبخرة، وقام إلىٰ بيته وقال: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت: أجهزك إلىٰ أين؟

قال: سأخرج معهم.

قالت: أما تذكر ما قال أخوك اليثربي؟

قال: سأخرج معهم مرحلة أو مرحلتين، ثم أرجع، فالطريق إلىٰ المدينة طويل خمسمائة كيلو، سأمشي معهم، أكيد في الطريق سينزلون للغداء سينزلون للعشاء، سينزلون للمبيت، فإذا نزلوا منزلاً وهم ألف وثلاثمائة، سوف أغافلهم وأرجع، لكن أبو جهل كان أذكىٰ منه، فكان كلما نزلوا وأقبل أمية وجلس علىٰ بعيره، ينتظر أن ينشغلوا بالارتحال فيهرب، لكن أبو جهل يقبل ويقف آخر الجيش ويقول: ارتحلوا، قم يا أمية، وهكذا يفعل أبو جهل كلما نزلوا منزلاً، فلم يزل يسوقه حتىٰ وصل مكان بدر، ثم قتل بأيدي المسلمين، وكان كما أخبر النبي ﷺ.

فهذا من إخباره عليه الصلاة والسلام بشيء من المغيبات.

الذراع المسموم ونجاة النبي المعصوم:

روىٰ البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي لما فتح خيبر دعته امرأة يهودية إلىٰ الطعام فأقبل ﷺ، وكانوا قد حاصروا خيبر وقتًا طويلاً حتىٰ جاعوا وتعبوا وأرهقوا حتىٰ أصابهم الحاجة، فلما وضعت هذه المرأة اليهودية هذا الطعام أقبل النبي ﷺ مع أصحابه وجلسوا حول هذه الشاة المشوية، فلما رفع النبي إليه الذراع ونهش منها نهشة، صاح بأصحابه ليتوقفوا عن الطعام فتوقفوا، ثم وضع الذراع، ثم قال: «ادعوا لي من هاهنا من اليهود»، فدعوهم له، فأقبل رؤساؤهم فوقفوا بين يديه ﷺ فقال لهم: «يا معشر يهود، هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم، يا أبا القاسم.

فقال النبي: «من أبوكم؟»

قالوا: أبونا فلان.

فقال ﷺ: «كذبتم بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت وبررت؛ لأن هؤلاء اليهود كانوا ينتسبون إلىٰ جد جبان،

وكانوا إذا سئلوا في معرض الافتخار من أبوكم؟ انتسبوا إلىٰ جد آخر هو في الحقيقة ليس جدًّا ليهود خيبر، إنما هو ليهود آخرين، لكنهم ما يريدون أن ينتسبوا إلىٰ جدهم الجبان، فإذا افتخروا انتسبوا إلىٰ جد آخر.

فقالوا: أبونا فلان، أي: لهذا الجد الآخر.

فقال ﷺ: «كذبتم، بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت وبررت.

قال: «يا معشر يهود، هل أنتم صادقوني إن سألتكم عن شيء».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا».

ثم قال لهم: «هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟».

قالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم علىٰ ذلك؟».

فقالوا: أردنا إن كنت ملكًا متسلطًا تموت ونستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك، لكن من أخبرك؟

فقال ﷺ: «الذراع».

سبحان الله!! لما أراد أن يأكل الذراع، من محبة الذراع للنبي ﷺ لما قربها إلىٰ فيه قالت: لا تأكلني أنا مسمومة يا رسول الله، هي ما تستطيع أن ترد السم عن نفسها، ولكنها ما تود أن تكون في بطن النبي ﷺ وهي مسمومة فنطقت.

أكثر عقلاء المجانين شهرة

لعل من أكثر عقلاء المجانين شهرة: «أبو وهيب بهلول بن عمرو بن المغيرة» الذي عاصر هارون الرشيد، وكثرت الأخبار المنقولة عنه في كتب التأريخ والسير. قال محمد ابن إسماعيل بن أبي فديك: رأيت بهلولاً في بعض المقابر قد دلىٰ رجله في قبر وهو يلعب بالتراب. فقلت له: ما تصنع ههنا؟ قال: أجالس أقوامًا لا يؤذونني، وإن غبت عنهم لا يغتابونني. فقلت: قد غلا السعر فهل تدعو الله فيكشف؟ فقال: والله ما أبالي ولو حبة بدينار، إن الله قد أخذ علينا أن نعبده كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا.

أما أبو الحسن سليمان بن بدر المجنون فقد سُئل يومًا: أجننت؟ قال: أما عن غفلة فنعم، وعن المعرفة فلا. قيل: كيف حالك مع المولىٰ؟ قال: ما جفوته مذ عرفته. قيل: ومذ كم عرفته؟ قال: مذ جعل اسمي في المجانين!

إذن يبدو بأن حدود العقل والجنون قد تبدلت لدىٰ هؤلاء القوم الذين أطلق عليهم لقب «عقلاء المجانين»؛ لأن الجنون لم يعد يستر لديهم العقل من صحوته، بل يستر عنهم الدنيا وملذاتها، وما تجر عليهم من ويلات تنشب عن معاقرة المعاصي والغفلة عن ذكر الله تعالىٰ، لذا فالمجنون مستور عن الدنيا قريب من الله - بمعيارهم واصطلاحهم المجازي - أما العقلاء فهم ليسوا سوىٰ مجانين يتهمون العقلاء الأصحاء - وهم قلة - بهذه الآفة.

من أجل هذا نجد شقران المجنون يصدع بالقول في الناس المزدحمين عليه - وهم ينظرون إليه نظرة العقلاء إلىٰ معتوه - قائلاً: يا أيها الناس الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها، والآخرة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها.

لقد التف حول راية عقلاء المجانين زمر من الزهاد والمنقطعين عن الدنيا ولذاتها الفانية، تظاهروا بالجنون لكي يسلموا من المجتمع الذي كان الترف قد بدأ ينخر في جسده، فضمنوا الأمن من مناصبتهم العداء، وانشغالهم بمجابهة

مجتمعهم وهم قليل لا شوكة لهم، ولم تخلُ ساحتهم من نسوة تَبنَّت نفس الموقف، فعرفت منهن ريحانة الأبلية، وآسية البغدادية، وحيونة الأهوازية، وسلمونة العبادانية. تفرغت هؤلاء النسوة للعبادة وقيام الليل، واتخذن من المقابر والجبانات مساكن لهن بعيدًا عن المدن والأمصار التي كانت تعج بملاذ الدنيا وترفها.

التعامل مع الوالدين

هذا أحد العلماء، وهو كَهْمَس بن الحسن الحنفي البصري. قال عنه الذهبي: من كبار الثقات، وكان ﷺ برًّا بأمه، فلما ماتت حج، وأقام بمكة حتىٰ مات.

فماذا بلغ من بِرِّه؟ قيل: إنه أراد قتل عقرب فدخلت في جحر، فأدخل أصابعه خلفها فضربته، فقيل له. قال: خفت أن تخرج فتجيء إلىٰ أمي تلدغها! تلقّىٰ لسعة العقرب بدلاً من أمه!

إن بر الوالدين من الأعمال الصالحة التي يُتقرّب بها إلىٰ الله كما في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلىٰ غار، والقصة في الصحيحين، وفيها: «فقال واحد منهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت آتيهما كل ليلة بلبنِ غنم لي فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتىٰ يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنَّا لشربتهما - أي يضعفا - فلم أزل أنتظر حتىٰ طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساخت عنهم الصخرة حتىٰ نظروا إلىٰ السماء».

وإن بر الوالدين مما يبلغ معه العبد المنزلة العالية عند الله، بل يبلغ منزلة عند الله بحيث لو أقسم علىٰ الله لأبرَّ الله قسمه، كما في قصة أويس القرني؛ حيث قال عنه النبي ﷺ: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من

مراد ثم من قرن، كان به برص فبَرَأ منه إلا موضعَ درهم، له والدةٌ هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» [رواه مسلم]. وقد قال ذلك لعمر ﷺ.

وفي رواية لمسلم: «إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم».

وإن برَّ الأمهات يبلغ بصاحبه الدرجات العُلا روى البخاري من حديث أنس بن مالك أن الرُّبيِّع بنت النضر - عمة أنس - أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ - وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم - فإن كان في الجنة صبرتُ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء قال: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». هو حارثة بن النعمان ﷺ ويُقال: حارثة بن سُراقة، وترجم الحافظ ابن حجر في الإصابة لاثنين، بينما رجَّح في الفتح أنه واحد.

هذا الرجل أوصلَه بِرُّه إلى الجنة؛ فعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أدور في الجنة سمعت صوت قارئ، فقلت: من هذا؟ فقالوا: حارثة بن النعمان. قال: كذلكم البر، كذلكم البر. قال: وكان أبرَّ الناس بأمِّه». [رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين]. وهو كما قال.

فما البر؟

سُئل الحسن ما برّ الوالدين؟ قال: «أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به إلا أن تكون معصية». [رواه عبد الرزاق في المصنف].

من أجل هذه الفضائل المجتمعة في بر الوالدين حرص السلف على البر بآبائهم،

فهذا عبد الله بن عمر ﷺ يبرّ ابن صاحب أبيه بعد موت أبيه؛ فعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروَّح عليه إذا ملَّ

ركوب الراحلة، وعمامةٌ يشد بها رأسه، فبينا هو يومًا علىٰ ذلك الحمار إذ مرَّ به أعرابي، فقال: ألست ابن فلان ابن فلان قال: بلىٰ فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا، والعمامة أشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حمارًا كنت تروَّح عليه، وعمامةً كنت تشدُّ بها رأسك، فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولِّي»، وإن أباه كان صديقًا لعمر ﷺ. [رواه مسلم].

وكان أبو هريرة ﷺ من أبرِّ الناس بأمه.

ومن أجل ذلك بكىٰ الشعراء أمهاتهم بكىٰ الشعراء آباءهم لِمَا كانوا يرجون من بِرِّهم والإحسانِ إليهم، ومن أجمل من رثىٰ وبكىٰ والديه الشاعر عمر بهاء الدين الأميري.

وأمر الله ﷻ بالإحسان إلىٰ الوالدين ولو كانا مشركين، قال - تبارك وتعالىٰ -: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت:٨].

قال القرطبي في التفسير: نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روىٰ الترمذي قال: أنزلت فيّ أربعُ آيات فذكر قصة، فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتىٰ أموت أو تكفر. قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها.

وروي عن سعد أنه قال: كنت بارًّا بأمي فأسْلَمْتُ، فقالت: لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتىٰ أموت فتُعيَّر بي، ويقال: يا قاتل أمه! وبَقِيَتْ يومًا ويومًا، فقلت: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت. فلا طاعة للوالدين في المعصية.

قال الحسن: إن منعته أمه عن العشاء في الجماعة شفقة لم يطعها. علّقه البخاري.

وقال ﷻ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:١٤، ١٥].

فتأمل الأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين، وإن كانا علىٰ الشرك، بل وإن كانا يدعوان ابنهما إلىٰ الشِّرك فالإحسان مطلوب وإن كانا علىٰ الشرك.

قالت أسماء بنت أبي بكر ﷺ: قدمت عليَّ أمي وهي مُشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصِل أمي؟ قال: «نعم، صِلي أمك». [رواه البخاري ومسلم].

قصة الأسقف

عند البخاري: أن الإسلام لما تمكن في المدينة، بدأ رسول الله ﷺ يبعث بالكتب إلىٰ ما حوله يدعوهم إلىٰ الإسلام، وكان أهل نجران نصارىٰ، فكتب إلىٰ أسقفهم: «باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله إلىٰ أسقف نجران أسلم أنتم.. فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب..

أما بعد: فإنىٰ أدعوكم إلىٰ عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلىٰ ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام».

فلما أتىٰ الأسقف الكتاب فقرأه فظع به وذعر به ذعرًا شديدًا، وبعث إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة - وكان من همدان، ولم يكن أحد يدعىٰ إذا نزلت معضلة قبله - فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلىٰ شرحبيل فقرأه.

فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟

فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما تؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل؟ ليس لي في النبوة رأي ولو كان أمرًا من

أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأي وجهدت لك.

فقال له الأسقف: تنح فاجلس. فتنحىٰ شرحبيل فجلس ناحيته.

فبعث الأسقف إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له: عبد الله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي، فقال له مثل قول شرحبيل.

فقال له الأسقف: تنح فاجلس، فتنحىٰ فجلس ناحيته.

وبعث الأسقف إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحىٰ فجلس ناحيته.

فلما اجتمع الرأي منهم علىٰ تلك المقالة جميعًا، أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النيران بالصوامع.

فاجتمع أهل الوادي جميعًا، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، ومائة وعشرون ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه.

فاجتمع رأيهم علىٰ أن يبعثوا نفرًا منهم علىٰ رأسهم شرحبيل بن وداعة وعبد الله الأصبحي وجبار بن فيض.. فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ.

فلما وصلوا المدينة وهم نصارىٰ، دخلوا علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام في المسجد، ثم سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتىٰ قالوا: ما تقول في عيسىٰ؟ فإنا نرجع إلىٰ قومنا ونحن نصارىٰ يسرنا إن كنت نبيًّا أن نسمع ما تقول فيه.

فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتىٰ أخبركم

بما يقول الله في عيسىٰ».

فأصبح الغد وقد أنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٥٩-٦١]. فأبوا أن يقروا بذلك، وقالوا: بل عيسىٰ ابن الله.

فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد دعاهم إلىٰ الملاعنة، فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرىٰ أمرًا ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكًا متقويًا، فكنا أول العرب طعن في عينه ورد عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتىٰ يصيبونا بجائحة، وإنا أدنىٰ العرب منهم جوارًا، ولئن كان هذا الرجل نبيًّا مُرسلاً فلاعناه لا يبق علىٰ وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟

فقال: رأيي أن أحكمه بيننا وبينه، فإني أرىٰ رجلاً لا يحكم شططًا أبدًا.

فقالا له: أنت وذاك.

فتلقىٰ شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني قد رأيت خيرًا من ملاعنتك.

فقال: «وما هو؟».

فقال: حكمك فينا، فمهما حكمت فينا فهو جائز.

فقال ﷺ: «لعل وراءك أحدًا يثرب عليك؟».

فقال شرحبيل: سل صاحبي.

فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل.

فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم. وواعدهم من الغد، حتىٰ إذا كان الغد

أتوه فكتب لهم هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد النبي الأمي رسول الله لنجران أن كان عليهم حكمه في كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل عليهم...» إلىٰ آخر الكتاب.

حتىٰ إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلىٰ نجران، ومع الأسقف أخ له اسمه بشر بن معاوية، فبينما هما يسيران علىٰ الدواب ويقرءان الكتاب إذ عثرت ببشر ناقته، فقال: تعس فلان؛ يعني رسول الله ﷺ.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست، قد والله تعست نبيًّا مرسلاً، والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره.

فقال له بشر: وما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟

فقال له: ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شرفونا ومولونا وأخدمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترىٰ.

فقال له بشر: لا جرم، والله لا أحل عنها عقدًا حتىٰ آتي رسول الله ﷺ.

قال: وصرف وجه ناقته نحو المدينة، وثنىٰ الأسقف ناقته عليه.

فقال له: افهم عني، إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب، مخافة أن يروا أنا أخذنا حقه، أو رضينا بصوته، أو نخعنا لهذا الرجل بما لم تنخع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم دارًا.

فقال له بشر: لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبدًا.

ثم ضرب بشر ناقته وهو مولىٰ الأسقف ظهره، وهو يقول:

إليـــك تغـــدو قلقـّــا وضينهـــــا

معتــرضًــا في بطنهــــا جنينهــــــا

مخــالفـّـا ديـن النصــــارىٰ دينهـــا

حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ ولم يزل معه حتىٰ قُتل بعد ذلك علىٰ الإسلام.

قتلت زوجها

اعتقلت يابانية في الثانية والثلاثين من العمر لإقدامها على قتل زوجها السيئ الطباع، وتقطيع جثته والتخلص منها بنثر أجزائها في مناطق مختلفة من طوكيو كما ذكرت الـ (سي. إن. إن).

وقد اعترفت الزوجة القاتلة كواري ميهاشي بقتل زوجها يوسوكي الموظف في شركة وساطة مالية والبالغ الثلاثين من العمر عبر تحطيم رأسه بزجاجة خمر خلال استغراقه في النوم فجر الثاني عشر من كانون ديسمبر.

وفي الأيام التالية عثر على الجذع العاري من جثة القتيل ملفوفا في حقيبة بلاستيكية متروكة في أحد الشوارع. وظن المارة في بادئ الأمر أن ما رأوه هو دمية قديمة متروكة. ثم عثر على الساقين والحوض في حديقة منزل غير مأهول.

وعلى أثر اعترافات الزوجة حدد رجال الشرطة مكان وجود رأس زوجها في حديقة عامة في أحد أحياء وسط طوكيو.

وبررت الزوجة القاتلة جريمتها بأعمال العنف الزوجية المتكررة التي عانت منها طوال ستة أشهر. وقد تزوج هذا الثنائي في مارس ٢٠٠٣.

قصة غسيل الملائكة حنظلة

قد روى الحاكم في المستدرك أن حنظلة بن أبي عامر تزوج فدخل بأهله الليلة التي كانت صبيحتها يوم أحد، فلما صلى الصبح لَزِمَتْهُ «جميلة» فَعَادَ فكان معها، فأجنب منها ثم إنه لحق برسول الله ﷺ، فقُتِل يوم أحد وغسّلته الملائكة.

قصة الشاب الأنصاري

رواها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي السائب مولى هشام بن زهرة

أنه دخل علىٰ أبي سعيد الخدري في بيته قال: فوجدته يصلي، فجلست أنتظره حتىٰ يقضي صلاته، فسمعت تحريكًا في عراجين في ناحية البيت فالتفت فإذا حيَّة فوثبت لأقتلها فأشار إليَّ أن اجلس، فجلست، فلما انصرف أشار إلىٰ بيت في الدار، فقال: أترىٰ هذا البيت؟ فقلت: نعم، قال: كان فيه فتىٰ منّا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ الخندق فكان ذلك الفتىٰ يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلىٰ أهله، فاستأذنه يومًا، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك فإني أخشىٰ عليك قريظة».

فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوىٰ إليها الرمح ليطعنها به وأصابته غيرة، فقالت له: اكفف عليك رُمحك، وادخل البيت حتىٰ تنظر ما الذي أخرجني، فدخل فإذا بِحَيّةٍ عظيمة منطوية علىٰ الفراش فأهوىٰ إليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه، فما يُدرىٰ أيهما كان أسرع موتًا الحيّة أم الفتىٰ؟ قال: فجئنا إلىٰ رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه لنا، فقال: «استغفروا لصاحبكم» ثم قال: «إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان».

خيانات

حدّثني طبيب مسلم يُقيم في فرنسا أن دار حوار بينه وبين طبيبة فرنسية حول الخيانات الزوجية، فسألها: لو كنتِ مع زوجك فأغمضتِ عينيك، هل تأمنيه ألاّ يخونك؟!! فقالت: لا، ولا هو يأمنني!

فمباح لهم اتّخاذ العشرات، وحرام علينا تزوّج ثانية أو ثالثة أو رابعة!!

وهناك طائفة من الأمريكان يُسمّون «شيعة المورمون» وهم نصارىٰ، ويقولون بتعدد الزوجات ومن منسوبي تلك الطائفة من يتزوّج عشر نساء!! بل كان لقائدهم «يونج» عشرون زوجة!! وللرجل منهم أن يجمع بين الأخوات،

وبين الأم وابنتها.

والسؤال: لِمَ لَمْ نسمع يومًا من الأيام مَنْ ينتقد تلك الطائفة، أو يُشنّع عليها؟

لِتُعلم حقيقة الهجوم الصارخ على التعدد، وأنه جزء من الهجمة الشرسة على دين الإسلام، لا على التعدد نفسه.

حلال للنصارى من كل جنس، حرام على بني الإسلام!!

أو قُل: هو الكيل بمكيالين، والوزن بميزانين.

ولا لوم على من كان أعشى البصيرة أنْ سقط في حُفَر الضلال، أو تردّى في هوّة التّبعية، أو خنق نفسه بِربقة التقليد الأعمى!

طرفة

حدثني أخي وقد ألقى محاضرة تعريفية عن الإسلام في جامعة في فنزويلا فسألته فتاة عن الحجاب فأجابها ثم سألته أخرى عن تعدد الزوجات، ولماذا يكون للرجال دون النساء؟

فأجابها على الفور: لِمَن يكون الولد؟

فطأطأت رأسها، وضحك عليها زملاؤها وزميلاتها!

ماليزيا تدعو للتعدد

أقر مجلس ولاية تيرينجانو بشمال شرق ماليزيا منح مكافآت خاصة للرجال المسلمين المتزوجين من ٤ نساء بينهن امرأتان على الأقل تعولان أطفالاً في خطوة تهدف إلى تشجيع الشبان على الإقبال على الزواج من الأرامل والأكبر سنًّا بغرض رعايتهن.

ونقلت صحيفة «بريتا هاريان» الماليزية عن رئيس لجنة شؤون المجتمع بالولاية «وان حسن» القول: «إن هذه المكافأة لا تمنح سوى للرجال الذين

يتزوجون نساء يعولن أطفالاً». وأضاف: «إذا تزوج الرجال من عذارىٰ فلن يمنحوا المكافأة».

وأشار إلىٰ حرص الحكومة علىٰ كشف ذلك السر من أجل المساعدة علىٰ إقامة حياة عائلية سعيدة في ظل تعدد الزوجات، مُشددًا علىٰ ضرورة وضع الرجال الذين يتزوجون من نساء أكبر منهم سنًّا كمثل يُحتذىٰ به أمام الآخرين.

وللرجال الحق في الزواج حتىٰ ٤ نساء شريطة حصولهم علىٰ إذن شفوي من زوجاتهم الأخريات.

نساء أندونيسيا

نظمت مئات الإندونيسيات المنقبات من حزب «تحرير إندونيسيا» مسيرات سلمية أمس في شوارع وسط العاصمة الإندونيسية جاكرتا مؤيدة لتعدد الزوجات؛ حيث رفعت المنقبات المتظاهرات لافتة تقول: «الشريعة الإسلامية تسمح بتعدد الزوجات».

وأيدت أعلىٰ هيئة إسلامية في إندونيسيا كما ورد في جريدة القبس الكويتية خطة للحكومة لمنع الوزراء والمشرعين وغيرهم من المسئولين الحكوميين من تعدد الزوجات، وجاءت الخطوة بعد أن تزوج الداعية الإسلامي عبد الله جيمنا ستيار الذي يحظىٰ بشعبية واسعة بزوجة ثانية مما أثار جدلاً مجددًا بشأن تعدد الزوجات في دولة يقطنها أكبر عدد من السكان المسلمين في العالم.

تغير طارئ

أسرة هادئة، الأب في مكانة مرموقة، الوضع المادي مرتفع، أعطوا من الدنيا ما ترجوه وتتمناه كل أسرة وزيادة، كانوا لُحمةً واحدة، حتىٰ جاءت هذه الفكرة المشئومة...

تقول الأخت - وهي صغيرة في السن وتعتبر أكبر الإخوة -: تغير والدي

وتغير أسلوبه وكأنه يوطئ لشيء لا ندري ما هو!!!

فجأة صرخ في وجه والدتي: سأتزوج عليك!! بكل عنجهية وغرور وسيطرة غير عادلة.

انهارت الأم كأي زوجة تُفاجأ بهذا الخبر الذي جاءها بأسلوب غير مناسب وكأنه عقوبة!! رغم أن الأم لم تقصر فكانت طائعة هادئة، وربة بيت ممتازة.

شد وحط بينهما، ومحاولات يائسة انتهت بسفر لأبيها للشام وجاء بالضرة والضرر معها، وكانت الضرة صغيرة في السن، وهذا الأب كبير في سنه مقارنةً بها.

ولا أخفيك أنه كان يعدل في المبيت، ولكنه جار جدًّا في الأخلاق، ففي يوم الجديدة تتغير أحواله للسعادة وفي يومنا يأتي عبوسًا قمطريرًا!! شرسًا والله يا أخي..

صرت لا أطيق رؤيته، وتلفظت عليه!! وقلت له: أنت عندك مراهقة متأخرة.

استغفرت الله وقاطعتها، وبينت لها الخطأ، ثم عادت لتقول: أمي حالتها النفسية سيئة جدًّا، أنا أصبت بحالة نفسية، الآن فقط أبكي ولا أستطيع مواجهة الناس.

وحدي لا بد أن يكون معي أحد يساعدني، لم أستطع الذهاب للجامعة وتسجيل محاضراتي إلا لما كانت بجواري واحدة من أخواتي التي هي أصغر مني ولكني أخاف..

وعندها تقريبًا حالة رهاب اجتماعي ليست باليسيرة، والله المُستعان.

أخوها في المتوسط أصبح يُدخن وبدأ انحرافه من شدة المشاكل والصياح لم يعد يطيق البيت، ودراسته انخفضت حالتها واستاءت!!!

بيتنا أصبح جحيمًا بمجرد أن يأتي والدنا كلنا ندخل غرفنا، فقط تذهب له

أمي وتجلس معه، ونحن لا نطيق رؤيته!! أكره والدي.

وهنا أقول: التعدد نعمة ساقها الله لمن يحتاجها، وللأسف أسأنا استخدامها، حتىٰ أصبح لفظ التعدد يجر وراءه مصطلح الجريمة والظلم والجور.

حالة هذه السائلة كانت أكثر من سيئة نفسيًّا، ووالدتها التي تفكر في الطلاق كثيرًا، وإخوانها الذين لم يعودوا يُصلون ولا يدرسون وانحرفوا للمشاكل الكثيرة!!

أهذا مقصد الشرع من التعدد؟!

وهناك من أعرف ممن تزوج قيمهم - والدهم - وبعدها ودَّعهم ولم يعد حتىٰ ينفق عليهم!!

طبعًا لم أترك الأخت بدون رد وإنما أجبتها بما نفعها - إن شاء الله - وهذا الأمر كثيرًا.

قضية التعدد الجائر، غزت كثيرًا من الأسر، وأصبحت رمزًا للتفكك الأسري، وغلب التعدد السيئ علىٰ التعدد الجيد الذي أجادت بعض الرجال التعامل معه!! والله المستعان.

هذا رأيي فما رأيكم في مثل هذا النموذج؟ وهل هذا ينطبق علىٰ التعدد في زماننا هذا ككل، أم الظلم والجور لم تعلُ لتصبح ظاهرة؟

العقيدة والأخلاق

يقول أحد الإخوة: «في يوم من الأيام كنت أراجع طبيبًا في أحد المستشفيات، وكنت أرىٰ حسن تعامله وإظهار حرصه بالمريض وحالته، تبادر إلىٰ ذهني أنه أحد المُنَصِّرين، فقد كنت أقرأ وأسمع عن وسائلهم وأساليبهم، يقول: لكني قطعت هذا الخاطر أخذًا بحسن الظن خاصة وأنه عربي، وفي بلد مسلم، لكني عرفت فيما بعد أنه يدين بالنصرانية وربما كان مُنصرًا أو مُبشرًا

كما يقولون». انتهىٰ كلامه.

للأخلاق صلة وثيقة بالإيمان والعقيدة، قال ابن القيم ﷺ: «الدِّين كله خُلق، فمن زاد عليك في الخُلقِ زاد عليك في الدين».

يقول صاحب رسالة جميلة بعنوان «صلة الأخلاق بالعقيدة والإيمان»: «إن المتمعن في أحوال الناس يجد كثيرًا من المسلمين يغفل عن الاهتمام والاحتساب في هذا الجانب، وقد يجهل الصلة الوثيقة بين محاسن الأخلاق وقضية الإيمان والعقيدة، فبينما تجد الشخص يظن أنه قد حقق التوحيد ومحض الإيمان تراه منطويًا علىٰ ركام من مساوي الأخلاق والنقائص التي تخل بإيمانه الواجب أو تحرمه من الكمال المستحب؛ كالكبر والحسد وسوء الظن والكذب والفحش والأثرة وغير ذلك، وقد يكون مع ذلك جاهلاً بضرر هذه الأمور علىٰ عقيدته وإيمانه، أو غافلاً عن شمولية هذا الدين لجميع مناحي الحياة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، إن تحقيق التوحيد - الكلام لا زال لصاحب الرسالة- وتكميل الإيمان ليس باجتناب الشرك الأكبر فحسب، بل باجتناب كل ما ينافي العقيدة وكل ما يخل أو يقدح في كمال التوحيد والإيمان» إلىٰ آخر كلامه هناك.

إذًا فليست العقيدة متونًا تُردد، ونصوصًا تُحفظ، بل لا بد أن تتحول إلىٰ واقع عملي في الحياة، والتعامل بين الناس، ولما حصل هذا التصور عند بعض الناس ظهر انفصام نكد، وازدواجية بين مفهوم الإيمان ومقتضياته يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالىٰ.

الدعاة الصامتون

ذكر لي أحد الإخوة: «أن شبابًا من العرب في إحدىٰ الدول الغربية استأجروا غرفًا من عجوز غربية، فلما انتهت مدة الإيجار رفضوا التسديد،

وهربوا بحجة أنها كافرة، وأنهم - أي الكفار هم الذين نهبوا أموالنا كعرب».

سبحان الله بأي منطق وأي عقلية يتعامل هؤلاء؟ إنه الهوىٰ والجهل بتعاليم وآداب هذا الدين، ألم يعقد العلماء أبوابًا في كتب العقيدة والفقه في معاملة المسلم لغير المسلم؟ ومعاملة المحارب للمسلمين وغير المحارب؟

كيف نريد أن نفخر بالإسلام ونحن أول من جهل أحكامه وتخلف عن آدابه؟

قال محدثي: وكنت أرغب الإيجار من هذه العجوز فرفضتْ، خاصة عندما علمت أنني مسلم، وقالت أنتم أيها المسلمون لصوص، يقول: وسألتها عن سبب هذا الاتهام؟ فحدثتني بقصتها مع هؤلاء الشباب، قال: فحرصت علىٰ تغيير هذه الصورة عنا كمسلمين، وبعد محاولات وإغراءات وتعهدات بالدفع مقدمًا وافقت علىٰ تأجيري ووافقت رغم ارتفاع السعر، وسكنت ولا زلت أقدم لها العون وأظهر لها آداب الإسلام وأجاهد نفسي علىٰ التحلي بالفضائل مع تذكيرها في بعض الأحيان بأن هذا من آداب الإسلام، وأن ديننا يحثنا علىٰ هذه الأخلاق.

يقول: فلما حان رحيلي وعند لحظة الوداع، فإذا بها تقول لي ودمعتها علىٰ خدها: «يا بني وصية لك أن لا تموت إلا علىٰ هذا الدين».

رحم الله علي بن أصمع لما حضرته الوفاة جَمَعَ بنيه فقال: «يا بني عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حَنوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم».

إننا نملك كنزًا عظيمًا هو كنز الإيمان، لكنه الإيمان حقيقة لا صورة، الإيمان الذي لامست حلاوته شغاف القلوب فظهرت تلك الحلاوة علىٰ جوارح ذلك المسلم، أقواله وأفعاله وصفاته، فيوم ذاق طعم الإيمان عرف حقيقة الاستقامة والالتزام فأثر ذلك في سلوكه وصدقه ومعاملته.

يذكر التاريخ لنا أن الإسلام وصل إلىٰ جنوب الهند وسيلان وجزر

المالديف وسواحل الصين والفلبين وإندونيسيا وأواسط أفريقيا عن طريق تجار مسلمين لكنهم مسلمون بحق، لم يؤثر فيهم بريق ولمعان الدينار والدرهم، بل تجسد الإسلام في سلوكهم وأمانتهم وصدقهم، فأعجب الناس بهذه الأخلاق، فبحثوا وسألوا عن مصدرها، فدخلوا الإسلام عن رغبة واقتناع.

إن من أكبر وسائل التأثير في النفوس هو التميز في الأخلاق المتمثل في القدوة الصالحة، بل هو أعظم وسيلة لنشر الإسلام في كل مكان.

ومن تتبع سيرة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام وجد أنه كان يلازم الخلق الحسن في سائر أحواله، وخاصة في دعوته إلىٰ الله تعالىٰ، فأقبل الناس ودخلوا في دين الله أفواجًا، بفضل الله تعالىٰ ثم بفضل خُلقه عليه الصلاة والسلام.

فكم دخل في الإسلام بسبب خُلقه العظيم؟

فهذا يُسلم ويقول: «والله ما كان علىٰ الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ».

وذاك يقول: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا» تأثر بعفو النبي ﷺ، ولم يتركه علىٰ تحجير رحمة الله التي وسعت كل شيء بل قال له: «لقد تحجرت واسعًا».

والثالث يقول: «فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه».

والرابع يقول: «يا قومي أسلموا، فإن مُحمدًا يعطي عطاء من لا يخشىٰ الفاقة».

والخامس يقول: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتىٰ إنه لأحب الناس إليّ».

والسادس يقول بعد عفو النبي ﷺ عنه قال: «جئتكم من عند خير الناس» ثم يدعو قومه للإسلام فأسلم منهم خلق كثير.

فمن أهم مظاهر علاقة المسلم بالكافر غير المحارب للمسلمين كف الأذىٰ والظلم وعدم التعدي عليه وعلىٰ حقوقه، والتزام مكارم الأخلاق معه من الصدق والأمانة وغيرها من أخلاق الإسلام الحميدة، وجواز إيصال البر والمعروف إليه.

ففي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب أهدىٰ حُلة له إلىٰ أخ له مشرك بمكة كانت قد جاءته من النبي ﷺ.

وفي البخاري أيضًا أن ابن عمر ذُبحت له شاة في أهله فلما جاء قال: «أهديتم لجارنا اليهودي؟».

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه».

قال أحد الإخوة: «في موسم للأمطار وأنا علىٰ سيارتي مررت بغدير ماء لم أنتبه له، فتراشقت المياه علىٰ الجانبين، كان النصيب الأكبر منها لشباب جلسوا علىٰ عتبة أحد الأبواب، ويا ليت شعري لو رأيت حالهم قد تبدلت، فالثياب البيضاء كأنها سوداء، والشعرات السوداء خضبت بالطين والماء، فرجعت إليهم فلم أنتبه إلا علىٰ أصوات السب واللعان ومناداتي للرفس والطعان، يقول فرجعت إليهم مُسلِّمًا معتذرًا متأسفًا، فيا سبحان مقلب القلوب، تحول السب واللعان إلىٰ ترحيب وسلام، ودعوة إلىٰ الطعام بل إلىٰ إخاء ووئام» انتهىٰ كلامه.

فيا أيها الأحبة، أقول باختصار: إنها الأخلاق تصنع الأعاجيب، نخطئ كثيرًا عندما نعتزل بعض الناس لأننا نشعر أننا أطهر منهم روحًا، أو أطيب منهم قلبًا، أو أذكىٰ منهم عقلاً.

قال رجل لعبد الله بن المبارك: عظني، قال ابن المبارك: «إذا خرجت من منزلك فلا يقعن بصرك علىٰ أحد إلا رأيت أنه خير منك».

وليس معنىٰ هذا أن نتخلىٰ عن مبادئنا ومُثلنا السامية، أو نتملق أو نجامل، لا ولكنها الحكمة والموعظة الحسنة وفن التعامل مع الآخرين، هذا مقتبسٌ من رسالة بعنوان «أفراح الروح».

أيها المُحب، انظر لفن التعامل ومحاسن الأخلاق ماذا تفعل، هذا عكرمة بن أبي جهل ورث عداوة الإسلام عن أبيه وقاتل المسلمين في كل موطن، وتصدىٰ لهم يوم فتح مكة ثم فر إلىٰ اليمن، بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه، فتأتي زوجه أم حكيم بعد إسلامها لرسول الله تطلب الأمان لزوجها فيقول لها - بأبي هو وأمي ﷺ: «هو آمن»، ويقول لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه؛ فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت».

فيأتي عكرمة بين يدي المصطفىٰ ﷺ، فيقول عكرمة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، وأنت أبر الناس وأصدق الناس، وأوفىٰ الناس، أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالاً في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله.

لمسة حانية من نبي الرحمة صلىٰ الله عليه وآله وسلم نقلت ابن فرعون هذه الأمة إلىٰ صف أولياء الرحمن، وجعلته يندم هذا الندم ويعزم هذا العزم، ويتحول هذا التحول، إنها الأخلاق تصنع الأعاجيب.

كتب الحسن بن سهل كتاب شفاعة فجعل الرجل يشكره، فقال الحسن: يا هذا عَلام تشكرنا؟ إنا نرىٰ الشفاعات زكاة مروءتنا.

سحر المرض

وهذا النوع من السحر يأخذ شكل مرض من الأمراض، إلا أن سحر المرض يختلف عن الأمراض العضوية في أنه ربما انتقل من موضع في الجسم إلىٰ آخر دونما سبب محسوس، يقول جمال عبد الباري: «ومن الحالات التي رأيتها حالة مهندس كيميائي، عند إجراء الفحوصات الطبية عليه يتضح أنه

مصاب بالضغط والسكر وحصىٰ في الكلىٰ، وفي اليوم التالي يجري فحوصات طبية فيجد نفسه سليمًا تمامًا والتقارير التي معه تقول هذا». وهذا النوع - أعني سحر المرض - أصيبت به أم المؤمنين عائشة ﵂ فعنها أنها أعتقت جارية لها عن دبر منها؛ أي تكون حرة بعد موت سيدتها، ثم إن عائشة ﵂ مرضت بعد ذلك ما شاء الله، فدخل عليها سندي - نسبة إلىٰ السند - فقال: إنك مطبوبة - مسحورة -، فقالت: مَن طبني؟ فقال: امرأة من صفتها كذا وكذا، وقال: في حجرها صبي قد بال، فقالت عائشة: ادعوا لي فلانة، لجارية لها تخدمها، فوجدوها في بيت جيران لها في حجرها صبي قد بال، فقالت: حتىٰ أغسل بول هذا الصبي فغسلته، ثم جاءت، فقالت لها عائشة: أسحرتيني؟ فقالت: نعم، فقالت: لِمَ؟ قالت: أحببت العتق» [رواه مالك في الموطأ].

سحر التهيّج

وهذا السحر من أفحش ما يكون إذ يجمع بين السحر وطلب الفاحشة، حيث يسعىٰ الساحر إلىٰ تهييج قلب طرف ذكرًا كان أو أنثىٰ لمجامعة الطرف الآخر، يذكر ابن قيم الجوزية في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» في الباب الثامن والعشرين «فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام علىٰ لذة الوصال الحرام» قصة لهذا النوع من السحر، فقال: «توفي شاب - كان صالحًا بارًّا بأبيه - وسبب وفاته أن امرأة أحبته فأرسلت إليه تشكو حبه وتسأله الزيارة وكان لها زوج، فألحت عليه، فأفشىٰ ذلك إلىٰ صديق له، فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك، فأمسك، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبىٰ، فلما يئست منه ذهبت إلىٰ امرأة كانت تعمل السحر فوعدتها العطاء الجزيل في تهيجه، فعملت لها في ذلك، فبينما هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه واختلط - فسد عقله - فقام مُسرعًا فصلىٰ واستعاذ والأمر يشتدُّ، فقال: يا أبت أدركني بقيد، فقال: يا بني ما قصتك؟ فحدثه بالقصة، فقام وقيده وأدخله بيتًا، فجعل

يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره». ا.هـ بتصرف يسير.

السحر

كشفت دراسة حديثة صدرت عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في القاهرة أن ٥٥ في المائة من النساء المترددات علىٰ الدجالين متعلمات، مقابل ٢٤ في المائة ممن يجدن القراءة والكتابة، والنسبة الباقية من الأميات.

وقد كشفت الدراسة والتي قام بها الباحثان «نجيب إسكندر ورشدي منصور» أن العرب ينفقون ما لا يقل عن عشرة مليارات دولار (٦٠ مليار جنيه) علىٰ أعمال السحر فقط ويشارك فيها الفقراء والأثرياء ورجال الأعمال، وأشارت الدراسات إلىٰ أن الأمر لم يعد مقصورًا فقط علىٰ البسطاء والجهلاء وفقًا لما ورد بموقع «الباب الأخضر».

وتشير الدراسة أيضًا إلىٰ أن هناك دجالاً لكل ألف مواطن عربي خاصة أن هناك عشرات الآلاف من الدجالين والمشعوذين يروجون لقدرتهم علىٰ علاج الأمراض وتحضير الأرواح، كما حددت الدراسة أعداد الدجالين علىٰ مستوىٰ العالم العربي من المحيط إلىٰ الخليج بالتحديد نصف مليون دجال ومشعوذ، وأشارت الدراسة إلىٰ أن الناس لا يلجئون للخرافة والشعوذة إلا حينما يصابون وتضيق في وجوههم أبواب الأمل ويفقدون الثقة في الحاضر والماضي، ويحاولون البحث في آفاق المستقبل بطرق خفية وغيبية.

وفي المغرب والتي تعد مع سلطنة عمان معقلاً للمشعوذين والدجالين، هناك ما يقرب من عشرين ألف قارئة كف وفنجان، وفي الكويت أظهرت دراسة اجتماعية أن نسبة ١٥٪ من فتيات المرحلة الجامعية يؤمن بالأبراج ويحرصن علىٰ متابعتها سواء عبر المجلات أو القنوات الفضائية والإذاعات أو

الإنترنت.

أما علىٰ المستوىٰ المصري فقد أشارت الدراسة أن المصريين يؤمنون بـ٢٧٤ خرافة تجلب السعادة، وتزيد الرزق، وتمنع عنهم مكائد الشيطان من الإنس والجن ومتوارثة منذ آلاف السنين، وأن ٦٠٪ من النساء العقيمات يترددن علىٰ الدجالين والمشعوذين، وأن ٩٣٪ من نساء الريف يؤمن بالمشاهرة، و٦٢٪ من الفتيات يؤمن بعدم التحديق في المرآة ليلاً، و٥٠٪ لازلن يؤمن في صحة فرضية معتقد قرص ركبة العروسة ليلة دخلتها، ليلحقن بها لعالم الزوجية، وأن ٩٠٪ من المصريين يؤمنون فيما يسمىٰ بالربط الجنسي، و٨٠٪ يرتدون الأحجبة أسفل ملابسهم ويضعونها تحت الوسادات.

رجل من أهل الجنة

كان الأنصار هم سكان المدينة، ولكن عندما جاء إليهم المهاجرون بادلوهم الحب فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وكيف لا يعيش الأنصار بهذه المشاعر، وهم يعلمون بفضل صفاء النفوس.

«يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة»، وإذا بالرجل ذاته.

الحديث: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين، مسند أحمد (٣/ ١٦٦)، وأخرجه أيضًا عبدالرزاق في مصنفه: كتاب الجامع، باب الرخص والشدائد، حديث (٢٠٥٥٩)، قال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي البزار، إلا أن سياق الحديث لابن لهيعة (٨/ ٧٩)، وصحح إسناده الضياء في المختارة (٧/ ١٨٧)، وابن كثير في التفسير (٤/ ٣٣٨) سورة الحشر الآية (٩).

من سلم قلبه للمؤمنين، طاب حديثه والحديث معه، وأنس به الجليس، تحبه النفوس، وتشتاق إليه الأرواح والقلوب، طيّب المعشر، لينٌ متواضع، برٌّ رحيم، عطوف كريم، إن تحدث لم يؤذ، وإن نزل بقوم نزل السرور بساحتهم، وإن ارتحل ارتحل من غير أذىً أو أذية، كالنحلة تلقُط خيرًا وتلقي شهدًا.

كيف لا يحظىٰ بهذه المنزلة، ويفوز بتلك البشارة، كيف لا ينعم في الأولىٰ بالراحة والسرور، وفي الأخرىٰ بالجنة والخلود مع المقربين الشهود، والنداء الرباني لم يزل يتردد في كل حين: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

أخرج ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب، صدوق اللسان»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد».

كم من مريض قلب، يتقطع حسرة وألمًا، لأن زيدًا ربح في تجارته، وعمرًا نجح في دراسته، وآخر بورك له في زواجه!

كم من الناس يعيش همًّا وغمًّا وعناءً وحُرقة، يتقلب علىٰ فراشه والغيظ يعتصره يأكل معه الحسد ويشرب، وينام معه الكره والبغض ويستيقظ، لأن فقيرًا اغتنىٰ، ومريضًا شفي، أو عقيمًا رزق.

التعامل مع الأطفال

أوضحت دراسة حديثة أجرتها جامعة «كوينزلاند للتكنولوجيا» في أستراليا بأن احتضان الطفل عند البكاء يساعد علىٰ نموه عصبيًّا وعاطفيًّا، مشيرة إلىٰ أن الأطفال في هذا العمر يحتاجون إلىٰ التجاوب الكبير من آبائهم وأمهاتهم عند البكاء، وذلك نظرًا إلىٰ أهمية ذلك علىٰ نموهم.

جاء ذلك علىٰ لسان «كارين ثورب» الباحثة بالجامعة، والتي أوضحت أن

الكثير من الآباء لا يعرفون كيف يهدئون أطفالهم الرضع عند البكاء في الأسابيع الأولىٰ من ولادتهم، وقد يكون المغص سببًا لبكاء الأطفال، ولكنه لا يستمر إلىٰ ما بعد ١٢ أسبوعًا من عمر المولود، بحسب ما ورد بموقع «السبيل».

ويبكي الطفل لأنه وسيلة التعبير الوحيدة عن مشاعره فهو لا يتكلم لإبداء ما يريده، فيبكي إما لأنه جوعان يطلب طعامه من الرضاعة، أو أنه يحتاج إلىٰ من يكون بجواره حيث يشعر أنه وحيد، أو لأنه مبتل يريد أن يغير حفاضته ويشعر بالنظافة مثل الكبير، أو لأنه يعاني من مغص.

وتأتي الدراسات العديدة لتؤكد أنه يجب علىٰ الآباء والأمهات ألا يستهينوا أبدًا ببكاء الطفل، مشيرة إلىٰ أن الأطفال الرضع الذين يبكون باستمرار دون مبرر، أكثر عُرضة للإصابة بمشكلات ذهنية وسلوكية في سنوات الطفولة اللاحقة.

التشدد في الدين

يُرْوىٰ في ذلك مِن أخْبَار الصالحين بَعض مَا يُستَنْكَر، ففي خَبَر امْرأة عَابِدَة زاهِدَة، أطالَتِ السَّهَر، فقال لها زَوجُها: ألا تَنَامِين؟ فقالت: كيف يَنَام مَن عَلِم أنَّ حَبِيبَه لا يَنَام؟

وفي خَبَر آخر تُحدِّث به ابنة أحد الصَّالِحين، قالت: كنت أقول لأبي: يا أبتاه ألا تَنام؟ فيَقُول: يا بُنَيَّة كيف يَنَام مَن يَخَاف البَيَات. ونحو ذلك.

وهذا لا شكَّ أنه خِلاف السُّنَّة، فقد كان مِن هَدِيه ﷺ أنّه يَنام ويَقوم، ويأكل الطَّيِّبَات، ويتزوّج النِّسَاء.

جَاء ثَلاثة رَهْط إلىٰ بُيُوت أزْوَاج النبي ﷺ يَسْألُون عَن عِبَادَة النبي ﷺ، فلمَّا أُخْبِرُوا كأنّهم تَقَالُّوهَا، فقالوا: وأين نَحْن مِن النبي ﷺ قد غَفَر الله لَه مَا تَقَدَّم مِن ذَنْبِه ومَا تَأخَّر؟ قال أحَدُهم: أمَّا أنَا فإني أُصَلِّي الليل أبَدًا، وقال آخَر:

أنَا أصُوم الدَّهْر ولا أُفطِر، وقال آخَر: أنَا أعْتَزِل النِّسَاء فلا أتزَوَّج أبْدًا. فجاء رسول الله ﷺ فَقَال: «أنتم الذين قُلْتُم كَذا وكَذا؟ أمَا والله إني لأخْشَاكُم لله وأتْقَاكُم لَه، لَكِنِّي أصُوم وأُفْطِر، وأُصَلِّي وأرْقُد، وأتَزَوَّج النِّسَاء؛ فَمَن رَغِب عن سُنَّتِي فَلَيْس مِنِّي» رواه البخاري ومسلم. وفي رواية لِمُسْلِم: وقَال بَعْضُهم: لا آكُل اللَّحْم.

ولَمَّا دخل النبي ﷺ علىٰ عائشة وعِنْدَها امْرَأة. فَقَال: «مَن هَذه؟» قالت: فُلانة - تَذْكُرُ مِن صَلاتِها - قَال: «مَه! عَليكم بِمَا تُطِيقُون، فو الله لا يَمَلُّ الله حتىٰ تَمَلُّوا» [رواه البخاري ومسلم].

وفي رواية لمُسْلِم: قالت عائشة: فَقُلْتُ: هذه الْحَولاءُ بنتُ تُويت، وزَعَمُوا أنَّها لا تَنامُ الليل. فقال رسول الله ﷺ: لا تَنامُ الليل! خُذُوا مِن العَمَل مَا تُطِيقُون، فوالِله لا يَسْأمُ الُله حَتىٰ تَسْأمُوا».

ودَخَل النبي ﷺ الْمَسْجِد، فإذا حَبْلٌ مَمْدُود بَيْن السَّارِيَتين، فقال: «مَا هَذا الْحَبْل؟» قَالوا: هَذا حَبْل لِزَيْنَب، فإذا فَتَرتْ تَعلَّقَتْ بِه. فقال النبي ﷺ: «لا. حُلُّوه. لِيُصَلِّ أحَدُكم نَشَاطَه، فإذا فَتَرَ فَلْيَقْعُد» [رواه البخاري ومسلم].

قال بعضُ الحكماء: إنَّ لِهَذه القُلُوب تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ الوَحْشِ؛ فَتَألَّفُوهَا بالاقْتِصَادِ في التَّعْلِيم، والتَّوسُّطِ في التَّقْدِيم، لِتَحْسُنَ طَاعتُها، ويَدُوم نَشَاطُها.

وكان ابن عباس يَقُول لأصْحَابه إذا دَامُوا في الدَّرْس: أَحْمِضُوا؛ أي: مِيلُوا إلىٰ الفَاكِهَة وهَاتُوا مِن أشْعَارِكم، فإنَّ النَّفْس تَمَلّ.

فما يُذْكَر مِن أخْبَار الصَّالِحين - إنْ صَحَّتْ - في هذا الباب فهو خِلاف السُّنَّة، وخِلاف هَدْي النبي ﷺ، ثمّ هو خِلاف الطَّبِيعَة البشرية؛ فإنَّ مِن كَمَال الإنسان أن يَنَام، ثم إن في النَّوْم قُوّة علىٰ الطاعة والعِبادة شأن النَّفْس كشأن أجاوِيد الْخَيْل، إن أُنْهِكَتْ هَلَكَتْ، وإنْ أُجِمَّتْ جَرَتْ.

وأعْرَف الْخَلْق بالله وبِما خُلِقوا له هم الأنْبِيَاء عليهم الصلاة والسلام،

فالأنبياء والرُّسُل أعْرَف الْخَلْق بالله، وهُم أنْذَرُوا وبشَّروا، وخوّفُوا وحذَّرُوا، عَلِمُوا ما يَجِب لله وما يَكُون بعْد الْمَوْت، وهُم مع ذلك يَنامُون ويأكُلون ويشْرَبُون وقد عَاب.

الأيتام واللقطاء

كما ورد من مآثر صلاح الدين الأيوبي ﷺ أنه أمر بعمارة كتاتيب ووضع فيها معلمين لكتاب الله ﷻ يعلمون فيها الأيتام، ويجرىٰ عليهم الجراية الكافية لهم.

كما ورد ذكر الرحالة ابن جبير في رحلته إلىٰ دمشق، أنه شاهد محضرة كبيرة للأيتام لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه علىٰ الأيتام لكسوتهم وما يحتاجون إليه، كما أن الظاهر بيبرس أنشأ مكتبًا للسبيل بجوار مدرسته، وقرر لمن فيها من الأيتام خاصة الخبز في كل يوم، والكسوة في فصلي الشتاء والصيف، إضافة إلىٰ توفير أدوات التعليم لهم من أقلام ومداد وألواح.

قضايا الأطفال من أكثر القضايا اهتمامًا علىٰ مستوىٰ العالم، ولما للطفل من أهمية كنواة لأي مجتمع، فقد حشدت الجهود الكبيرة لإتاحة الفرصة له؛ لينال حقوقه الأساسية، وينشأ النشأة السليمة اللائقة في محيط أسري ومجتمعي متكامل، وتتباين المجتمعات في تقديم هذه الجهود بحسب اختلاف المنطلقات العقدية والفكرية التي يقوم عليها المجتمع.

ولئن كانت النظرية الاقتصادية البحتة تسيطر علىٰ بعض المجتمعات خلال تعاملها مع مثل هذه القضايا الإنسانية، فإن الإسلام لا يقر هذه الأسس؛ لأنه ينظر إلىٰ الإنسان نظرة تكريم خصه الله بها بما نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، قال تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠] وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ

سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص:٧١-٧٣] وهو سجود إكرام وإعظام واحترام كما ذكر المفسرون.

من المعروف أن اليتيم هو طفل اليوم، وهو رجل الغد، وستكون سلوكياته المستقبلية أسيرة التربية التي تلقاها في صغره، فإذا أخذ اليتيم حظه من التربية السليمة في صغره أينعت ثمارها وارفة في غده علىٰ مجتمعه، لذلك لا عجب أن نجد ذلك الاهتمام المبكر برعاية الأيتام في الإسلام، فمن اليتيم وما حقوقه؟ وما فضل رعايته؟ وما الأسس التي تقوم عليها رعايته في الإسلام؟ كل ذلك سنتعرفه من خلال هذا المقال.

* فضل رعاية اليتيم:

لقد اهتم الإسلام بشأن اليتيم اهتمامًا بالغًا من حيث تربيته ورعايته ومعاملته وضمان سبل العيش الكريمة له، حتىٰ ينشأ عضوًا نافعًا في المجتمع المسلم، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾[الماعون:٢ ، ١]، وهاتان الآيتان تؤكدان علىٰ العناية باليتيم والشفقة عليه؛ كي لا يشعر بالنقص عن غيره من أفراد المجتمع، فيتحطم ويصبح عضوًا هادمًا في المجتمع المسلم.

ومما يؤكد علىٰ عناية الإسلام باليتيم والتأكيد المستمر علىٰ الحرص عليه وحفظه، هو ورود كلمة اليتيم ومشتقاتها في ثلاث وعشرين آية من آيات القرآن العظيم، وبالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، فإنه يمكن تصنيفها إلىٰ خمسة أقسام رئيسية كلها تدور حول: دفع المضار عنه، وجلب المصالح له في ماله، وفي نفسه، وفي الحالة الزواجية، والحث علىٰ الإحسان إليه، ومراعاة الجانب النفسي لديه.

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣]،

فالإحسان إلىٰ اليتيم متعين كما هو للوالدين ولذي القربىٰ، قال ابن كثير عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضُّحى:٩]: «فلا تقهر اليتيم: أي: لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وكن لليتيم كالأب الرحيم».

لقد كان أرحم الناس باليتيم وأشفقهم عليه النبي ﷺ حتىٰ قال حاثًا علىٰ ذلك: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطىٰ وفرج بينهما شيئًا»، كما أمر ﷺ بحفظ أموال الأيتام، وعدم التعرض لها بسوء، وعد ذلك من كبائر الذنوب وعظائم الأمور، ورتب عليه أشد العقاب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، وعدّ الرسول آكل مال اليتيم من السبع الموبقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟، قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

واستمرارًا لحرص الإسلام علىٰ أموال اليتامىٰ، أمر باستثمارها وتنميتها حتىٰ لا تستنفذها النفقة عليهم، فلقد ورد عن النبي أنه قال: «ألا من ربىٰ يتيمًا له مال فليتجر به، ولا يتركه حتىٰ تأكله الصدقة». كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «اتجروا في مال اليتامىٰ حتىٰ لا تأكلها الزكاة»، ومن هنا يلزم الولي علىٰ مال اليتيم استثمارها لمصلحة اليتيم علىٰ رأي كثير من أهل العلم بشرط عدم تعريضها للأخطار.

وجماعًا لكل ما سبق: أمر الرسول بكفالة اليتيم، وضمه إلىٰ بيوت المسلمين، وعدم تركه هملاً بلا راعٍ في المجتمع المسلم، فلقد أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطىٰ وفرج بينهما شيئًا، كما عدَّ رسول خير بيت من المسلمين

بيتًا فيه يتيم يُحسن إليه، فلقد ورد أن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه».

كما جعل الإحسان إلىٰ الأيتام علاجًا لقسوة القلب، فعن أبي هريرة ﵁ أن رجلاً شكا إلىٰ رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»، ورتب علىٰ ذلك الأجر العظيم؛ حيث يكسب المرء الحسنات العظام بكل شعرة علىٰ رأس ذلك اليتيم، فعن أبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مَرَّت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلىٰ يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين» وفرق بين إصبعيه السبابة والوسطىٰ.

ولقد تمثل المجتمع المسلم تلك التوجيهات عمليًّا بدءًا من عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - حتىٰ يومنا الحاضر، فلقد ثبت في كتب الأحاديث والسير أن هناك العديد من الصحابة والصحابيات كفلوا أيتامًا ويتيمات وضموهم إلىٰ بيوتهم، ومنهم علىٰ سبيل المثال لا الحصر: أبو بكر الصديق، ورافع بن خديج، ونعيم بن هزال، وقدامة بن مظعون، وأبو سعيد الخدري، وأبو محذورة، وأبو طلحة، وعروة بن الزبير، وسعد بن مالك الأنصاري، وأسعد بن زرارة، وعائشة بنت الصديق، وأم سليم، وزينب بنت معاوية ﭫ، وغيرهم كثير من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم.

كما عني المسلمون قديمًا وحديثًا برعاية الأيتام فرادىٰ وجماعات، كما قامت الدول الإسلامية المتعاقبة، أمراؤها وأغنياؤها وأفرادها بوقف الأوقاف الكثيرة عليهم، ومن ذلك ما ورد في إحدىٰ وثائق الأوقاف التي ترجع إلىٰ عصر سلاطين المماليك وفيها: «أن يُكسىٰ كل من الأيتام المذكورين في فصل الصيف قميصًا ولباسًا وقبعًا ونعلاً في رجليه، وفي الشتاء مثل ذلك، ويزاد عليه جبة محشوة بالقطن».

التبسم

أعرفه منذ سنين، فهو أحد زملائي في عملي علىٰ كل حال، لكن هل تصدق أنني إلىٰ الآن لا أدري هل نبتت له أسنان أم لا؟! دائم التجهم والعبوس وكأنه إذا ابتسم نقص عمره أو قلّ ماله!!

قال جرير بن عبد الله البجلي: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي.

* الابتسامة أنواع ومراتب:

فمنها البشاشة الدائمة، أن يكون وجهك صبوحًا مبتهجًا دائمًا، فلو كنت مدرسًا ودخلت الفصل علىٰ طلابك فالقهم بوجه بشوش، ركبت طائرة ومشيت في الممر والناس ينظرون إليك كن بشوشًا، دخلت بقالة أو محطة وقود، مددت له الحساب، ابتسم.

في المجلس ودخل شخص وسلم بصوت عالٍ، ومر بنظره علىٰ الجالسين؛ ابتسم، دخلت علىٰ مجموعة وصافحتهم؛ ابتسم.

وعمومًا: الابتسامة لها من التأثير الكبير في امتصاص الغضب والشك والتردد ما لا يشاركها غيرها، فالبطل هو الذي يستطيع التغلب علىٰ عواطفه والتبسم.

كان أنس بن مالك ﷺ يمشي مع النبي ﷺ يومًا.. والنبي ﷺ عليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فلحقهما أعرابي، أقبل هذا الأعرابي يجري وراء النبي ﷺ يريد أن يلحق به، حتىٰ إذا اقترب منه جبذه بردائه جبذة شديدة، فتحرك الرداء بعنف علىٰ رقبة النبي ﷺ، قال أنس: حتىٰ نظرت إلىٰ صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته.

فماذا يريد هذا الرجل؟! لعل بيته يحترق وأقبل يريد معونة، أو أحاطت بهم غارة من المشركين... اسمع ماذا يريد، قال: يا محمد.. (لاحظ لم يقل: يا رسول الله).

قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

نعم، كان ﷺ بطلاً لا تستفزه مثل هذه التصرفات، ولا يعاقب أو تثور أعصابه على التفاهات، كان واسع البطان، قويًا يضبط أعصابه، دائم الابتسامة حتى في أحلك الظروف، يفكر في عواقب الأمور قبل أن يفعلها.

وماذا يفيد لو أنه صرخ بالرجل أو طرده! هل سيشفى جرح عنقه! أو يصلح أدب الرجل! كلا. إذن ليس مثل الصبر والتحمل.

نعم بعض الأمور نثور لها ونغضب، وعلاجها شيء آخر تمامًا، وصدق ﷺ لما قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

كان النبي الكريم ﷺ يجذب الناس بالتبسم والبشاشة، فلقد خرج المسلمون إلى غزوة خيبر، وفي أثناء القتال وقع من حصن اليهود جراب فيه شحم - قربة كاملة مملوءة سمنًا - حمله عبد الله بن مغفل ﷺ على عاتقه فرحًا ومضى به إلى رحله وأصحابه، فلقيه الرجل المسئول عن جمع الغنائم وترتيبها، فجذب الجراب إليه وقال: هاتِ هذا نقسمه بين المسلمين، فتعلق به عبد الله: لا والله، لا أعطيكه، أنا أصبته، قال: بلى، وجعلا يتجاذبا الجراب، فمر بهما رسول الله ﷺ.. فرآهما وهما يتجاذبان الجراب، فتبسم ﷺ ضاحكًا، ثم قال لصاحب المغانم: «لا أبا لك، خل بينه وبينه» فتركه فانطلق به عبد الله إلى رحله وأصحابه فأكلوه.

أخبار العشاق

ونحن في زمن كثرت فيه المغريات، وتنوعت الشهوات، وترك المفسدون في قنواتهم ومجلاتهم مخاطبةَ العقول والأفهام، ولجئوا إلى مخاطبة الغرائز وإثارة الحرام، فأصبح الرجال والنساء حيارى بين مجلات تغري وشهوات تسري، وقنوات تُعرّي وأفلام تزين وتجرّي، وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى

والبلية العظمىٰ التي استعبدت النفوس لغير خلاقها، وملَّكتِ القلوبَ لعُشّاقها، فأحاطت القلوب بمحنة وملأتها فتنة، فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل، إن دعاه لباه، وإن قيل له: ما تتمنىٰ؟ فهو غاية ما يتمناه.

وإن التساهل بإطلاق البصر والتمادي فيه يجر إلىٰ الفواحش والآثام، ومواقعة الحرام، ويشغل القلوب عن علام الغيوب، وكم أكبت فتنة النظر رءوسًا في الجحيم، وأذاقتهم العذاب الأليم، كم أزالت من نعمة، وأحلت من نقمة، فلو سألت النعمَ، ما الذي أزالك؟ والهمومَ والأحزان، ما الذي جلبك؟ والعافيةَ، ما الذي أبعدك؟ والسترَ، ما الذي كشفك؟ والوجهَ، ما الذي أذهب نورك وكسفك؟

لأجابتك بلسان الحال: هذا بجناية العشق علىٰ أصحابه لو كانوا يعقلون.

نعم، أتحدث عن إطلاق البصر؛ لأن انتشار العلاقات المحرمة لا يضر الفاعلين فقط، فقد جرت سنة الله أنه عند ظهور الزنا يشتد غضب الجبار، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها».

وفي الحديث الحسن الذي عند ابن ماجه وغيره، قال ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتىٰ يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا».

وتأمل في حال يوسف ﷺ، الذي أوتي من البهاء والحسن والجمال ما يفوق الخيال، تراوده الملكة، وهو عبد مملوك اشتراه زوجها بثمن بخس ليخدمها، وهو إلىٰ ذلك غريب لا يخشىٰ فضيحة، شاب أعزب تشتاق نفسه إلىٰ مثلها، وهي ذات منصب وجمال، وهي تتوعده بالسجن والصغار، وتراوده، وتبذل كلَّ ما عندها لإغرائه، أسرعت إلىٰ أبوابها فغلقتها، وإلىٰ ثيابها فجملتها، وإلىٰ فرشها فزينتها، ثم قالت في تغنج ودلال: هيت لك، فيصرخ بها العفيف ﷺ: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف:٢٣].

بل تأمل في حاله ﷺ لما جمعت امرأة العزيز زوجات الكبراء وحليلات الأمراء، ووضعت لهن أطايب الفاكهة، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، ثم جعلت يوسف يمرّ أمامهن، فلما رأينه ما تحملن النظر إليه، وغابت عقولهن من حسنه وبهائه، فقطعن أيديهن بالسكاكين، وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

فهل التفت يوسف إليهن؟ أو اغترّ بشبابه وجماله؟

كلا، بل صاح بأعلىٰ صوته وقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، قال الله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤].

نعم السجن خير له من الفاحشة.

قارن ذلك بما ذُكِر: عن شاعر الغزل عُمرَ بنِ ربيعة، أنه مرَّ بامرأة في الطريق فحكت عينها بيدها، فظن أنها تغازله، فوقع في حبها، ومن أكبر ما يهيج النفس للنظر أو الوقوع في الفاحشة - والعياذ بالله - النظر إلى الأفلام الهابطة، التي يختلط فيها الرجال بالنساء، حتى يقع في قلب الناظر إليها أن الاختلاط أمر عادي، وأعظم من ذلك إذا كانت هذه الأفلام يقع فيها الحب والغرام، واللمسات والقبلات، فإذا رآها الرجال، بل والنساء حركت فيهم الساكن، وأظهرت الباطن، ونزعت الحياء، وقرّبت البلاء.

فمن رأىٰ صور الفسق والفجور، ومشاهد العهر والمجون، اندفعت نفسه إلىٰ تقليدها في كل حين في السوق، وعلىٰ فراشه وفي مكتبه، ولا يزال الشيطان يدعوه إليها ويحثه عليها؛ لذلك لما أمر الله تعالىٰ بحفظ الفروج عن الزنا أمر قبل ذلك بغض البصر فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠].

وفي الصحيحين قال ﷺ: «العين تزني وزناها النظر». فجعل النظر إلىٰ الحرام نوعًا من الزنا يأثم عليه صاحبه، فإن مجرد الخلوة بينهما محرّمة، قال ﷺ: «وما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما».

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء»، يعني الخلوة بهن، بل أمر الله المرأة بالتستر حتى لا يراها الرجال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]، بل قد نهى الله الصحابة جميعًا عن الاختلاط بالنساء، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ يعني: إذا سألتم أزواج النبي وهن أطهر النساء ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ لماذا؟ ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، وحسبك بالصحابة طاعة وخوفا وتعبدا.

فكيف الحال اليوم مع شبابنا وفتياتنا وقد فسد الزمان؟

عجبًا..

قال سفيان الثوري لرجل صالح من أصحابه: «لا تخلون بامرأة ولو لتعلمها القرآن».

نعم، أيها الإخوة والأخوات، هذا ديننا ليس فيه تساهل مع الأعراض، قال ابن القيم رحمه الله: «إن الله تعالى لما أمر بغض البصر أعقب ذلك بالأمر بحفظ الفرج؛ ليدلّ بذلك على أن من أطلق بصره أداه ذلك إلى إطلاق فرجه».

نعم، أيها الإخوة الكرام..

وفي الحديث الذي أخرجه الحاكم وصححه: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعزَّ إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»، وفي الصحيحين: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

فتأمل كيف بدأ بالعين وختم بالفرج؛ ليدل أن إطلاق البصر هو طريق الزنا، لكنه لو تعوذ بالله من أول نظرة وصاح بها كما صاح يوسف ويقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

نعم، هذا حال الأبرار المتقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١، ٢٠٢].

كان للسلف في الحرص على غض البصر شأن عجيب، فهذا محمد بن واسع يأتي إلى صديق له فإذا طرق الباب قال: صاحبك الأعمى..

نعم، هؤلاء كان لهم أبصار، وعندهم غرائز، ونفوسهم تشتهي الملذات، لكنهم يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

ومن تساهل بالنظرة الأولى ولم يسارع إلى علاج نفسه، فلا يزال الشيطان به حتى يقع في الفاحشة عياذًا بالله.

وقد عظَّم الله هذه الفاحشة وقرنها بالشرك والقتل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]، ثم ذكر الله تعالى عذاب من فعل ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨، ٦٩]، ثم دعاهم الكريم الرحيم إلى رحمته فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:٧٠، ٧١].

ونفى النبي ﷺ الإيمان عن الزاني فقال كما في الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، وسبيل الزنا هو شر السبل، لذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وروى البخاري أن النبي ﷺ أتاه في المنام آتيان فابتعثاه معهما، فاطلع على أنواع من عذاب العصاة، قال ﷺ: «فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات، فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب، ضوضوا - أي صاحوا - فلما رآهم النبي ﷺ فزع من حالهم وسأل جبريل عنهم، فقال جبريل: هؤلاء هم الزناة

والزواني».

وفي رواية ابن خزيمة بإسناد صحيح قال ﷺ: «ثم انطلق بي فإذا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وأنتنُه ريحًا، كأن ريحهم المراحيض، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني».

وذكر الهيتمي أنه مكتوب في الزبور: إن الزناة يعلقون بفروجهم في النار، ويُضربون عليها بسياط من حديد، فإذا استغاث أحدهم من الضرب، نادته الملائكة: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتفرح وتمرح، ولا تراقب الله ولا تستحي منه!!».

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: «يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزنىٰ عبده أو تزني أمته... يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا».

نعم، كم من لذة ساعة أورثت حزنًا عظيمًا وعذابًا أليمًا، وليس ربهم والله بغافل عنهم: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٠]، فليس بعد مفسدة الشرك والقتل أعظم من مفسدة الزنا، ولو بلغ الرجلَ أن ابنته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت، فأُفٍّ للزنا، ما أقبح أثرَه وأسوء خبرَه!

وكم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت حسرتها، وأول من يشهد علىٰ الزناة والزواني أعضاؤهم التي متعوها بهذا الزنا؛ رجله التي مشىٰ بها، ويده التي لمس بها، ولسانه الذي تكلم به، بل تشهد عليه كل ذرة من ذراته، وكل شعرة من شعراته، قال الله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فُصِّلَت:١٩-٢٤]. نعوذ بالله من هذا الحال.

وفي الدنيا أمر الله بتغليظ العقوبة علىٰ الزاني والزانية وإن كانا شابين عزبين، ونهىٰ عباده أن تأخذهم بالزُّناة رأفة، وأمر أن يكون الحد بمشهد من الناس، قال ﷻ: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢].

هذا غير عقوبات الدنيا التي تتتابع علىٰ الزاني؛ كالفقر الذي ينزله الله به ولو بعد حين؛ والبلاء والكرب المبين، وضيقُ الصدر وتعسّرُ الأمر.

هذا غير دعاء الصالحين عليه، فكم من يدٍ في ظلمة الليل بسطت تدعو عليه وعليها، وكم من جبهة بين يدي الله سجدت تستنزل العذاب عليه وعليها، وكم من عين دمعت ودعوة رُفعت تستعدي رب العالمين علىٰ المفسدين.

فكيف يتلذذ عاقل بمتعة هذه عاقبتها وشهوة هذه نهايتها؛ تلكم عاقبة الزنا في الدنيا.

وأول طريق الزنا خطوة ونظرة وضحكة وتبرج وسفور، وبعض الفتيات إذا مشت في السوق أو الشارع صارت كأنها بغي تدعو الناس إلىٰ فعل الفاحشة، وإلا فبماذا تفسرون تبرج بعض الفتيات في عباءتها، وإخراجها كفيها وقدميها، بل ووجهها أحيانًا، وقد تُخرِج غير ذلك؟!

وبماذا تفسرون وضعها للطيب، وهي تمشي بين الرجال فيشمون ريحها؟! وقد قال ﷺ فيما أخرجه أحمد والنسائي: «أيما امرأة استعطرت ثم مرت علىٰ قوم ليجدوا ريحها فهي زانية».

وبماذا تفسرون تبرجها في لباسها أو عباءتها، إضافة إلىٰ تكسرها في مشيتها، وجرأتها في مخاطبة الرجال، والله يقول: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى

﴿بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب:٣٢، ٣٣]؟!

وإنك لتعجب وتعجبين إذا علمت أن قوله تعالىٰ للمؤمنات: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، معناه: أن لا تضرب المرأة برجلها الأرض بقوة وهي لابسة خلاخل في قدميها، حتىٰ لا يسمع الرجال صوت الخلاخل فيفتنون.

عجبًا..

إذا كان هذا حرامًا، فما بالكِ بمن تحادث شابًّا الساعات الطوال في الهاتف، أو ترفع صوتها بالضحكات والهمسات، وتنظم القصائد الشعرية، وتكتب الرسائل العاطفية، ومثل ذلك بعض الشباب الذين لا همَّ لهم إلا التزين والتسكع في الأسواق، وهذا كله من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وقد توعد الله من فعل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩]، وهذا الوعيد في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة، فقط مجرد محبة، لهم عذاب أليم، فكيف بمن يعمل علىٰ إشاعتها؟!

العشيقة

الحديث عن الجنات مشوق للمؤمنين والمؤمنات ودافع إلىٰ الأعمال الصالحات.

الجنة تلك الأمنية الغالية التي يسعىٰ إليها الساعون ويتسابق إليها المؤمنون، الجنة شعلة تكوي قلوب العاشقين وتسهر ليل المتعبدين، استعذبوا من أجلها العذاب وتحملوا جليل المصاب.

الجنة دار المتقين والشهداء والصالحين، هي نور يتلألأ وريحانة تهتز وفاكهة وخضرة. فيها العباد المنعمون الذين يأكلون ولا يتغوطون ويشربون

ولا يبولون ويتطيبون ولا يمتخطون. يضحكون ولا يبكون ويقيمون ولا يرتحلون ويحيون ولا يموتون. فيها الوجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة. فيها الحور العين والجمال المبين فيها النعيم الدائم والعاشق الهائم

هي دار السلام سلمت من كل بلية وآفة. هي دار الخلد لا يموتون فيها ولا يشيخون، هي دار المقامة لا ينتقلون منها ولا يملون. وهي جنة المأوىٰ أوىٰ إليها المؤمنون بعد دار النكد والبلاء. وهي جنات عدن وهي دار الحيوان وهي الفردوس وهي جنات النعيم والمقام الأمين ومقعد صدق عند مليك مقتدر.

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجد خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي فقالت قد أفلح المؤمنون».

نعم جنة عالية يزينها الله لأحبابه ويقول: «يوشك عبادي الصالحون أن يدعوا عنهم التعب والنصب ويدخلوك. يتسابق إليها عشاقها وتنافس لخطبتها أحبابها، ولم يكونوا يكتفون بعمل واحد وإنما كانوا ينوعون القربات ويتسابقون إلىٰ الخيرات».

وانظر إلىٰ الصحابة الكرام لما اجتمعوا علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام فحدثهم عن الجنات ثم قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير». ثم قال: «وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة. ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد. ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان. ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة». عندها يقفز أبو بكر البطل علىٰ قدميه ويصيح بين يديه قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما علىٰ أحد من بأس إن دعي من تلك الأبواب كلها؟ همة عالية يريد أن يدخل من جميع تلك الأبواب وأن يسابق إلىٰ جميع تلك الطاعات فيقول عليه الصلاة والسلام: «نعم نعم وأرجو

أن تكون منهم». عندها يعمل لها أبو بكر جاهدا فيجمع ماله أربعين ألفا يفك به المؤمنين من العذاب فاشترىٰ بلالاً وأعتقه واشترىٰ عمارًا وأعتقه. نعم يعمل لها أبو بكر فيصدق بكل ما يحدث به النبي عليه الصلاة والسلام فيخبرهم ﷺ يومًا في مكة أنه في ليلة واحدة أسري به إلىٰ بيت المقدس وعرج به إلىٰ السماء عندها يكذب أكثر الناس ويصدق الصديق أبو بكر. نعم همة عالية وأمنية غالية، أبواب ثمانية واسعة باقية يريد أن يسابق إليها بين كل مصراعين من هذه الأبواب مسيرة أربعين سنة، وليزدحمن عليها المؤمنون ويلتقي عندها المحبون. فإن كانت نفسك تحركت شوقًا إلىٰ الجنات وتاقت إلىٰ أنهارها ومتعها.

الجنة دار الحبور والسرور ينسىٰ فيها المريض مرضه والمصاب مصابه والفقير فقره والمقهور قهره. ليس فيها هم مال يجمع، ولا منصب يرفع، ولا مرض يزول، ولا سجن يطول، ولا بيت يبنىٰ، ولا عدو يخشىٰ. نعم ليس فيها كربات بل فرحة ومسرات، وإذا سمعت خبر أدنىٰ أهل الجنة منزلاً علمت أن ما خفي عنا كان أعظم.

روىٰ مسلم أنه ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفقه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي أنجاني منك لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول: أي رب أدنني من هذه الشجرة فأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول له الله: يا ابن آدم فلعلي إذا أعطيتكها سألتني غيرها فيقول: لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرْها قال: وربه ﷻ يعذره لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولىٰ فيقول: أي رب هذه فلأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها فيقول: ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه ﷻ يعذره لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه

فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين فيقول: أي رب أدنني من هذه الشجرة فأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها قال: بلىٰ أي رب هذه لا أسألك غيرها فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها فيقول: يا ابن آدم ما يصريني منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها فيقول: أي رب أتستهزئ بي وأنت رب العالمين فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ فقال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ»، فقال: «ألا تسألوني مم أضحك؟». فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك ربي حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين فيقول: إني لا أستهزئ منك ولكني علىٰ ما أشاء قدير». حين قال العبد أتستهزئ بي وأنت رب العالمين فيقول رب العالمين: أترضىٰ أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيت، رب! فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله. ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت، رب!

وفي رواية غير الصحيح أن الله تعالىٰ يقول له بعد ذلك: يا عبدي اسأل اطلب. فيقول: يا ربي ألحقني بالناس. فيقول به الله تعالىٰ: الحق بالناس. فينطلق يرمل بالجنة - يعني يجري - حتىٰ إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة فيخر ساجدًا، فيقال له: ارفع رأسك ما لك؟ فيقول: رأيت ربي أو ترائىٰ لي ربي، فيقال له: ارفع رأسك إنما هو منزل من منازلك ثم يلقىٰ رجلاً فيتهيأ للسجود له، فيقال له: ما لك؟ فيقول: ارتأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول له: إنما أنا خازن من خزانك وعبد من عبيدك، فينطلق أمامه حتىٰ يفتح له القصر فإذا هو درة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاها ومفاتيحها منها. هذا أدنىٰ

أهل الجنة منزلة.

أما أعلاهم منزلة فهم الذي غرس الله كرامتهم بيده وختم عليها فلم تر عين ولم سمع أذن ولم يخطر علىٰ قلب بشر هذا.

روىٰ الترمذي والطبراني أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه وسرره ألف سنة يرىٰ أقصاه كما يرىٰ أدناه، وأرفعهم ينظر إلىٰ ربه بالغداة والعشي».

وكلما كان العمل أكثر كان الوجه أنضر والجزاء أكبر.

وأول البشر دخولاً إلىٰ الجنة علىٰ الإطلاق محمد ﷺ، ولماذا لا يكون أول الناس دخولاً وهو الذي علق قلبه بالسماء فإذا سمعهم يرددون يا ساحر يا كاهن يا كذاب هان عليه ذلك. نعم، هان عليه ما دام أن الذي في السماء راض فما عليه ما فاته من الدنيا. فلما أرضىٰ ربه بالصبر علىٰ البلاء وأرضاه بالدعوة والإباء، وأرضاه بالجهاد والفداء قال له الله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى:٥]. يسجد ﷺ عند الكعبة فيمضي شقي من أشقياء قريش ثم يأتي بسلا جزور، أتدري ما سلا الجزور؟ إذا ولدت الناقة وليدها وخرج معه ما يخر من دماء وفرث أخذه ذلك الرجل الشقي. أخذ بين يديه هذا الدم والفرث وما فيه من أذىٰ يتقاطر من بين يديه ثم أقبل به علىٰ رسول الله ﷺ وهو ساجد ثم جعله بين كتفيه حتىٰ سالت الدماء والفرث والأذىٰ علىٰ وجهه ورقبته ولحيته عليه الصلاة والسلام. يستحق أن يكون أول أهل الجنة دخولاً.

ثم أول الأمم دخولاً إلىٰ الجنة هم أمته عليه الصلاة والسلام، وأول من يدخل من هذه الأمة أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه ثم يدخل المؤمنون إلىٰ الجنة بعد ذلك علىٰ أكمل صورة وأجملها علىٰ صورة أبيهم آدم عليه السلام الذي خلقه الله بيده فأتم خلقه وأحسن تصويره طوله ستون ذراعًا في السماء يدخلون نفوسهم صافية رضية وأرواحهم طاهرة زكية لا اختلاف بينهم ولا تطابق، فلله ما أبهىٰ تلك الصور. ينسىٰ الدميم دمامته والمعوق إعاقته والمشوه قباحته بل يحتقر

الجميل سابق ملاحته والوسيم سابق وسامته وقد صارت وجوههم أنوارًا وأبدانهم أطهارًا. وأول زمرة يدخلون الجنة علىٰ صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم علىٰ أشد كوكب دري في السماء إضاءة. لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون ولا ينامون. أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك وأزواجهم الحور العين. أخلاقهم علىٰ خلق رجل واحد يدخلونها جردًا مردًا بيضًا جعدًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين ويعطىٰ الواحد منهم قوة مائة في الفراش.

فإذا دخلوها فإذا الأشجار تفوح بالأطياب والملائكة ترحب عند الأبواب وقد رضي عنهم الملك الوهاب. رقت منهم القلوب ورضي علام الغيوب ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر:٧٣-٧٥].

فإذا دخلوها ترتعوا في أرجائها فوجدوا السرر المرفوعة المجهزة للأحباب والأكواب الموضوعة المهيئة للشراب والوسائد المصفوفة تأخذ بالألباب. رأوا الوجه الناعم والظل الدائم. الروائح الزكية والقصور العلية والثياب الندية.

فينزلون في الجنة حيث شاءوا. إن شاءوا علىٰ أنهارها وإن شاءوا في ظلالها وإن شاءوا علىٰ أرائكها. أما إن نزلوا في خيامها فهي عجب قال عليه الصلاة والسلام: «إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرىٰ بعضهم بعضًا». وأما قصورها فهي أعجب أرأيت قصرًا يبني بالذهب والفضة والياقوت والمرجان والجوهر والزمرد. في المسند قال عليه الصلاة والسلام: «إن في

الجنة غرفًا يرىٰ ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالىٰ لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلىٰ بالليل والناس نيام».

وقد جهزت غرف وقصور في الجنان للصالحين والصالحات الذين أحسنوا الأعمال وتعبدوا للكريم المتعال فبنيت قصورهم وهم في الدنيا قال ﷺ وهو يذكر أنه دخل الجنة قال: «فسمعت خشفة في الجنة - أي صوت مشي - قلت: من هذا؟ فقيل: هذا بلال». فما شأن بلال يسبق إلىٰ هناك. سئل بلال ﷺ عن ذلك وقيل: قد سأله النبي ﷺ بم سبقت إلىٰ الجنة؟ فقال ﷺ: ما أعمل من عمل صالح غير أني يا رسول الله ما توضأت وضوءًا إلا صليت به ركعتين. قال عليه الصلاة والسلام: «ورأيت قصرًا بفنائه جارية فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب» فمن كان يريد بناء قصره وهو في الدنيا فليستمع. في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام «من بنىٰ مسجدًا يبتغي به وجه الله بنىٰ الله له مثله في الجنة». وعند مسلم قال عليه الصلاة والسلام: «من صلىٰ في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعًا بنىٰ الله له بيتًا في الجنة» وهذه الركعات فصلت في حديث آخر فبين عليه الصلاة والسلام أنها ركعتان قبل الفجر وأربع ركعات قبل الظهر وركعتان بعدها وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء. فمن صلاها في كل يوم بنىٰ الله له كل يوم بيتًا في الجنة.

فتخيل نفسك بالجنة وتخيليها وقد أعدت لكم الأرائك في حدائقها والسرر في بساتينها بألوان فاخرة وسرر ناضرة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن:٥٤] النمارق مصفوفة والزرابي مبثوثة والسرر مرفوعة طول السرير في السماء مائة ذراع فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له ونزل له حتىٰ يجلس عليه فإذا جلس عليه ارتفع إلىٰ مكانه وأينما تلفت في الجنة رأيت العجائب. الأنهار يجري من تحت قصورها وينغمس فيها أهلها قال الله وهو يصف أنهارها: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾

[محمد:١٥].

أنهار حوافها من ذهب وترابها الدر والياقوت وريحها أطيب من المسك وماؤها أحلىٰ من العسل ولونها أبيض من الثلج. فتنقلب كما شئت في أنهارها. وإن شئت فأت الفردوس فهو أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة.

نعم خمر الجنة منزه عن خمر الدنيا فلا صداع ولا لهو ولا نزف مال ولا تضييع عيال ولا توهم دار أما خمر الدنيا فهو رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة وتدعو إلىٰ الزنا والفساد وربما أوقعت الرجل علىٰ ابنته وأخته وتذهب الغيرة وتورث الخزي والندامة والفضيحة وترهق شاربها بالمجانين فمن هجروا خمر الدنيا شربوا من خمر الآخرة. وإن شاءوا شربوا من عين الكافور قال الله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٥، ٦] وإن شاءوا سقوا من تسنيم ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٨] وإن شاءوا سقوا من السلسبيل ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان:١٧، ١٨] يتمتعون بهذه الأنهار وهم في ظلال الأشجار ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة:٢٧-٣٢].

أشجار الجنة أيها الإخوة والأخوات دائمة العطاء ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [الرعد:٣٥] ومن طيب الثمار أنها تتشابه في أشكالها وتختلف في طعومها يعني تأكل الرمانة اليوم فيكون لها طعم فإذا أكلت أختها من الغد من الشجرة نفسها وجدت لها طعمًا آخر فإذا تناولتها في اليوم الثالث فإذا الشكل نفسه لكن الطعم جديد فلا تزال تكون مشتاقًا في كل يوم كيف

سيكون طعمها قال الله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥] وبها شجرة يسير الراكب الجواد المطمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها قال الله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠] نعم وظل ممدود فتخيل نفسك متكئًا تحتها تنعم بجمال ظلها ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٣، ١٤].

في الجنة سيقان الأشجار من ذهب وأوراقها في أعلىٰ الرتب وثمارها قريبة ممن رغب ومن قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة ومن قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غرست له أشجار. وعند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان الأولىٰ يشرب منها الداخلون والثانية منها يتطهرون.

كيفما شئت انتزعت بأسهل الإمكان. سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤] قيل له: كيف ذللت قطوفها؟ فقال: إذا جلس العبد في الجنة فنظر إلىٰ ثمرة في الغصن فإذا هم أن يتناولها تدلىٰ إليه الغصن - يقترب إليه الغصن - حتىٰ يتناول ما يريد فهي مذللة يتناولها إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا.

فأهل الجنة بفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة:٢٤] وليس أكلهم عن جوع ولا شربهم عن ظمأ ولا تطيبهم عن نتن وإنما هي لذات متوالية ونعم متتابعة. ألا ترىٰ أن الله تعالىٰ قال لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه:١١٨، ١١٩] فهو يأكل من غير جوع ويستظل من غير شمس مؤذية.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنك لتنظر للطير في الجنة فتشتهيه فيقع بين يديك

مشويًا.

نعم والله ملوك علىٰ الأسرة حتىٰ علىٰ رءوسهم التيجان وعند أقدامهم الخدم والغلمان. ولماذا لا يكون حالهم كذلك وهم لطالما أطاعوا لما عصىٰ الأشقياء وبذلوا لما بخل الجبناء وثبتوا علىٰ دينهم وقد عظم البلاء. صدقوا بمحبتهم لربهم فاستحقوا أن يفرحوا بلقائه ويتنعموا بقربه هذا الذي أعده الله تعالىٰ هناك ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٣-٣٥].

هذا شيء من نعيم الجنة ووالله إن ما خفي كان أعظم.

عند البخاري قال عليه الصلاة والسلام: «قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر. ثم قال اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]».

فيا أيها الناس، سابقوا إلىٰ مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن أعظم ما وصف الله من نعيم الجنة ما فيها من الزوجات والحوريات وأول من يتمتع بذلك النساء المؤمنات. نعم فما أطيب عيش المؤمنة بالجنة عندما تتقلب في أنهارها وتشرب من عسلها بل وتنظر إلىٰ وجه ربها ويكمل الجمال ويزين للمؤمنات في الجنات. فإذا كان الله تعالىٰ قد وصف الحور العين بما وصف وهن لم يقمن الليل ولم يصمن النهار ولم يصبرن عن الشهوات فما بالك بجمال المؤمنات وهن طالما خلون بربهن في ظلمة الليل يسمع نجواهن ويجيب دعاءهن. طالما تركن لأجل رضاه اللذات وفارقن

الشهوات فيا بشرىٰ المؤمنات في الجنات وقد تلقتهن الملائكة عند الأبواب تبشرهن بالنعيم وحسن الثواب وقد ازددن جمالاً فوق جمالهن قال الله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ نعم والمؤمنات ماذا وعد ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧٢].

روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين فقال عليه الصلاة والسلام «نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة علىٰ البطانة» أي: كفضل ظهارة الثوب علىٰ بطانته ومعلوم أن ظاهر الثوب من القماش يهتم الناس بجماله ويغالون بقيمته أكثر مما يهتمون ببطانة الثوب التي لا يراها أحد. قالت: قلت: يا رسول الله وبم ذاك؟ قال: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ﷻ ألبس الله ﷻ وجوههن النور وأجسادهن الحرير. بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبدًا ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا طوبىٰ لمن كنا له وكان لنا». المرأة في الجنة لو تفلت في بحار الدنيا لعذبت كلها ولو اطلعت من سقف بيتها إلىٰ الدنيا لأخفىٰ نورها نور الشمس والقمر.

نعم هذا نعيم من فاز بالجنات. فالجنة للرجال والنساء بل من النساء الصالحات من جاءتها بشراها بالجنة وهي لا تزال في الدنيا وعند مسلم أن النبي ﷺ أتاه جبريل يومًا فقال: «يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب». مؤمنة بشرت ببيت في الجنة وهي لا تزال تمشي علىٰ قدميها في الدنيا. وقال عليه الصلاة والسلام: «دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة» - وهي أم سليم أم أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه وعنها - ولا ننسىٰ تلك المرأة الصالحة التي كانت

تمشط بنت فرعون ثم قتلها فرعون قتلة بشعة وقتل قبلها أولادها.

روىٰ البيهقي أن النبي ﷺ قال: «لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة؟ فقيل لي: هذه ماشطة بنت فرعون وأولادها». اسمع إلىٰ أوصاف نساء الجنة واسمعي أوصافهن لعل نفسك أن تشتاق لتكون واحدة منهن فما وصفت الحور العين بوصف إلا وكان وصفك أجمل منه أضعافًا والحور العين من خلق الله في الجنة أنشأهن الله إنشاء فجعلهن أبكارًا عربًا أترابًا خلق الله تعالىٰ الحور العين من الزعفران. عجبًا إذا كانت الصورة الآدمية لفتاة اليوم في حسنها وتماسكها وهي مخلوقة من تراب فكيف يكون حال الحور العين وقد خلقن من الزعفران وهن عفيفات قال الله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات:٤٨] أي قصرن أطرافهن علىٰ أزواجهن متحببات إلىٰ أزواجهن لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٣] لونهم ضوء الشمس ما عبثت به يد وهن كالياقوت والمرجان وهن خيرات حسان مقصورات في الخيام مطهرات من الحيض والنفاس والبول والغائط والمخاط ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون إذا مشت رأيت مخ ساقها من لحمها وإذا ضحكت ظننت الكون مجتمعًا في حسنها وإذا أطلت رأيت نور الشمس في وجهها. وعند البخاري قال عليه الصلاة والسلام: «ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلىٰ أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها علىٰ رأسها خير من الدنيا وما فيها».

قال محمد بن كعب ؒ: والله الذي لا إله إلا هو لو أن امرأة من الحور العين اطلعت سوارها لأطفأ نور سوارها الشمس والقمر ثم قال فكيف بالمسورة.

يا جماعة إذا كان هذا الجمال وهذا النور من السوار الذي في يدها إذ اليد التي تلبس السوار فكيف سيكون جمالها ونورها. وقال أبو هريرة ؓ: إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشىٰ حولها سبعون ألف وصيف عن

يمينها وعن يسارها كذلك وهي تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وقال ابن عباس ﷺ إن في الجنة حوراء يقال لها لعبة لو بزقت في البحر لعذب ماء البحر كله مكتوب على ظهرها من أحب أن يكون له مثلي فليعمل بطاعة ربي. وقال مالك بن دينار: في الجنة حوراء يتباهى بها أهل الجنة لحسنها لولا أن الله كتب على أهل الجنة ألا يموتوا لماتوا عن آخرهم من حسنها. وروى أحمد والترمذي بسند صحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا».

قال يزيد الرقاشي: بلغني أن نورًا سطع في الجنة لم يبق موضع في الجنة إلا دخل فيه من ذلك النور فيتعجب أهل الجنة يقولون ما هذا النور فيقال هذا النور خرج من فم حوراء ضحكت في وجه زوجها. هذا النور خرج من فمها لما ضحكت. قال ابن عباس ﷺ: لو أن حوراء أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها ولو أخرجت نصيفها - يعني الخمار الذي تجعله على رأسها - لكانت الشمس عند حسنها مثل الفتيلة في الشمس لا ضوء لها ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض.

فيا أيها العشاق بل يا أيها الشباب الذين تعلقت أبصارهم براقصات في بارات أو مغنيات فاجرات أو بكاسيات عاريات مائلات مميلات دعوا عنكم النتن علقوا أنفسكم بالجنات.

أما أهل الجنة هم يتقلبون في نعيمها وحالهم كما قال الله: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٦٨-٧٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾

[يس:٥٥]

نعم هم مشغولون. مشغولون بالنظر إلىٰ وجه الجبار والتقلب في الأنهار وافتضاض الأبكار ومجالسة الأخيار وصيد الأطيار والضحك علىٰ أهل النار ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٥-٥٨] فلله ما أبهىٰ ذلك النعيم. أعلىٰ نعيم يمر علىٰ أهل الجنة وأجله وأكرمه وأبركه أنهم يرون ربهم، نعم نعم يرون ربهم الذي طالما عاهدوه بالأسحار، وبكوا من خشيته في النهار، الذي فروا إليه عند الكربات، وخافوا من مراقبته في الخلوات. الذي صدقوا رسله وأطاعوا أمره، لم ينشغلوا عنه بلذة في ليل ولا معصية في نهار فهم اليوم يقبلون بأبصارهم عليه وينظرون إليه ويقفون بين يديه.

في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالىٰ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله بين يديك فيقول: هل رضيم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»، وفي رواية عند مسلم قال عليه الصلاة والسلام: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فلا أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلىٰ ربهم تبارك وتعالىٰ ثم قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]» فالنظر إلىٰ وجه الله الكريم هو الزيادة وهو المتعة الكبرىٰ والعطية العظمىٰ بل هو والله أعظم كرامة فينظر المؤمنون إلىٰ ربهم فيفرحون أهذا ربنا الذي طالما دعوناه فاستجاب واستغفرناه فغفر وتاب، أهذا ربنا الذي فارقنا لأجله أوطاننا وبذلنا أموالنا

وأرواحنا، أحقًّا هذا ربنا الذي سجدنا له في الأسحار وبكينا من خشيته في النهار، هذا ربنا الذي سمىٰ نفسه رحيمًا فرحمنا ولطيفًا فلطف بنا وقريبًا فاستجاب دعاءنا. فينظرون إلىٰ وجه الحي الذي لا يموت الذي سالت الجوامد لهيبته واندكت الجبال من خشيته وجرت الأنهار بقدرته. وجهه أعظم الوجوه وجاهه أعظم الجاه وجماله أكمل الجمال ينظرون إلىٰ ربهم فلا يلتفتون إلىٰ نعيم آخر ما داموا ينظرون إليه، نعم ينسون والله الأنهار وجريانها والحور العين ودلالها والثمار ولذتها والقصور وسعتها ينسون كل نعيم ما داموا ينظرون إلىٰ العزيز الرحيم.

الجنة تزداد حسنًا وبهاء قال الله جل وعلا: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣١] أي: قربت وزينت ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٢-٣٥].

نعم في الجنة يعوض الله المحسن عن إحسانه والمجاهد عن جهاده والصابر عن صبره والمريض عن مرضه والفقير عن فقره والمبتلىٰ عن بلائه والداعية عن دعوته والعالم عن علمه. فهي أمنية العاشقين وعشيقة الصالحين ومهوىٰ أفئدة السالكين فما دمعت العيون إلا شوقًا إليها ولا احترقت القلوب إلا عشقًا لها.

وكل ما اشتهيت في الجنة يتحقق. فهذا رجل يحب الخيل فيأتي إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام فيقول: يا رسول الله هل في الجنة خيل فإنها تعجبني فيقول عليه الصلاة والسلام: «إن أحببت أوتيت بفرس من ياقوتة حمراء تطير بك في الجنة حيث شئت» وهذا رجل آخر في الجنة يتمنىٰ الولد فيحقق الله له أمنيته في ساعة واحدة حيث تحمل وتضع في ساعة. عند الترمذي وأحمد بإسناد صحيح قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن إذا اشتهىٰ الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي» وهذا رجل يحب

مجالسة إخوانه فيسمع قوله النبي ﷺ: «إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلىٰ الإخوان قال: فيطير سرير هذا إلىٰ سرير هذا فيذكران ما كان بينهما في الدنيا ويقول له: أتذكر مجلس كذا جلسنا فدعونا الله أن يغفر لنا فغفر لنا» وفي مجلس آخر يقعد عند النبي عليه الصلاة والسلام رجل من البادية فيقول ﷺ وهو يحدث أصحابه عن الجنة: «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال الله له: ألست فيما شئت؟ قال: بلىٰ ولكني أحب الزرع، قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستواءه واستحصاده وكان أمثال الجبال، فيقول الله تعالىٰ: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء». فلما سمع الأعرابي النبي ﷺ يذكر هذه القصة قال: والله يا رسول الله لا تجده إلا قرشيًّا أو أنصاريًّا فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك النبي ﷺ.

نعم، نعيم مقيم ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣] أفلا يستحق هذا النعيم الكثير والملك الكبير أن تترك لأجله اللذات الحاضرات. والله لو كنت مشتاقًا لخمر الجنة لتصبرت عن خمر الدنيا، ولو اشتقت للحور العين لغضضت بصرك عن الحرام وأحصنت فرجك عن الحرام، ولو صدق شوقك للذة النظر لوجه الكريم لبكيت في الأسحار وصمت النهار، ولو اشتقت لمجالسة الأنبياء لتركت مجالس الفحشاء. فالجنة ليست بالأماني، لقد اشتاق إليها أقوام تركوا أوطانهم وهجروا أولادهم فعاشوا غرباء. الناس يتركون الصلاة وهم يصلون، والناس يأكلون الربا وهم يتورعون، والناس يقارفون الفواحش وهم يعفون، كل ذلك لأجل ربهم لما اشتاقوا إليه.

فالأمر يحتاج إلىٰ تشمير، ولقد كان ﷺ يصرخ في أصحابه قائلا: «ألا من مشمر للجنة فإنها ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وزوجة حسناء». فقال الصحابة: نحن المشمرون لها يا رسول الله.

وإذا شبع الإنسان واطمأن رأىٰ عنده نهرًا يجري ونعمًا تسري وفاكهة حاضرة ونعمة ناضرة اشتهىٰ أن يجالس أحدًا يسليه أو يؤانسه ويهنيه. قال

محمد بن المنكدر: إذا كان يوم القيامة نادىٰ مناد أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان أسكنوهم رياض المسك ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي، وقال شهر بن حوشب: إن الله جل ثناؤه يقول لملائكته: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدعونه من أجلي فأسمعوا عبادي قال: فيأخذون بأصوات من تسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط.

قد يتساءل بعضكم أو بعضكن هل في الجنة أصوات؟ فأقول: نعم. روىٰ الترمذي وابن أبي عاصم عن أبي هريرة ﷺ قال: أخبرني رسول الله ﷺ: «أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوها بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالىٰ، فيبرز لهم عشره ويبتدئ لهم في روضة من رياض الجنة، فيوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ياقوت، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم وما فيها دني علىٰ كثبان المسك والكافور، وما يرون أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسًا، قال أبو هريرة: وهل نرىٰ ربنا ﷻ؟ قال: نعم، قال: ربكم، ولا يبقىٰ ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتىٰ يقول يا فلان ابن فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ فيذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: بلىٰ، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلىٰ، فبمغفرتي بلغت منزلتك هذه، قال: فبينما هم علىٰ ذلك إذ غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمرت عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط، قال: ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: قوموا إلىٰ ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم، قال: فيأتون سوقًا قد حفت بها الملائكة فيها ما لم تنظر العيون إلىٰ مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر علىٰ القلوب، قال: فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيه ولا يشترىٰ، وفي ذلك السوق يلقىٰ أهل الجنة بعضهم بعضًا، قال: فيقبل ذو البزة المرتفعة فيلقىٰ من هو دونه وما فيهم دني، فيروعه ما يرىٰ الناس عليه من اللباس والهيئة، فما ينقضي آخر حديثه حتىٰ يتمثل عليه

أحسن منه، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها، قال: ثم ننصرف إلىٰ منازلنا فيلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبًا وأهلاً بحبنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه، فنقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ﷻ، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا». قال: وقربهم من الله تبارك وتعالىٰ في سوق الجنة بقدر تبكيرهم إلىٰ صلاة الجمعة فمن بكر صار أقرب إلىٰ الإمام صار أقرب إلىٰ الحي القيوم يوم المزيد.

والمرء قد يتنعم بالدنيا بأنواع النعيم لكنه إذا تذكر انقطاع لذاته بالموت والمرض تكدر وحزن أما في الجنة فلا مرض ولا موت في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوضع بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم هذا الموت. ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون مستبشرين يرجون الشفاعة ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩] فيزداد أهل الجنة فرحًا إلىٰ فرحهم» وكيف لا يفرحون وهم الذين صبروا علىٰ طاعة ربهم وسخروا جوارحهم لدينهم قال الله جل وعلا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٧، ٢٨] نعم كنا خائفين من ربنا وكنا نحفظ أسماعنا ونغض أبصارنا ونحفظ ألسنتنا ونطهر أموالنا ونعف بفروجنا. ما الجزاء؟ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٧، ٢٨]، وقال جل جلاله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤] نعم أذهب عنا الحزن فلا شدة في الجنة ولا سآمة ولا مرض ولا حزن ولا تعب ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].

وفي مجالس أهل الجنة يتذكرون أهل الشر الذين كانوا في الدنيا ويتذكرون ما كانوا يستهزئون بهم إذا مشوا إلىٰ الفجر في الظلمات، يتذكرون ما كانوا يستهزئون بمظاهرهم إذا استقاموا علىٰ السنة والطاعات. نعم يتذكرون أولئك الذين طالما استهزءوا بهم فيما يكتبون وفيما يقولون وفيما به يتكلمون. يتذكرون أولئك الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ويدعونهم إلىٰ الكفران. اسمع إلىٰ حكاية الله لأهل الجنة قال الله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٠-٥٣] فلا يجدونهم معهم في الجنة ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥٤] هل تطلعون تبحثون عنهم في النار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات:٥٥-٦٠] عندها تشفىٰ صدور المؤمنين الأخيار من أولئك الفجار الذين طالما استهزءوا بهم في الدنيا وضيقوا عليهم في دينهم ووقفوا في طريق دعوتهم. هنا يفرح المؤمنين ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤] نعم لعنة الله علىٰ الظالمين.

هذا حال أهل المعصية في ذل الآخرة بل لو تأملت والله لوجدت أن أهل المعصية في عذاب في الدارين وهم في الدنيا وإن دلت ظواهرهم علىٰ أنهم سعداء إلا أنهم في الحقيقة في ضيق دائم.

نعم تلقي المخاوف وهي ذات أمان..

أسال الله تعالىٰ أن يجعلنا جميعًا من أهل الجنة وأن يرزقنا فيها الاجتماع مع الأنبياء الأطهار والشهداء الأبرار وأن يجعلنا ممن ينظرون إلىٰ وجه العلي الكبير المتعالىٰ الجبار جل جلاله، هذا والله تعالىٰ أجل وأكرم وأعلم، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ رسول الله.

قصة فتاة

الحمد لله يختص من يشاء برحمته، ويوفق أحبابه لأسباب عنايته، ومتابع الإحسان إلىٰ العباد بفضله ومنته، ومصرف الأحكام في العبيد، فمن شقي وسعيد، ومقرب وطريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وصلوات الله وسلامه علىٰ سيد أنبيائه، وأول أوليائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محدث الأكوان والأعيان، ومبدع الأركان والأزمان، ومنشئ الألباب والأبدان، ومنتخب الأحباب والخلان، الحمد لله وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ، حمدًا إذا قابل النعم وفىٰ، وسلامًا إذا بلغ خاتم النبيين شفىٰ، وعلىٰ آله وصحبه ومن اتبع سنته واقتفىٰ.

أما بعد.. الحمد لله، فهذه جلسة مع الصالحات، القانتات التقيات، اللاتي سمع الليل بكاءهن في الأسحار، ورأىٰ النهار صومهن والأذكار، هذه كلمات عابرات، أبعثها مع كل نبضة أمل في عصر تكاثرت فيه الفتن، إلىٰ الفتاة المسلمة، الراكعة الساجدة، أبعثها إلىٰ جوهرة المجتمع، وأمل الأمة، إنها جلسة مع المؤمنات، اللاتي لم تهتك إحداهن عرضها، ولم تدنس شرفها، وإنما صلت خمسها، وأدامت سترها، لتدخل جنة ربها، إنها قصة فتاة بل فتيات، قانتات صالحات، ليست قصة عشق فاتنة، ولا رواية ماجنة.

نعم، قصة أحكيها لك أنت أيتها الأخت العفيفة، العزيزة الشريفة، فأنت أعز ما لدينا أنت الأم والأخت، والزوجة والبنت، أنت نصف المجتمع، وأنت التي تلدين النصف الآخر، نعم تلدين الخطيب البارع، والإمام النافع، وتربين المجاهد المؤيد، والقائد المسدد، فلك مني قصص وكلمات، وأحاديث وهمسات، لعلها تبلغ حبة قلبك؟ وتصل إلىٰ شغاف نفسك؟

فالنساء شقائق الرجال، فكما أن في الرجال عالمًا جليلاً، وداعية نبيلاً، ففي النساء كذلك، وكما أن في الرجال صوامين في النهار، بكائين في الأسحار، ففي النساء كذلك، وكم من امرأة سابقت الرجال، في صالح الأقوال والأعمال،

فسبقتهم، في عبادتها لربها، ونصرتها لدينها، وإنفاقها وعلمها، بل إنك إذا قلبت صفحات التاريخ، رأيت أن أعظم الفضائل إنما سبقت إليها النساء، فأول من سكن الحرم، وشرب من ماء زمزم، وسعىٰ بين الصفا والمروة، هي امرأة، هاجر أم إسماعيل، وأول من دخل في الإسلام، وناصر النبي ﷺ، هي امرأة، خديجة أم المؤمنين ﵂، وأول من عذب في مولاه، حتىٰ قتل في سبيل الله، هي امرأة، سمية أم عمار بن ياسر.

فعند البخاري: أن إبراهيم ﵇، انطلق من الشام، إلىٰ البلد الحرام، معه زوجه هاجر وولدها إسماعيل وهو طفل صغير في مهده، وهي ترضعه، حتىٰ وضعهما عند مكان البيت، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفل ﵇ منطلقًا إلىٰ الشام، فتلفتت أم إسماعيل حولها، في هذه الصحراء الموحشة، فإذا جبال صماء وصخورا سوداء، وما رأت حولها من أنيس ولا جليس، وهي التي نشأت في قصور مصر، ثم سكنت في الشام في مروجها الخضراء، وحدائقها الغناء، فاستوحشت مما حولها، فقامت، وتبعت زوجها، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟

فما رد عليها، ولا التفت إليها، فأعادت عليه، أين تذهب وتتركنا، فما رد عليها، فأعادت عليه، وما أجابها، فلما رأت أنه لا يلتفت إليها.

قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: حسبي، قد رضيت بالله، إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم الشيخ الكبير، وقد فارق زوجه وولده، وتركهما وحيدين، حتىٰ إذا كان عند ثنية جبل، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه جهة البيت، ثم رفع يديه إلىٰ الله داعيًا، مبتهلاً راجيًا.

فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

ثم ذهب إبراهيم إلىٰ الشام، ورجعت أم إسماعيل إلىٰ ولدها، فجعلت ترضعه وتشرب من ذلك الماء، فلم تلبث أن نفد ما في السقاء، فعطشت، وعطش ابنها، وجعل من شدة العطش يتلوىٰ، ويتلمظ بشفتيه، ويضرب الأرض بيديه وقدميه، وأمه تنظر إليه يتلوىٰ ويتلبط، كأنه يصارع الموت، فتلفتت حولها، هل من معين أو مغيث، فلم تر أحدًا..

فقامت من عنده، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه يموت، فاحتارت أين تذهب!!

فرأت جبل الصفا أقرب جبل إليها، فصعدت عليه، وهي المجهدة الضعيفة، لعلها ترىٰ أعرابًا نازلين، أو قافلة مارة، فلما وصلت إلىٰ أعلاه، استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتىٰ إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعىٰ الإنسان المجهود، حتىٰ جاوزت الوادي، ثم أتت جبل المروة فقامت عليه، ونظرت، هل ترىٰ أحدًا، فلم تر أحدًا، فعادت إلىٰ الصفا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

فلما أشرفت علىٰ المروة في المرة السابعة، سمعت صوتًا فقالت: صه، ثم تسمعت.

فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فأغثني، فلم تسمع جوابًا، فالتفتت إلىٰ ولدها، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فضرب الأرض بعقبه أو بجناحه حتىٰ تفجر الماء، فنزلت إلىٰ الماء سريعًا، وجعلت تحوضه بيدها وتجمعه، وتغرف بيدها من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، فقال لها جبريل: لا تخافوا الضيعة، إن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، فلله درها ما أصبرها، وأعجب حالها، وأعظم بلاءها.

هذا خبر هاجر، التي صبرت، وبذلت، حتىٰ سطر الله في القرآن ذكرها وجعل من الأنبياء ولدها، فهي أم الأنبياء، وقدوة الأولياء، هذا حالها، وعاقبة أمرها، نعم، تغربت وخافت، وعطشت وجاعت، لكنها راضية بذلك ما دام أن

في ذلك رضا ربها، عاشت غريبة في سبيل الله، حتىٰ أعقبها الله فرحًا وبشرًا، فهل تصبرين أنت اليوم مثل غربتها؟ فتقومين الليل والناس نيام، وتصومين النهار، وهم في شراب وطعام، بل تفخرين بعباءتك وحجابك، يوم تنازل عنها من تنازل، وتهجرين الأفلام والمسرحيات، والفواحش والأغنيات، في سبيل رضا رب الأرض والسماوات..

فهذا الصبر من أعظم الجهاد، وأنت عليه في الدنيا عزيزة مأجورة، وفي الآخرة كريمة مشكورة، بل طوبىٰ لك إن فعلت ذلك، وقد قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء».

نعم، طوبى للغرباء..

فمن الغرباء؟ إنهم قوم صالحون، بين قوم سوء كثير، إنهم رجال ونساء، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يقبضون علىٰ الجمر، ويمشون علىٰ الصخر، ويبيتون علىٰ الرماد، ويهربون من الفساد، صادقة ألسنتهم، عفيفة فروجهم، محفوظة أبصارهم، كلماتهم عفيفة، وجلساتهم شريفة، فإذا وقفوا بين يدي الله، وشهدت الأيدي والأرجل، وتكلمت الآذان والأعين، فرحوا واستبشروا، فلم تشهد عليهم عين بنظر إلىٰ محرمات، ولا أذن بسماع أغنيات، بل شهدت لهم بالبكاء في الأسحار، والعفة في النهار، أما غيرهم فتحيط بهم الفضائح، وتهلكهم القبائح، ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فُصِّلَت:١٩-٢٤].

خبر أم المؤمنين خديجة

فعند البخاري: أن النبي ﷺ قبل أن يوحىٰ إليه بالنبوة، كان يذهب إلىٰ غار حراء، بجانب المدينة، فيتعبد فيه، فبينما هو ﷺ في هدوء الغار يومًا، إذ جاءه جبريل فجأة، فقال: اقرأ؛ ففزع النبي ﷺ منه، وقال: ما قرأت كتابًا قط، ولا أحسنه، وما أكتب، وما أقرأ، فأخذه جبريل فضمه إليه، حتىٰ بلغ منه الجهد، ثم تركه، فقال: اقرأ.

فقال ﷺ: «ما أنا بقارئ». فأخذه فضمه إليه الثانية.. حتىٰ بلغ منه الجهد، ثم تركه، فقال: اقرأ، فقال ﷺ: «ما أنا بقارئ». فأخذه جبريل فضمه إليه الثالثة حتىٰ بلغ منه الجهد، ثم تركه.

فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١- ٥] فلما سمع النبي ﷺ هذه الآيات، ورأىٰ هذا المنظر، اشتد فزعه، ورجف فؤاده، ثم رجع إلىٰ المدينة، فدخل علىٰ خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها. فقال: «زملوني، زملوني». أي غطوني بالفرش، ثم اضطجع، وغطوه، وأم المؤمنين، تنظر إليه لا تدري ما الذي أفزعه، فلبث ﷺ مليًّا حتىٰ سكن روعه.

ثم التفت إلىٰ خديجة فأخبرها الخبر، وقال لها: «يا خديجة، لقد خشيت علىٰ نفسي».

فقالت خديجة: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين علىٰ نوائب الحق، ثم لم ينقطع خيرها، ولم يقف حماسها، وإنما أخذت بيده ﷺ، فانطلقت به حتىٰ أتت ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان شيخًا كبيرًا أعمىٰ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يقرأ الإنجيل، ويكتبه، ويعرف أخبار الأنبياء.

فلما دخلت عليه خديجة جلست إليه ومعها رسول الله ﷺ فقالت له: يا ابن

عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ، وما سمع من القرآن، فقال ورقة: سبوح، سبوح، أبشر ثم أبشر، هذا الناموس الذي أنزل علىٰ موسىٰ، ثم قال ورقة: يا ليتني فيها جذعًا، حين يخرجك قومك، أي شابًا قويًا لأخرج معك وأنصرك؟

ففزع ﷺ وقال: «أو مخرجي هم؟!»، فقال: نعم! إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، أي أنصرك نصرًا عزيزًا أبدًا، ثم خرج ﷺ مع زوجه خديجة، وقد أيقنت خديجة أن عهد النوم قد تولىٰ، وأنها مع زوج سيبتلىٰ، وقد تخرج من بيتها، وتؤذىٰ في نفسها، وهي المرأة التي نشأت غنية منعمة، حسيبة مكرمة، وها هي تستقبل البلاء، فهل تخاذلت عن نصرة الدين، أو خلطت الشك باليقين، كلا، بل آمنت بربها، ونصرت نبيها بمالها، ورأيها، وجهدها، ولم يزل هذا حالها حتىٰ لقيت ربها.

وقد روىٰ مسلم أن النبي ﷺ أتاه جبريل فقال: «يا رسول الله هذه خديجة، قد أتتك ومعها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

هذا خبر خديجة، أول من دخلت في الإسلام، ونبذت عبادة الأصنام، سبقت الرجال، وخلفت الأبطال، حتىٰ ضرب التاريخ الأمثال ببذلها، ودعانا إلىٰ الاقتداء بفعلها، لم تلتفت إلىٰ توهين من كافر، أو شبهة من فاجر، فكان جزاؤها أن أعد الله نزلها، وبنىٰ بيتها، فاستبشرت وفرحت، وزادت وتعبدت، حتىٰ لقيت ربها وهو راض عنها، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢]، فرضي الله عن أم المؤمنين خديجة، رضي الله عن أمنا، فهلا اقتدت بها بناتها، هلا اقتديت أنت بها، ليكون لك في الجنة مثلها بيت من قصب، لا نصب فيه ولا وصب.

خبر أم عمار، سمية بنت خياط فهو عجب

كانت أمة مملوكة لأبي جهل، فلما جاء الله بالإسلام، أسلمت هي وزوجها وولدها، فجعل أبو جهل يفتنهم، ويعذبهم، ويربطهم في الشمس حتىٰ يشرفوا علىٰ الهلاك حرًّا وعطشًا، فكان ﷺ يمر بهم وهم يعذبون، ودماؤهم تسيل علىٰ أجسادهم، وقد تشققت من العطش شفاههم، وتقرحت من السياط جلودهم، وحر الشمس يصهرهم من فوقهم، فيتألم ﷺ لحالهم، ويقول: «صبرًا آل ياسر، صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة». فتلامس هذه الكلمات أسماعهم، فترقص أفئدتهم، وتطير قلوبهم فرحًا بهذه البشرىٰ، وفجأة، إذا بفرعون هذه الأمة، أبي جهل يأتيهم، فيزداد غيظه عليهم، فيسومهم عذابًا.

ويقول: سبوا محمدًا وربه، فلا يزدادون إلا ثباتًا وصبرًا، عندها يندفع الخبيث إلىٰ سمية، ثم يستل حربته، ويطعن بها في فرجها، فتتفجر دماؤها، ويتناثر لحمها، فتصيح وتستغيث، وزوجها وولدها علىٰ جانبيها مربوطان يلتفتان إليها، وأبو جهل يسب ويكفر، وهي تحتضر وتكبر، فلم يزل يقطع جسدها المتهالك بحربته، حتىٰ تقطعت أشلاءً، وماتت ﵂، نعم، ماتت، فلله درها ما أحسن مشهد موتها، ماتت، وقد أرضت ربها، وثبتت علىٰ دينها، ماتت، ولم تعبأ بجلد جلاد، ولا إغراء فساد، فآه لفتيات اليوم، تضل إحداهن بأقل من ذلك، فتنحرف عن الصراط، وهي لم تجلد بسياط، ولم تخوف بعذاب، ومع كل ذلك، وتهتك سمعها بسماع الأغنيات، وبصرها بالأفلام والمسرحيات، وعرضها بالغزل والمكالمات، وحجابها يتلاعبه أصحاب الشهوات، نعم، كانت النساء، تصبر علىٰ البلاء، كن يصبرن علىٰ العذاب الشديد، والكي بالحديد، وفراق الزوج والأولاد، يصبرن علىٰ ذلك كله حبًّا للدين، وتعظيمًا لرب العالمين، لا تتنازل إحداهن عن شيء من دينها ولا تهتك حجابها ولا تدنس شرفها ولو كان ثمن ذلك حياتها. نساء خالدات، تعيش إحداهن لقضية واحدة، كيف تخدم الإسلام، تبذل للدين مالها، ووقتها، بل وروحها، حملن

همَّ الدين، وحققن اليقين.

أم شريك غزية الأنصارية

أسلمت مع أول من أسلم في مكة البلد الأمين، فلما رأت تمكن الكافرين، وضعف المؤمنين، حملت هم الدعوة إلىٰ الدين، فقوي إيمانها، وارتفع شأن ربها عندها، ثم جعلت تدخل علىٰ نساء قريش فتدعوهن إلىٰ الإسلام، وتحذرهن من عبادة الأصنام، حتىٰ ظهر أمرها لكفار مكة، فاشتد غضبهم عليها، ولم تكن قرشية يمنعها قومها، فأخذها الكفار وقالوا: لولا أن قومك حلفاء لنا لفعلنا بك وفعلنا، لكنا نخرجك من مكة إلىٰ قومك، فتلتلوها، ثم حملوها علىٰ بعير، ولم يجعلوا تحتها رحلاً، ولا كساءً، تعذيبًا لها، ثم ساروا بها ثلاثة أيام، لا يطعمونها ولا يسقونها، حتىٰ كادت أن تهلك ظمئًا وجوعًا، وكانوا من حقدهم عليها، إذا نزلوا منزلاً أوثقوها، ثم ألقوها تحت حر الشمس، واستظلوا هم تحت الشجر، فبينما هم في طريقهم، نزلوا منزلاً، وأنزلوها من علىٰ البعير، وأوثقوها في الشمس، فاستسقتهم فلم يسقوها..

فبينما هي تتلمظ عطشًا، إذ بشيء بارد علىٰ صدرها، فتناولته بيدها فإذا هو دلو من ماء، فشربت منه قليلاً، ثم نزع منها فرفع، ثم عاد فتناولته منه ثم رفع، ثم عاد فتناولته ثم رفع مرارًا، فشربت حتىٰ رويت، ثم أفاضت منه علىٰ جسدها وثيابها، فلما استيقظ الكفار، وأرادوا الارتحال، أقبلوا إليها، فإذا هم بأثر الماء علىٰ جسدها وثيابها، ورأوها في هيئة حسنة، فعجبوا، كيف وصلت إلىٰ الماء وهي مقيدة، فقالوا لها: حللت قيودك، فأخذت سقاءنا فشربت منه؟

قلت: لا والله، ولكنه نزل علي دلو من السماء فشربت حتىٰ رويت، فنظر بعضهم إلىٰ بعض وقالوا: لئن كانت صادقة لدينها خير من ديننا، فتفقدوا قربهم وأسقيتهم، فوجدوها كما تركوها، فأسلموا عند ذلك، كلهم، وأطلقوها من عقالها وأحسنوا إليها، أسلموا كلهم بسبب صبرها وثباتها، وتأتي أم شريك يوم

القيامة وفي صحيفتها، رجال ونساء، أسلموا علىٰ يدها.

نعم عرف التاريخ أم شريك..

الغميصاء، أم أنس بن مالك..

التي قال فيها النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي فإذا هي الغميصاء بنت ملحان». امرأة من أعجب النساء، عاشت في بداية حياتها كغيرها من الفتيات في الجاهلية، تزوجت مالك بن النضر، فلما جاء الله بالإسلام استجابت وفود من الأنصار، وأسلمت أم سليم، مع السابقين إلىٰ الإسلام.

وعرضت الإسلام علىٰ زوجها فأبىٰ وغضب عليها، وأرادها علىٰ الخروج معه من المدينة إلىٰ الشام، فأبت وتمنعت..

فخرج، وهلك هناك، وكانت امرأة عاقلة جميلة فتسابق إليها الرجال، فخطبها أبو طلحة قبل أن يسلم فقالت: أما إني فيك لراغبة، وما مثلك يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، فإن تسلم فذاك مهري، لا أسأل غيره، قال: إني علىٰ دين.

قالت: يا أبا طلحة، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبده خشبة نبتت من الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ قال: بلىٰ، قالت: أفلا تستحي أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ يا أبا طلحة، إن أنت أسلمت لا أريد من الصداق غيره، قال: حتىٰ أنظر في أمري، فذهب ثم جاء إليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله.

فاستبشرت، وقالت: يا أنس زوج أبا طلحة، فتزوجها، فما كان هناك مهر قط أكرم من مهر أم سليم: الإسلام، انظري كيف أرخصت نفسها في سبيل دينها، وأسقطت من أجل الإسلام حقها، نعم، فتاة تعيش لأجل قضية واحدة هي الإسلام، كيف ترفع شأنه، وتعلي قدره، وتهدي الناس إليه، بل، حينما قدم

النبي ﷺ المدينة، استقبله الأنصار والمهاجرون فرحين مستبشرين، ونزل ﷺ في بيت أبي أيوب، فأقبلت الأفواج علىٰ بيته لزيارته ﷺ، فخرجت أم سليم الأنصارية من بين هذه الجموع وأرادت أن تقدم لرسول الله ﷺ شيئًا، فلم تجد أحب إليها من فلذة كبدها، فأقبلت بولدها أنس، ثم وقفت بين يدي النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله هذا أنس يكون معك دائما يخدمك، ثم مضت، وبقي أنس عند رسول الله ﷺ يخدمه صباحًا ومساء، ولم تكن أم سليم تتصنع البذل أمام الناس وتنساه في نفسها، وإنما العجب حالها في بيتها، من عناية بزوجها، ورضا بقسمة ربها، تزوجت أم سليم أبا طلحة، ورزقت منه بغلام صبيح، هو أبو عمير، وكان أبو طلحة يحبه حبًّا عظيمًا، بل كان ﷺ يحبه، ويمر بالصغير فيرىٰ معه طيرًا يلعب به، اسمه النغير، فكان يمازحه ويقول: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟».

فمرض الغلام، فحزن أبو طلحة عليه حزنًا شديدًا، حتىٰ اشتد المرض بالغلام يومًا، وخرج أبو طلحة في حاجة إلىٰ رسول الله ﷺ، وتأخر عنده، فازداد مرض الغلام ومات، وأمه عنده، بكىٰ بعض أهل البيت، فهدأتهم وقالت: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتىٰ أكون أنا أحدثه، فوضعت الغلام في ناحية من البيت وغطته، وأعدت لزوجها طعامه، فلما عاد أبو طلحة إلىٰ بيته، سألها: كيف الغلام؟ قالت: هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح..

فتوجه إليه ليراه، فأبت عليه وقالت: هو ساكن فلا تحركه، ثم قربت له عشاءه فأكل وشرب، ثم أصاب منها ما يصيبه الرجل من امرأته، فلما رأت أنه قد شبع واستقر، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: وما لهم؟! قالت: أعارهم قوم عارية، وطال بقاؤها عندهم حتىٰ رأوا أن قد ملكوها، فلما جاء أهلها يطلبونها، جزعوا أن يعطوهم إياها، فقال: بئس ما صنعوا، فقالت: هذا ابنك، كانت عارية من الله، وقد قبضه إليه، فاحتسب ولدك

عند الله، ففزع، ثم قال: والله، ما تغلبيني على الصبر الليلة، فقام وجهز ولده، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فدعا لهما بالبركة.

قال راوي الحديث: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن، فانظري كيف ارتفعت بدينها، عن شق الجيوب وضرب الخدود والدعاء بالويل والثبور، هل رأيتم امرأة توفي ابنها، بين يديها، وتقوم بخدمة زوجها، وتهيئ له نفسها؟ بل هل رأيت ألطف من لطفها، أو ألين من طريقتها؟ إن امرأة بهذا الإيمان والدين، والصدق واليقين، لينتشر خيرها، وتعم بركة فعلها، على أهل بيتها، فيصلح أولادها، وتستقيم بناتها، ويتأثر زوجها بصلاحها، فلا عجب أن يرتفع شأن أبي طلحة بعد زواجه منها، كانت أم سليم تحثه على الدعوة والجهاد، وطاعة رب العباد، خرج أبو طلحة مع المجاهدين، فاشتد عليهم البلاء، فاضطرب المسلمون، وقتلوا، وتفرقوا، وأقبل المشركون على رسول الله ﷺ يريدون قتله، فأقبل عليه أصحابه الأخيار، وهم جرحى، وجوعى، دماؤهم تسيل على دروعهم، ولحومهم تتناثر من أجسادهم، أقبلوا على رسول الله ﷺ، فأحاطوه بأجسادهم يصدون عنه الرماح، وضربات السيوف، تقع في أجسادهم دونه، وكان أبو طلحة يرفع صدره ويقول: يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك، وهو يقاتل عن رسول الله ﷺ ويحامي، والكفار يضربونه من كل جانب، هذا يرميه بسهم، وذلك يضربه بسيف، والثالث يطعنه بخنجر، فلم يلبث أن صرع ووقع من كثرة الضرب عليه، فأقبل أبو عبيدة يشتد مسرعًا، فإذا أبو طلحة صريعًا، فقال النبي ﷺ: «دونكم أخاكم فقد أوجب»، فحملوه، فإذا بجسده بضع عشرة ضربة وطعنة.

نعم، كان أبو طلحة بعدها، يرفع راية الدين، وكان ﷺ يقول: «لصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة». هذا صوته في الجيش، فما بالك بقوته وقتاله؟

فهل تنشطين لتقدمي مثلما قدمت؟

فقد دعا النبي ﷺ النساء كما دعا الرجال، وبايع النساء كما بايع الرجال، وحدث النساء كما حدث الرجال، والنساء والرجال متساويان في الجزاء والعقاب..

قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. وهما متساويان في الحقوق الإنسانية، فلكل من الزوجين حق علىٰ الآخر، قال ﷺ: «ألا إن لكم علىٰ نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا». والميزان الوحيد عند الله للمفاضلة بين الرجل والمرأة هو التقوىٰ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣]، وكلما احترمت المرأة نفسها احترمها من حولها، فهي ثمينة مادامت أمينة، فإذا خانت هانت، وانظري إلىٰ رسول الله ﷺ، لما فتح مكة، واضطرب أمر الكفار فيها، فمنهم من قاتل، ومنهم أسلم، ومنهم من اختبأ، فكان من بين المقاتلين رجلان قاتلا عليًّا ﷺ ثم فرا من بين يديه..

والتجآ إلىٰ بيت أم هانئ أخت علي ﷺ، فأمنتهما، فأقبل علي عليها، فدخل البيت، وقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت أم هانئ عليهما باب البيت، ثم ذهبت سريعًا إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما رآها قال: «مرحبا يا أم هانئ، ما جاء بك؟». فقالت: زعم علي أنه يقتل رجلين أمنتهما، فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما».

وجعل الله للمرأة حقها في تقرير حياتها، فلا تزوج إلا بإذنها، ولا يؤخذ من مالها إلا باختيارها، وإن اتهمت في عرضها عوقب متهمها، وإن احتاجت ألزم وليها بسد حاجتها، أبوها مأمور بالإحسان إليها، وولدها مأمور ببرها، وأخوها مأمور بصلتها، بل طالما قدم الدين المرأة علىٰ الرجل، قال تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [العنكبوت:٨].

وفي الصحيحين قال رجل: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال ﷺ: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك».

ورأى ابن عمر ﷺ رجلاً يطوف حول الكعبة، يحمل عجوزًا على ظهره، فسأله: من هذه؟ فقال الرجل: هذا أمي مقعدة، وأنا أحملها على ظهري منذ عشرين سنة، أتراني يا ابن عمر وفيتها حقها، فقال ابن عمر: لا، لا، ولا زفرة من زفراتها، فمع هذا التبجيل والتكريم، والاحترام والتقديم، كيف تتقاعس فتيات اليوم عن نصرة الدين..

بل كيف ترى المنكرات ظاهرة، بصورة فاجرة، أو علاقات سافرة، ومحرمات في اللباس والحجاب، مؤذنة بقرب نزول العذاب، ترى هذه المنكرات بين قريباتها، وأخواتها وزميلاتها، ثم لا تنشط للإنكار، وقد قال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره». فهل غيرت ما استطعت من منكرات؟ ليت شعري، كيف يكون حالك يوم القيامة، إذا تعلقت بك الصديقة والزميلة، والحبيبة والخليلة، وبكين وانتحبن، لم رأيتينا على المنكرات، ومفارقة المحرمات، ولم تنهي أو تنصحي، أو تعظي وتذكري، وانظري إلى تضحية الكافرات لدينهن.

يقول أحد الدعاة: كنت في رحلة دعوية إلى اللاجئين في أفريقيا، كان الطريق وعرا موحشًا أصابنا فيه شدة وتعب..

ولا نرى أمامنا إلا أمواجًا من الرمال، ولا نصل إلى قرية في الطريق، إلا ويحذرنا من قطاع الطرق، ثم يسر الله الوصول إلى اللاجئين ليلاً، فرحوا بمقدمي، وأعدوا خيمة فيها فراش بال، ألقيت بنفسي على الفراش من شدة التعب ثم رحت أتأمل رحلتي هذه. أتدري ما الذي خطر في نفسي؟!

شعرت بشيء من الاعتزاز والفخر بل أحسست بالعجب والاستعلاء! فمن ذا الذي سبقني إلى هذا المكان؟! ومن ذا الذي يصنع ما صنعت؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يتحمل هذه المتاعب؟! وما زال الشيطان ينفخ في قلبي حتى كدت أتيه كبرًا وغرورًا خرجنا في الصباح نتجول في أنحاء المنطقة حتى وصلنا إلى بئر يبعد عن منازل اللاجئين، فرأيت مجموعة من النساء يحملن على

رءوسهن قدور الماء ولفت انتباهي امرأة بيضاء من بين هؤلاء النسوة كنت أظنها بادئ الرأي واحدة من نساء اللاجئين مصابة بالبرص فسألت صاحبي عنها، قال لي مرافقي: هذه منصرة، نرويجية، في الثلاثين من عمرها، تقيم هنا منذ ستة أشهر، تلبس لباسنا وتأكل طعامنا وترافقنا في أعمالنا، وهي تجمع الفتيات كل ليلة، تتحدث معهن، وتعلمهن القراءة والكتابة وأحيانا الرقص، وكم من يتيم مسحت علىٰ رأسه! ومريض خففت من ألمه! فتأملي في حال هذه المرأة ما الذي دعاها إلىٰ هذه القفار النائية وهي علىٰ ضلالها؟! وما الذي دفعها لتترك حضارة أوروبا ومروجها الخضراء؟! وما الذي قوىٰ عزمها علىٰ البقاء مع هؤلاء العجزة المحاويج وهي في قمة شبابها؟!

أفلا تتصاغرين نفسك، هذه منصرة ضالة، تصبر وتكابد، وهي علىٰ الباطل، بل في أدغال أفريقيا، تأتي المنصرة الشابة من أمريكا وبريطانيا وفرنسا، تأتي لتعيش في كوخ من خشب، أو بيت من طين، وتأكل من أردأ الطعام كما يأكلون، وتشرب من النهر كما يشربون، ترعىٰ الأطفال، وتطبب النساء، فإذا رأيتيها بعد عودتها إلىٰ بلدها، فإذا هي قد شحب لونها، وخشن جلدها، وضعف جسدها، لكنها تنسىٰ كل هذه المصاعب لخدمة دينها، عجبًا، هذا ما تبذله تلك النصرانيات الكافرات، ليعبد غير الله، ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء:١٠٤].

وأنت، أفلا تساءلت يومًا: ماذا قدمت للإسلام؟

كم فتاة تابت علىٰ يدك؟ كم تنفقين لهداية الفتيات إلىٰ ربك؟

تقول بعض الصالحات: لا أجرؤ علىٰ الدعوة، ولا إنكار المنكرات، عجبًا!! كيف تجرؤ مغنية فاجرة، أن تغني أمام عشرة آلاف يلتهمونها بأعينهم قبل آذانهم، ولم تقل: إني خائفة أخجل، كيف تجرؤ راقصة داعرة، أن تعرض جسدها أمام الآلاف، ولا تفزع وتوجل، وأنت إذا أردنا منك مناصحة أو دعوة، خذلك الشيطان، بل بعض الفتيات، تزين لغيرها المنكرات، فتتبادل معهن

مجلات الفحشاء، وأشرطة الغناء، أو تدعوهن إلىٰ مجالس منكر وبلاء، وهذا من التعاون علىٰ الإثم والعدوان، والدخول في حزب الشيطان، ولتنقلبن هذه المحبة إلىٰ عداوة وبغضاء، قال الله: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُخرُف:٦٧]. هذا حالهن في عرصات القيامة، يلبسن لباس الخزي والندامة، أما في النار، فكما قال الله عن فريق من العصاة: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٥]، نعم يلعن بعضهن بعضًا، تقول لصاحبتها التي طالما جالستها في الدنيا، وضاحكتها وقبلتها، تقول لها يوم القيامة: لعنك الله أنت التي أوقعتني في الغزل والفحشاء، فتصيح بها الأخرىٰ: بل لعنك الله أنت، فأنت التي أعطيتني أشرطة الغناء.

فتجيبها: بل لعنك الله، أنت التي زينتي لي التسكع والسفور، فترد عليها: بل لعنك الله أنت، أنت التي دللتني علىٰ طرق الفجور، عجبًا، كيف غابت تلك الضحكات، والهمسات، واللمسات، طالما طفتما في الأسواق، وضاحكتما الرفاق، واليوم يفكر بعضكن ببعض ويلعن بعضكن بعضًا، نعم، لأنهن ما اجتمعن يومًا علىٰ نصيحة أو خير، فهن يوم القيامة يجتمعن، ولكن أين يجتمعن؟ في نار لا يخبو سعيرها، ولا يبرد لهيبها، ولا يخفف حرها، إلا أن يشاء الله، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٨]، ثم قال الله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وكم من الفتيات المؤمنات، انجرفت إحداهن مع الأمواج، فبدأت تتساهل

بالحجاب والعباءة، وترضىٰ أن تتبع ما يصنعه المفسدون، بل يصممه الفجرة والكافرون، من العباءات التي تظهر الزينة بدل أن تسترها، عجبًا!! كيف ترضين أن تكوني دمية يلبسونها ما شاءوا؟ فهذه عباءة مطرزة، وتلك مخصرة، والثالثة علىٰ الكتفين، والرابعة واسعة الكمين، أصبحت أكثر العباءات، تحتاج إلىٰ سترها بعباءة، فالحجاب إنما شرع لستر الزينة عن الرجال، فإذا كان الحجاب في نفسه زينة، فما الحاجة إليه، وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما، رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

فمن الفتاة التي لا تريد الجنة ولا رائحتها؟ أما تعلمين، أنك بتبرجك وسفورك تصبحين وسيلة من وسائل الشيطان؟ هل ترضين أن تكوني سببًا في وقوع مسلم في الحرام؟ أتدرين أنك إذا لبست عباءة متبرجة، ثم رأتك فتاة فاشترت مثلها فلبستها، أتعلمين أن عليك وزرها ووزر من قلدها هي أيضًا إلىٰ يوم القيامة، أيسرك أن تكوني قدوة في الشر.

ولو سألت امرأة تزينت بعباءة من هذه الأنواع لماذا تلبسين هذه العباءة؟ لقالت لك: هذه أجمل، فاسأليها عند ذلك: تتجملين لمن؟!! نعم تتجملين لمن؟! لخاطب شريف، أو زوج عفيف، إنها تتزين لينظر إليها سفلة الناس، ممن لا يلتفتون لمراقبة الله لهم، ممن لا يهمهم شرفها، ولا عفتها أو كرامتها، يسعىٰ أحدهم لشهوة فرجه، ولذة عينه، ثم إذا قضىٰ حاجته منها، ركلها بقدمه، وبحث عن فريسة أخرىٰ.

هلا تفكرت يومًا، لماذا أمرك الله بالحجاب؟ نعم لماذا قال الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[النور:٣١]؟ لماذا أمرك الله بستر زينتك، وجهك وشعرك وسائر جسدك؟ لماذا أمرك الله بهذا؟ هل بينه وبينك خصام أو ثأر وانتقام؟ كلا، فهو الغني عن عباده الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولكنها سنة الله

الباقية، وشريعته الماضية، وقوله الذي لا يبدل، وحكمه الذي يعدل، قضىٰ علىٰ الرجل بأحكام، وعلىٰ المرأة بأحكام، ولا يمكن أن تستقيم الدنيا إلا بطاعته..

والمرأة الصالحة تسلم لربها في أمره، وتأملي فيما رواه مسلم، من خبر تلك المرأة، التي جاءت إلىٰ عائشة يومًا فسألتها، فقالت: ما بال الحائض إذا طهرت من حيضها، تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فعجبت عائشة من سؤالها، وقالت: أحرورية أنت؟ أي من الخوارج علىٰ الدين؟ قالت: لست بحرورية، ولكني أسأل: فقالت عائشة: كان يصيبنا ذلك علىٰ عهد رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة، نعم، تسليم تام لأوامر الله، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥١، ٥٢]، نعم، الفائزون هم الذين يسلمون لله في أمره، أما غيرهم، فهم يسعون جاهدين، لنزع عباءتك، وهتك حجابك، يستميتون لتحقيق غاياتهم، ينفقون من أموالهم، ويبذلون من أوقاتهم، فهذه مجلة سافرة، وتلك مقالة فاجرة، وهذا برنامج يشكك في الحجاب، يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا، يريدون التمتع بالنظر إلىٰ زينتك في أسواقهم، والأنس برقصك في مسارحهم، والتلذذ بجسدك علىٰ فرشهم، وبخدمتك لهم في طائراتهم، فهم في الحقيقة يطالبون بحقوقهم لا بحقوقك، عجبًا لهم!! لم يعرفوا من حقوق المرأة، إلا حق التبرج ونزع الحجاب، وحق قيادة السيارة، وحق السفر بلا محرم، وحق العمل ومخالطة الرجال، وحق الخروج في وسائل الإعلام، إلىٰ آخر تلك الحماقات التي يسمونها حقوقًا، تبًا لهم!! لم نسمعهم يومًا يطالبون بحقوق الأرامل والمعوقات، أو يطالبون الأبناء بحقوق الأمهات، يطالبون بالفساد، ويظهرون أنهم يريدون رقي المجتمع، وهذا حال المنافقين، فهم أحفاد عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين في عهد رسول الله، ألم تري أنه اتهم أمنا

عائشة رضي الله عنها بالزنا، وأشاع المقالة ورددها بين الناس، وزعم أنه يريد إشاعة الفضيلة، وهو في الحقيقة أستاذ الرذيلة، وموقد نارها، ألا ترين أنه كان يشتري الإماء الجميلات ثم يأمرهن بالبغاء والزنا، ليجمع المال من ذلك، حتىٰ فضحه الله في القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور:٣٣].

فهم يرددون، العباءة علىٰ الرأس تضايقك، والثوب الطويل يثقل عليك، والبنطال أسهل لمشيك، وتغطية الوجه تكتم أنفاسك، قوم أعجبوا بحضارة الكفار، فظنوا أن الطريق إليها نزع الحجاب، وتشمير الثياب، وإن جولة واحدة في إحدىٰ مدن الغرب أو الشرق تكفي لإدراك هذه الحقيقة، فالمرأة تشتغل حمالة حقائب في المطار، وعاملة نظافة في الطريق، ومنظفة حمام في الشركة، وإن كانت جميلة، اشتغلت في مرقص أو بار، فهذا سكير يعربد بها، وذاك فاجر يعبث بجسدها، والثالث يتخذها سلعة يتكسب منها، فإذا قضوا حاجتهم منها صفعوا وجهها، وإذا كبرت ألقيت في دار العجزة التي هي أشبه بالسجون، بل بالمقابر، عجبًا، أهذه هي الحرية التي يعنونها، والله لئن كنا نتألم لمصاب مسلمة في الفلبين، وأخرىٰ في كشمير، فإن المرأة هناك لا تجد من يتألم لها.

يقول أحد الأطباء: كنت أدرس في بريطانيا، وكانت جارتنا عجوزًا يزيد عمرها علىٰ السبعين عامًا، كانت تستثير شفقة كل من رآها، قد احدودب ظهرها، ورق عظمها، ويبس جلدها، ومع ذلك، فهي وحيدة بين جدران أربعة، تدخل وتخرج وليس معها من يساعدها من ولد ولا زوج، تطبخ طعامها، وتغسل لباسها، منزلها كأنه مقبرة، ليس فيه أحد غيرها، ولا يقرع أحد بابها، دعتها زوجتي لزيارتنا ذات يوم، فأخبرتها زوجتي بأن الإسلام يجعل الرجل مسئولاً عن زوجته، يعمل من أجلها، يبتاع طعامها ولباسها، يعالجها إذا مرضت، ويساعدها إذا اشتكت، وهي تجلس في بيتها، تجب عليه نفقتها ورعايتها، بل وحماية عرضها ونفسها، فإذا رزقت بأولاد، وجب عليهم هم

أيضًا برها، والذلة لها، ومن عقها من أولادها نبذه الناس وقاطعوه حتىٰ يبرها، فإن لم تكن المرأة ذات زوج وجب علىٰ أبيها أو أخيها، أو وليها، أن يرعاها ويصونها، كانت هذه العجوز، تستمع إلىٰ زوجتي، بكل دهشة وإعجاب، بل كانت تدافع عبراتها وهي تتذكر أولادها وأحفادها الذين لم ترهم منذ سنوات، ولا يزورها أحد منهم، بل لا تعرف أين هم، وقد تموت وتدفن أو تحرق وهم لا يعلمون، لأنها لا قيمة لها عندهم، أنهت زوجتي حديثها، فبقيت العجوز واجمة قليلاً، ثم قالت: في الحقيقة، إن المرأة في بلادكم: ملكة، ملكة، نعم والله، أيتها الأخت الكريمة أنت عندنا ملكة، نعم ملكة تسفك من أجلك الدماء، فمن قتل دون عرضه فهو شهيد، وترخص لأجلك الأرواح، وتنفق الأموال.

ولأنك ملكة مصونة أمر الرجال حولك أن يحفظوك..

وقد يدقق الرجل علىٰ امرأته، فيأمرها أو ينهاها، وهو إنما يريد نجاتها، وانظري إلىٰ عمر بن الخطاب ﷺ، وقد جيء إليه بمسك وعنبر من مصر، ليبيعه ويجعل ثمنه في بيت مال المسلمين، فقال ﷺ: وددت أني وجدت امرأة جيدة الوزن، تكسر هذا الطيب وتبيعه وتجعل المال في بيت مال المسلمين، فقالت امرأته: أنا أفعل ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فافعلي، فأخذت النساء تأتيها، وتكسر العنبر، بيدها وتزن لهن وتبيع، فكانت إذا التصق بيدها شيء من الطيب مسحته بخمارها، فلما أقبل عمر في الليل، ناولته المال، فلما دنا منها، شم فيها طيبًا، فقال: اشتريت من الطيب؟ قالت: لا، قال: فمن أين هذه الريح؟ قالت: كان يبقىٰ في أصابعي فأمسحه بخماري، فقال: سبحان الله، النساء يشترين بأموالهن، وأنت تتطيبين من مال المسلمين، ثم جذب خمارها من علىٰ رأسها، وقام إلىٰ قربة معلقة في السقف، فصب منها علىٰ الخمار، وأخذ يغسله ويعصره ويشمه، فإذا أثر الطيب باق فيه، فكشف البساط، ثم جعل علىٰ التراب ماءً وأخذ يفرك الخمار علىٰ الطين، حتىٰ ذهبت

الرائحة، فغسله ثم ألقاه إليها، خوفًا عليها من دقيق الحساب، وأليم العذاب، والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

وفي طبقات ابن سعد: أن أم عمارة رضي الله عنها خرجت مع جيش المسلمين إلىٰ معركة أحد، تسقي الماء وتداوي الجرحىٰ، لكنها لما اشتد القتال، وفرت جموع من المسلمين، فنظرت أم عمارة، فرأت المسلمين يفرون، والكفار يصولون ويجولون، وما ثبت إلا رسول الله ﷺ يضارب بسيفه، وليس حوله إلا عشرة من أصحابه، فسلت سيفًا، ثم أقبلت تشتد حتىٰ وقفت بين يدي النبي ﷺ، تذب عنه، والناس يمرون به منهزمين، وهي ليس معها ترس تدفع عن نفسها ضرب السيوف، فمر رجل معه ترس، فقال له ﷺ: «ألق ترسك إلىٰ من يقاتل». فألقىٰ الرجل ترسه، فأخذته أم عمارة فجعلت تترس به عن رسول الله ﷺ، ووقفت علىٰ قدميها تقاتل، فأقبل رجل علىٰ فرس فضربها بالسيف فاتقته بترسها، فلم يصنع سيفه شيئًا، وولىٰ الرجل فضربت عرقوب فرسه، فوقع علىٰ ظهره، وهجمت عليه، فجعل النبي ﷺ يصيح بابنها: «أمك أمك». فأقبل ولدها فعاونها عليه حتىٰ قتلته، وفي هذه الأثناء، أقبل فارس من الكفار، إلىٰ ولدها بين يديها، فضربه علىٰ كتفه الأيسر، فكادت يده أن تسقط من أصلها، وجعل الدم ينزف، فالتفت إليه النبي ﷺ فرأىٰ الدماء تجري علىٰ ثيابه، فصاح به وقال: «اعصب جرحك».

فأخرجت أم عمارة، خرقًا قد أعدتها للجرحىٰ، فربطت جرح ولدها، والنبي ﷺ ينظر إليهما، فلما أحكمت جرحه، ضربت كتفه وقالت: انهض بني فضارب القوم، فعجب النبي ﷺ من صبرها وأخذ يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة». وفجأة أقبل عليها الرجل الذي ضرب ابنها، فقال ﷺ: «هذا ضارب ابنك يا أم عمارة». فاعترضت له فضربت ساقه فبرك علىٰ الأرض وهو ينتفض، فأقبلت تضربه بالسيف حتىٰ مات، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي أظفرك، وأقر

عينك من عدوك، وأراك ثأرك بعينك».

ثم أقبل عليها أحد الكفار فضربها علىٰ عاتقها ضربة غارت في جسدها، والنبي ﷺ، يضارب القوم ويلتفت إليها، فلما رأىٰ جرحها، صاح بولدها قال: «أمك، أمك اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل البيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت، ومقام زوج أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت».

فالتفتت إليه أم عمارة وقالت وهي تصارع ألمها: ادع الله أن نرافقك في الجنة، فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة». قالت أم عمارة: فما أبالي ما أصابني من الدنيا، فكان ﷺ يقول بعدها عن يوم أحد: «ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أرىٰ أم عمارة تقاتل دوني». نعم جرحت أم عمارة باثني عشر جرحًا، وشهدت بعدها قتال مسيلمة الكذاب، فجرحت أحد عشر جرحًا، وقطعت يدها، فرضي الله عنها، تعلم أن الأصل بقاؤها في بيتها ترعىٰ أولادها، ولكن لما احتاج إليها الدين نصرته بجسدها كما نصرته بمالها، وكذلك الرجل، الأصل أنه يكدح خارج البيت ويرتاح داخله، ولكن قد تخرق هذه القاعدة، لهذا رسول الله ﷺ أحيانًا، كان يخصف نعله، ويفلي ثوبه، ويكون في حاجة أهله.

وكلما كانت المرأة بربها أعرف، كانت منه أخوف..

فإذا قارفت ذنبًا أو معصية، رجعت إلىٰ ربها تائبة مفضية، تخاف من ويلات الذنوب، وتترك لذة عيشها، في سبيل أن تلقىٰ ربها وهو راضٍ عنها، فيغفر الله ذنبها ويستر عليها وهو الذي يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه.

في الصحيحين: أن امرأة من الصحابيات، كانت متزوجة في المدينة، وسوس لها الشيطان يومًا، وأغراها برجل فخلا بها عن أعين الناس، وكان الشيطان ثالثهما، فلم يزل يزين كلاً منهما لصاحبه حتىٰ زنيا، فلما فرغت من جرمها،

خطيئتها، حتىٰ أحرق الذنب قلبها، فجاءت إلىٰ طبيب القلوب ﷺ، ووقفت بين يديه، ثم صاحت من حر ما تجد، قالت: يا رسول الله، زنيت، فطهرني، فأعرض عنها، فجاءت من شقه الآخر، فقالت: يا رسول الله، زنيت، فطهرني، فأعرض عنها لعلها أن ترجع فتتوب بينها وبين الله، فخرجت، من عنده، والذنب يأكل فؤادها..

فلم تطق صبرًا، فلما جلس ﷺ في مجلسه من الغد فإذا بها تقبل عليه، فتقول: يا رسول الله، طهرني..

فأعرض عنها، فصاحت من حر فؤادها، قالت: يا رسول الله، لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزًا، والله إني لحبلىٰ من الزنا، فالتفت إليها رسول الله، ثم قال: «أما لا فاذهبي حتىٰ تلدي».

فخرجت من المسجد، ومضت إلىٰ بيتها، تجر خطاها، قد كبر همها، وضعف جسدها، ودمعت عينها، ذهبت تعد الساعات والأيام، والآلام تلد الآلام، فلما مضت تسعة أشهر، ضربها المخاض، فلم تزل تتلوىٰ من الألم حتىٰ ولدت..

فلما ولدت، لم تنتظر نفاسها، بل قامت من فراشها، وحملت وليدها في خرقتها، ثم مضت به إلىٰ رسول الله ﷺ، ثم وضعته بين يديه، وقالت: هذا قد ولدته يا رسول الله، فطهرني، فنظر النبي ﷺ إليها، فإذا هي في تعبها ونصبها، ونظر إلىٰ وليدها فإذا هو صبي في مهده، يتلبط بين يدي أمه، فقال: «اذهبي فأرضعيه حتىٰ تفطميه». فذهبت، وغابت سنتين كاملتين، عاشتها مع فلذة كبدها، يتقلب في حضنها، تغسل وجهه بدمعاتها، وتودعه بنظراتها، فلما فطمته من الرضاع، لفت عليها ثيابها، ثم خرجت بولدها من بيتها، وناولته في يده كسرة خبز، ثم أتت به يمشي معها، حتىٰ وقفت به بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: هذا يا نبي الله، قد فطمته، وقد أكل الطعام، فطهرني، فدفع النبي ﷺ، الصبي إلىٰ رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلىٰ صدرها، وأمر الناس

فرجموها حتىٰ ماتت، نعم ماتت..

لكنها، غسلت وكفنت، وقام ﷺ ليصلي عليها، وهو يقول:

«لقد تابت توبة، لو تابها سبعون من المدينة لقبل منهم، هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها». ماتت، وجادت بنفسها في سبيل الله، مات، فطوبىٰ لها، وقعت في الزنىٰ، وهتكت ستر ربها، وشهدت الملائكة الكرام، واطلع الملك العلام، لكنها لما ذهبت اللذات، وبقيت الحسرات، تذكرت يوم تشهد عليها أعضاؤها التي متعتها بالزنا رجلها التي مشت بها يدها التي لمست بها لسانها الذي تكلمت به بل تشهد عليها، كل ذرة من ذراتها، وكل شعرة من شعراتها..

تذكرت حرارة النيران، وعذاب الرحمن، يوم يعلق الزناة بفروجهم في النار ويضربون عليها بسياط من حديد فإذا استغاث أحدهم من الضرب نادته الملائكة: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتفرح وتمرح ولا تراقب ولا تستحي منه!!

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزنىٰ عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»، فتابت توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.

هكذا كانت النساء، رجاعات توابات.

فهل لك أن تتأملي نساء اليوم، كم منهن انزلقت قدمها في المعصية؟ بل صال حولها الشيطان وجال، حتىٰ أخرجها من الإسلام، وألحقها بعباد الأصنام، فتركت الصلاة، وقد قال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

وانتقلي معي إن شئت، إلىٰ هناك، انتقلي إلىٰ الدار الآخرة، ثم تأملي ما قصه الله علينا من خبر أهل الجنة وأهل النار..

فبينما أهل الجنة فيها يتنعمون، وعلىٰ أسرتها يتقلبون، إذ تساءلوا عن

أصحاب لهم كانوا في الدنيا، علىٰ معصية للرحمن، ما حالهم وخبرهم، فتخبرهم الملائكة أنهم في النار يصطلون، ومن زقومها يتجرعون، ومع شياطينها يسلسلون، عندها يشرف أهل الجنة ينظرون إليهم ويسألونهم، ما سلككم في سقر؟

ذئب يتكلم

في أوائل بعثة النبي ﷺ.. كان أحد رعاة الغنم.. يرعىٰ غنمه في بعض بوادي المدينة.. فعدا الذئب علىٰ شاة منها.. فأخذها وعدا هاربًا.. فطلبه الراعي فانتزعها منه.. فولىٰ الذئب هاربًا.. ثم وقف فجأة.. وأقعىٰ الذئب علىٰ ذنبه.. ثم التفت إلىٰ الراعي.. وقال: ألا تتقي الله!! تنزع مني رزقًا ساقه الله إلي؟!

فقال الراعي: يااااا عجبًا!! ذئب مقع علىٰ ذنبه.. يكلمني كلام الإنس..!!!

فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟

أعجب من هذا.. رجل في النخلات بين الحرتين.. يخبركم بما مضىٰ.. وما هو كائن بعدكم.. يعني: رسول الله ﷺ.. ومضىٰ الذئب إلىٰ شأنه!! فأقبل الراعي يسوق غنمه.. حتىٰ دخل المدينة.. وجمع غنمه في زاوية من زواياها.. ثم أتىٰ النبي ﷺ فأخبره.. فأمر رسول الله ﷺ أحد الصحابة فنادىٰ في الناس: الصلاة جامعة..

فاجتمع الناس في المسجد.. لا يدرون لماذا جمعهم النبي ﷺ.. فخرج النبي عليه الصلاة والسلام عليهم.. فإذا هم جالسون.. منصتون بين يديه.. والأعرابي راعي الغنم جالس بينهم..

فقال ﷺ للأعرابي: «أخبرهم».. فتكلم الأعرابي.. وأخبرهم بخبر الذئب..

كان كلام الأعرابي غريبًا.. والناس يستمعون.. والنبي ﷺ ساكت.. فلما انتهىٰ الراعي من كلامه.. قال رسول الله ﷺ: «صدق»..

«والذي نفس محمد بيده.. لا تقوم الساعة حتىٰ تكلم السباع الإنس..

ويكلم الرجل عذبة سوطه.. وشراك نعله.. ويخبره فخذه ما أحدث أهله بعده».

فهذا من آيات نبوته ﷺ أن شهدت له أنواع المخلوقات بالنبوة..

سعد بن معاذ في مكة

انطلق سعد بن معاذ إلىٰ مكة معتمرًا.. فنزل علىٰ أمية بن خلف.. وكان بينهما ود وصداقة في الجاهلية.. ولم يكن وقع بين المسلمين والكفار حروب بعد.. فكان أمية إذا سافر إلىٰ الشام.. نزل عند صديقه سعد بن معاذ في المدينة.. وارتاح أيامًا ثم واصل سفره.. وكذلك كان سعد.. يأتي مكة.. فينزل عند أمية..

لما نزل سعد عند أمية.. قال له: يا أمية.. انظر لي ساعة خلوة.. لعلي أن أطوف بالبيت..

فقال أمية: انتظر حتىٰ إذا انتصف النهار.. وغفل الناس.. انطلقت.. فطفت.. فلما اشتدت شمس النهار.. وأوىٰ الناس إلىٰ بيوتهم.. خرج أمية بسعد.. متوجهًا به إلىٰ البيت الحرام.. الكعبة..

في أثناء الطريق لقيهما رأس الكفر أبو جهل.. نظر أبو جهل إلىٰ سعد بن معاذ فلم يعرفه.. فسأل أمية.. قال: يا أبا صفوان!! من هذا معك؟

قال أمية: هذا سعد بن معاذ.. اليثربي - أي: القادم من يثرب وهي المدينة.. فتذكر أبو جهل أن أهل يثرب.. هم الذين ناصروا النبي ﷺ.. وقبلوه مهاجرًا إليهم.. فغضب وقال: ألا أراك تطوف بالبيت آمنًا.. وقد آويتم محمدًا والصباة معه - والصباة: هم الذين غيروا دينهم..

فسكت سعد.. فقال أبو جهل: وزعمتم أنكم تنصرونهم.. وتعينونهم.. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلىٰ أهلك سالمًا..

سعد سيد في قومه.. ولا يرضىٰ أن يهان بمثل هذا الكلام.. فغضب وقال:

لئن منعتني من هذا.. لأمنعنك ما هو أشد عليك منه.. أمنعك من طريقك إلىٰ الشام..

كان سعد يعلم أن أبا جهل تاجر له قوافل تذهب إلىٰ الشام، ولا بد أن تمر بالمدينة.. فهدده أن يقطع الطريق عليها..

ثار أبو جهل وسعد.. وتخاصما.. فتحير أمية.. لمن ينتصر؟ فهذا سيد قومه في المدينة.. وهذا سيد قومه في مكة.. فمالت نفسه مع أبي جهل.. فقال لسعد: يا سعد.. لا ترفع صوتك علىٰ أبي الحكم.. فإنه سيد أهل الوادي..

فقال سعد ﷺ: وأنت دعنا منك يا أمية.. فوالله سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك.. ففزع أمية وقال: يقتلني بمكة أم في غيرها؟!

قال سعد: لا أدري.. فاضطرب أمية وفزع فزعًا شديدًا.. وولىٰ وهو يقول.. والله ما يكذب محمد أبدًا.. ثم رجع أمية إلىٰ أهله.. فدخل علىٰ زوجته.. وهو ينتفض وقال لها: يا أم صفوان.. ألم تسمعي ما قال لي سعد؟!!

قالت: وما قال لك؟

قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنه قاتلي..

ففزعت وقالت: بمكة؟

قال: لا أدري..

فقالت: والله ما يكذب محمد..

فقال أمية: والله لا أخرج من مكة أبدًا.. ومضت الأيام.. فأقبلت لقريش قافلة من الشام.. فخرج ﷺ ليعترض طريقها..

فأرسل قائد القافلة أبو سفيان إلىٰ قريش في مكة يستنصرهم للخروج للقتال والدفاع عن القافلة.. ثار أهل مكة.. وقام أبو جهل يستنصر الناس.. ويستحثهم للخروج للقتال.. ويقول: أدركوا عيركم.. أموالكم..

بدأ الناس يتجهزون.. منهم من يحد سيفه.. ومن يجمع متاعه.. ومن يجهز

فرسه.. كل أهل مكة تجهزوا للخروج للقتال.. إلا واحد.. أمية بن خلف.. كره أمية أن يخرج.. وخاف علىٰ نفسه.. وجلس في ظل الكعبة.. فعلم أبو جهل أن أمية سيتخلف عن الخروج..

فأتاه فقال: يا أبا صفوان.. إنك متىٰ يراك الناس قد تخلفت.. وأنت سيد أهل الوادي.. تخلفوا معك.. فأبىٰ أمية أن يخرج.. فهو يعلم أن محمدًا ﷺ.. لا يكذب أبدًا..

أبو جهل كافر حقير.. لكنه ذكي!! ابتكر أبو جهل طريقة يستحث بها أمية للخروج..

فماذا فعل؟! أخذ أبو جهل مبخرة ووضع فيها جمرًا وطيبًا.. ثم أقبل بهذا البخور إلىٰ أمية وهو جالس بين قومه في ظل الكعبة.. وقال: خذ تطيب.. يا أبا صفوان.. تطيب إنما أنت من النساء.. أي: ما دام أنك لن تخرج للقتال فمعناه أنك ستجلس مع النساء ونحن نخرج نقاتل عنك.. فخذ تطيب.. كما تتطيب النساء!!

آآآه.. ما أخبث أبا جهل!!! يعلم من أين تؤكل الكتف!!

ما كاد أمية يسمع هذا الكلام.. حتىٰ ثار.. وقام وهو يقول: أما إذا غلبتني.. فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.. ثم أقبل علىٰ بيته وقال: يا أم صفوان.. جهزيني..

فقالت: يا أبا صفوان.. قد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي!!

قال: لا.. وما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا.. وأعود..

كانت خطة أمية أن يسير مع الجيش.. بعض الطريق ثم يتخفىٰ عنهم.. ويعود إلىٰ مكة..

وفعلاً.. خرج أمية مع الجيش.. وجعل لا ينزل الجيش منزلاً أثناء الطريق.. لنوم أو طعام.. إلا ربط بعيره بجانبه.. استعدادًا للهرب..

لكن أبا جهل كان بالمرصاد.. فلم يزل يسير مع الجيش.. حتىٰ وصل موقع معركة بدر.. وقتله الله بأيدي المسلمين.. وتحقق ما أخبر به ﷺ من أن المسلمين يقتلون أمية..

خطة قتل النبي ﷺ

بعد معركة بدر وهزيمة مشركي قريش فيها.. رجع كفار قريش إلىٰ مكة.. وقد قتل منهم من قتل.. وأسر من أسر.. كانت مصيبة عظيمة علىٰ قريش..

أقبل عمير بن وهب.. إلىٰ الكعبة فرأىٰ صفوان بن أمية جالسًا في الحجر في ظل الكعبة.. فجلس عمير إليه.. وجعلا يتبادلان الآهات.. فكلاهما مصاب.. عمير ابنه مأسور.. وصفوان أبوه مقتول.. فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلىٰ بدر..

قال عمير: أجل.. والله ما في العيش خير بعدهم.. ثم تحمس عمير فقال: لولا دين علي.. لا أجد له قضاء.. وعيال لا أدع لهم شيئًا.. لرحلت إلىٰ محمد فقتلته.. إن ملأت عيني منه.. فإن لي علة أعتل بها إن دخلت المدينة.. أقول: قدمت علىٰ ابني أفدي هذا الأسير..

فرح صفوان بقوله.. وشعر أنها فرصة للانتقام.. فقال: علي دينك.. فأنا أقضيه.. وعيالك أسوة عيالي في النفقة.. فاذهب إلىٰ محمد فاقتله..

شعر عمير أنه أوقع نفسه في فخ.. ولكن لا سبيل للتراجع..

قام صفوان مسرعًا وجهز لعمير راحلة.. ودفع إلىٰ عمير سيفًا مصقولاً مسمومًا.. وودع عمير أهله.. ومضىٰ يسير مغادرًا مكة، وقد تكون نظراته إلىٰ بيوتها وجبالها هي النظرات الأخيرة..

وصل عمير إلىٰ المدينة.. توجه إلىٰ المسجد.. نزل عند بابه.. وعقل راحلته.. وتناول سيفه المسموم.. وعلقه في عنقه.. ودخل المسجد.. وتوجه إلىٰ رسول الله ﷺ.. رآه عمر.. فصاح: هذا عدو الله.. الذي حرش بيننا يوم

بدر..

انطلق عمر ليمنعه من الوصول إلىٰ رسول الله.. لكنه وصل..

وقف عمير بين يدي النبي ﷺ.. وكان خطته.. أن يغافل النبي ﷺ.. ويضربه فجأة بالسيف ويقتله.. ثم لا يهمه ما يقع بعد ذلك.. فقد قضىٰ دينه.. وأمن عياله..

مسكين.. كان يظن المسألة سهلة إلى هذه الدرجة!!

نظر النبي ﷺ إلىٰ عمير.. ورأىٰ السيف معه.. فقال: «ما أقدمك؟».

كان عمير متوقعًا هذا السؤال.. وبالتالي فالجواب جاهز.. قال: ابني أسير عندكم وجئت أفتديه.. ففادونا في أسرائنا.. فإنكم العشيرة والأهل..

فقال ﷺ: «فما بال السيف في عنقك؟»

فعلاً!! من جاء ليفتدي أسيرًا يعلق في عنقه كيس مال.. لا سيفًا..

فقال عمير: قبحها الله من سيوف.. فهل أغنت عنا شيئًا يوم بدر..!! إنما نسيته في عنقي حين نزلت..

فقال له رسول الله ﷺ: «اصدقني.. ما أقدمك؟».

قال: ما قدمت إلا في أسيري..

فقال ﷺ: «فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟».

ففزع عمير.. وقال: ماذا شرطت؟!!

قال ﷺ: «تحملت له بقتلي.. علىٰ أن يعول بيتك.. ويقضي دينك.. والله حائل بينك وبين ذلك»..

انتفض عمير.. وعجب كيف علم النبي ﷺ بخبره مع صفوان! فقال: أشهد أنك رسول الله.. وأن لا إله إلا الله.. كنا نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء.. وهذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر.. لم يطلع عليه أحد غيري وغيره.. فما أخبرك به إلا الله..

ودخل عمير في الإسلام.. وصار في خيار المسلمين..

الشاة المسمومة!!

وكذلك ما وقع منه ﷺ مع اليهود لما أرادوا قتله.. فإنه ﷺ وقعت له غزوة إلىٰ اليهود في خيبر.. فحاصرهم.. حتىٰ طال الحصار.. ثم استسلموا.. ودخل عليه الصلاة والسلام فاتحًا.. فأقبلت امرأة يهودية حاقدة.. وطبخت شاة.. وشوتها.. وجعلت فيها سمًّا.. ومن حقدها سألت: أي الشاة أحب إلىٰ محمد؟ فقيل لها: الذراع.. فزادت السم في الذراع.. فلما استقر ﷺ مع بعض أصحابه في خيبر.. أقبلت اليهودية بطعامها.. ووضعته بين يدي النبي ﷺ وأصحابه.. وزعمت أنه هدية لهم!!

عجبًا!! هل رأيت أحدًا يهدي الموت؟!

كان الصحابة جائعين.. وكذلك كان ﷺ.. حصار طويل.. وزاد قليل.. وحر وتعب.. ثم شاة مشوية!!

وضع الصحابة أيديهم آكلين.. ورسول الله ﷺ أخذ قطعة من الذراع فرفعها إلىٰ فمه الطاهر.. ونهش من لحمها نهشة.. وفجأة صاح بأصحابه.. أن يتوقفوا عن الأكل.. فتوقفوا.. مندهشين.. ثم قال ﷺ: «اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود».

فجمعوهم له.. فقال ﷺ: «إني سائلكم عن شيء.. فهل أنتم صادقي عنه؟».

قالوا: نعم..

فقال ﷺ: «من أبوكم؟».

كان لهذه القبيلة من اليهود جد.. لا يفتخرون بالانتساب إليه.. فيدعون الانتساب إلىٰ جد آخر.. فقالوا: أبونا فلان..

فقال ﷺ: «كذبتم، بل أبوكم فلان..».

قالوا: صدقت..

قال: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟».

فقالوا: نعم.. يا أبا القاسم.. وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا..

فقال لهم: «من أهل النار؟».

قالوا: نكون فيها يسيرًا.. ثم تخلفونا فيها..

فقال ﷺ: «اخسئوا فيها.. والله لا نخلفكم فيها أبدًا».

ثم قال: «هل أنتم صادقي عن شيء.. إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.. يا أبا القاسم..

فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟».

قالوا: نعم.. نعم..

قال: «ما حملكم على ذلك؟».

قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا.. نستريح منك.. وإن كنت نبيًّا لم يضرك.. ولكن!! من أخبرك؟ فرفع ﷺ الذراع، وقال: «أخبرتني هذه الذراع».

فصلوات ربي وسلامه عليه.. حتى الذراع أنطقها الله.. لما لم ترد أن تضر نبيه ﷺ..

ربي قتل ربكما!!

بعث ﷺ عبد الله بن حذافة رضي الله عنه إلى كسرى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام.. وصل الكتاب إلى كسرى.. وهو ملك عظيم في قومه.. يملك فارس كلها.. إيران.. وأفغانستان.. وباكستان.. وغيرها.. فلما قرأ كسرى الكتاب غضب.. ومزق الكتاب.. وقال: يكتب إلي بهذا الكتاب وهو عبدي..!!

كان كسرى متكبرًا متغطرسًا.. فلم يكتف بتمزيق الكتاب.. لا وإنما كتب إلى أمير اليمن باذان: بلغني أن في أرضك رجلاً تنبأ.. فابعث إليه من عندك

رجلين جلدين فليربطاه وليأتياني به.. فبعث أمير اليمن باذان رجلين.. ليربطا النبي ﷺ ويحضراه إليه!!!

مساكين!!

خرج الرجلان حتىٰ قدما المدينة.. فدخلا علىٰ رسول الله ﷺ.. فقالا له: انطلق معنا.. وإن أبيت فكسرىٰ مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.. فنظر إليهما النبي ﷺ.. فإذا هما قد حلقا لحاهما وأبقيا شواربهما.. فكره النظر إليهما.. وقال: «ويلكما، من أمركما بهذا؟».

قالا: أمرنا بهذا ربنا.. يعنيان كسرىٰ..

فقال ﷺ: «لكن ربي ﷻ.. أمرني بإعفاء لحيتي وبقص شاربي». ثم قال لهما بكل هدوووء: «ارجعا حتىٰ تأتياني الغد».

وجاء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ.. أن الله سلط علىٰ كسرىٰ ابنه فقتله.. فلما أتيا رسول الله ﷺ قال لهما: «إن ربي غضب علىٰ ربكما فقتله؛ فدمه في نحره ساخن الساعة». يعني: مات الآن..!! فلا يزال دمه يجري منه حارًّا..

فاستعظما الأمر.. وقالا له: هل تدري ما تقول؟! أنكتب بهذا عنك؟ أنخبر الملك به؟

فقال ﷺ بكل ثقة: «نعم، أخبراه ذلك عني».

وقولا له: «إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرىٰ، وينتهي إلىٰ منتهىٰ الخف والحافر».

وقولا له: «إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك علىٰ قومك من الأبناء».

فخرج الرجلان من عنده ﷺ.. يخبان السير إلىٰ اليمن.. حتىٰ قدما علىٰ باذان وأخبراه الخبر.. فإذا هو لم يبلغه ما وقع في فارس لبعد المسافة.. فقال باذان: والله ما هذا بكلام ملك.. وإني لأرىٰ الرجل نبيًّا كما يقول.. ولننظرن ما

قد قال.. فلئن كان ما قد قال حقًا فإنه لنبي مرسل.. وإن لم يكن فسنرىٰ فيه رأينا..

فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه بن كسرىٰ.. يخبره أن صار الملك.. ويأمره بالطاعة.. فنظر باذان في وقت مقتل كسرىٰ.. فإذا هي الساعة التي أخبر النبي ﷺ بها الرجلين.. فقال باذان: إن هذا الرجل لرسول الله.. ثم أسلم باذان لله تعالىٰ.. وأسلم أهل اليمن.

وعليكم السلام.. خبيب..!!

قدم علىٰ رسول الله ﷺ بعد معركة أحد قوم من قبيلتي عضل والقارة.. فقالوا: يا رسول الله.. إن فينا إسلامًا.. فابعث معنا نفرًا من أصحابك.. يفقهوننا في الدين.. ويقرئوننا القرآن.. ويعلموننا شرائع الإسلام..

فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرًا ستة من خيار أصحابة.. وهم:

مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق رضي الله عنهم..

فخرجوا مع القوم.. وكانوا يمرون بقبائل كافرة.. ويتخفون.. حتىٰ وصلوا إلىٰ موضع اسمه (الرجيع).. وهو قريب من قبيلة هذيل.. فسمعت بهم قبيلة هذيل.. فخرج إليهم مائة فارس من هذيل.. فاقتصوا آثارهم.. حتىٰ أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوىٰ تمر تزودوه من المدينة.. فقالوا: هذا تمر يثرب.. فتبعوا آثارهم حتىٰ لحقوهم.. فلما أدركوهم.. هجموا عليهم.. فلجأ الصحابة إلىٰ هضبة..

فأقبل القوم فأحاطوا بهم.. وحاولوا الصعود إليهم.. فلم يقدروا.. فقالوا للصحابة: لكم العهد والميثاق.. إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً..

فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر.. ثم رفع بصره إلىٰ السماء وقال: اللهم أخبر عنا رسولك ﷺ.. فثار الهذليون.. وقاتلوا الصحابة وجعلوا

يرمونهم بالنبل.. حتىٰ قتلوا عاصمًا وأصحابه.. وبقي خبيب بن عدي.. وزيد بن الدثنة.. وعبد الله بن طارق.. فناداهم القوم.. وأعطوهم العهد والميثاق.. فاستسلموا لهم..

فنزل الصحابة إليهم.. فلما استمكنوا منهم.. حلوا أوتار قسيهم.. فربطوهم بها..

فقال عبد الله بن طارق: هذا أول الغدر.. وأطلق يده من الرباط.. وأخذ سيفه.. وتأخر عنهم.. ورفع السيف.. وكان شجاعًا قويًّا.. فلم يجرءوا علىٰ الاقتراب منه.. فأخذوا يرمونه بالحجارة.. حتىٰ مات ﷺ.. وانطلقوا بخبيب.. وزيد.. حتىٰ باعوهما بمكة..

فاشترىٰ خبيبًا بنو الحارث بن عامر.. وكان خبيب قد قتل الحارث في معركة بدر.. وأما زيد.. فابتاعه صفوان بن أمية.. ليقتله عوضًا عن أبيه الذي قتله المسلمون في معركة بدر.. ودفعه صفوان إلىٰ عبد له اسمه نسطاس.. ليقتله..

خرج به نسطاس من مكة ليقتله.. واجتمعت قريش.. لتراه.. فيهم أبو سفيان بن حرب.. فقال له أبو سفيان - حين رأىٰ زيدًا مربوطًا ليقتل -: أنشدك بالله يا زيد: أتحب أن محمدًا الآن عندنا.. مكانك نضرب عنقه.. وأنك في أهلك؟

فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه.. تصيبه شوكة تؤذيه.. وإني جالس في أهلي..

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا.. كحب أصحاب محمد محمدًا ﷺ.. ثم قتله نسطاس.. فرضي الله عن زيد..

وأما خبيب بن عدي.. فحبسوه أيامًا.. فرأوا منه عجبًا!!

قالت ماوية وهي جارية عندهم: حبسوا خبيبًا في بيتي.. فلقد اطلعت عليه يومًا.. وإن في يده عنقودًا من عنب كبير مثل رأس الرجل.. يأكل منه..!! وما أعلم في وقته في أرض الله عنبًا يؤكل..

وقال لي حين أجمعوا علىٰ قتله: ابعثي إلي بحديدة - سكين أو موسىٰ - أتطهر بها قبل القتل.. أراد أن يزيل بها بعض الشعر من جسده..

قالت: فناولت غلامًا لي سكينًا حادة.. فقلت له: ادخل بها علىٰ هذا الرجل البيت فأعطه إياها..

فلما ذهب الغلام.. ندمت وقلت: ماذا صنعت!! أصاب والله الرجل ثأره.. يقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل.. فلما ناوله السكين.. أخذها من يده.. ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إلي.. ثم خلىٰ سبيله..

ثم خرجوا بخبيب ليصلبوه.. فلما عاين الموت.. قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتىٰ أركع ركعتين..

قالوا: دونك فاركع.. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما.. ثم أقبل علىٰ القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة..

فكان خبيب رضي الله عنه أول من سن للمسلمين هاتين الركعتين عند القتل..

ثم رفعوه علىٰ خشبة.. فلما أوثقوه.. رفع بصره إلىٰ السماء وقال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك.. فبلغه الغداة ما يصنع بنا.. ثم دعا عليهم فقال: «اللهم أحصهم عددًا.. واقتلهم بددًا.. ولا تغادر منهم أحدًا». ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... علىٰ أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك علىٰ أوصال شلو ممزع

ثم قتلوه.. هذا ما حدث في مكة..

وعلىٰ بعد أكثر من أربعمائة ميل.. في المدينة.. وفي اللحظة نفسها التي استشهد فيها خبيب.. كان التأثر باديًا علىٰ رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه.. وهو يهم أن يخبرهم بخبر إخوانهم الذين أرسلهم دعاة.. فإذا هم شهداء..

فقال ﷺ: «وعليك السلام خبيب.. وعليك السلام»، ثم قال: «خبيب.. قتلته قريش».

عجب الله من صنيعكما!

جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ.. فقال: إني مجهود..

كان الجوع ظاهرًا علىٰ محيا الرجل.. فأرسل النبي ﷺ إلىٰ بعض نسائه يسألها إن كان عندها طعام.. فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء.. ثم أرسل ﷺ إلىٰ زوجته الأخرىٰ.. يسألها.. هل يوجد عندها شيء؟ أي شيء.. خبز.. تمر.. لبن.. فقالت مثل ما قالت الأولىٰ: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء..

فأرسل إلىٰ الأخرىٰ.. والأخرىٰ.. حتىٰ قلن كلهن مثل ذلك: ما عندهن إلا ماء.. فالتفت ﷺ إلىٰ أصحابه.. فقال: «من يضيف هذا الليلة، رحمه الله».

كان أكثر الصحابة حالهم كحاله ﷺ.. إن وجدوا غداء لم يجدوا عشاء.. وإن وجدوا عشاء لم يجدوا فطورًا.. فسكت الصحابة.. والرجل ينتظر ضيافته.. فهو ضيف نبيهم عليه الصلاة والسلام..

فقام رجل من الأنصار.. فقال: أنا يا رسول الله.. ثم انطلق الأنصاري بالرجل إلىٰ بيته.. دخلا.. فقال لامرأته: هل عندك شيء؟

قالت: لا.. إلا قوت صبياني.. ليس في البيت إلا عشاء الصبيان تلك الليلة.. ولعله وجبتهم الوحيدة ذلك اليوم.. وهو مع ذلك قليل..

كان الموقف عصيبًا.. لكنه موقف رجولي في الوقت نفسه..

فقال الرجل: علليهم بشيء.. أي: اشغليهم حتىٰ يناموا.. من غير عشاء.. فإذا جلس ضيفنا علىٰ الطعام.. فقومي إلىٰ السراج كأنك تصلحينه.. فأطفئيه وأريه أنا نأكل معه..

وهكذا كان.. قعدوا مع الضيف في الظلام.. الرجل وامرأته يمضغان ألسنتهما.. والضيف يأكل الطعام..

وانتهت الوليمة.. وخرج ضيف رسول الله ﷺ ريان شبعان.. فلما أصبح الرجل الأنصاري.. غدا على النبي ﷺ.. فلما رآه ﷺ قال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة».. وإذا خبر السماء قد كشف له الحال..

أو لننزعن الثياب!!

حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.. من خيار المهاجرين.. ترك أهله.. وماله.. وولده.. في مكة.. وخرج مهاجرًا في سبيل الله..

كان من خيار المجاهدين.. بل ممن جاهد في أول لقاء بين الإسلام والكفر.. في معركة بدر..

كان كثير التفكير في ولده وأهله الذين في مكة.. بين ظهراني المشركين.. لا حامي لهم من الناس.. ولا نصير.. ولم يكن حاطب من قبيلة قريش نفسها.. بل كان حليفًا لهم.. ساكنًا في ديارهم.. وليس منهم..

أما بقية المهاجرين ممن تركوا أهليهم وأولادهم في مكة.. فلهم أقارب يحمون أهليهم.. ويدافعون عنهم..

فكان حاطب يفكر دائمًا في طريقة أو خدمة يقدمها لقريش.. ليكتسب عندهم مكانة.. فلا يتعرضون لأهله وولده..

مرت السنون.. وكتب النبي عليه الصلاة والسلام عهد صلح الحديبية مع قريش.. فلم تلبث قريش أن نقضت العهد.. فعزم ﷺ على فتح مكة.. فأمر المسلمين بالتجهز لغزوهم.. وكان ﷺ حريصًا على ألا تعلم قريش بخبره.. حتى لا تستعد فتقع مقتلة عظيمة بين الجيشين.. فدعا ﷺ ربه فقال: «اللهم عم عليهم خبرنا».

ومضت أيام يسيرة.. والخبر مكتوم.. فشعر حاطب أنها الفرصة..

لاكتساب معروف علىٰ قريش.. فكتب كتابًا إلىٰ قريش يخبرهم فيه بغزو النبي ﷺ لهم.. وناوله لامرأة قرشية كانت في المدينة.. وأمرها أن تذهب به لأهل مكة.. فما كادت المرأة تفارق المدينة.. حتىٰ أطلع الله رسوله ﷺ علىٰ الخبر..

كان لا بد من تدارك أمر الكتاب قبل أن يصل إلىٰ قريش.. فبعث ﷺ في إثر المرأة عليًّا والزبير والمقداد.. ثلاثة أسود.. وأخبرهم عن الموقع الذي وصلت إليه المرأة تحديدًا..

فقال: «انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة - امرأة علىٰ بعير - معها كتاب».

مضى الأبطال الثلاثة حتى وقفوا على المرأة.. فقالوا: أخرجي الكتاب الذي معك..

قالت: ما معي كتاب.. ففتشوا رحلها.. وجميع ما معها.. فلم يجدوا شيئًا..

فقال علي: والله.. ما كذبنا.. ولا كذبنا.. والله لتخرجن الكتاب.. أو لتلقين الثياب.. وقد علم علي أنها تخبئ الكتاب في موضع تظن أنهم لن يفتشوه.. فلما رأت المرأة أنه حازم.. علمت أنه لا مفر من الاعتراف..

فقالت: تأخروا عني.. فتأخروا.. فحلت المرأة خمارها عن رأسها.. وأخرجت الرسالة من عقاصها.. من بين ظفائر شعرها.. فأخذ الصحابة الكتاب.. فأتوا به رسول الله ﷺ..

فتح النبي ﷺ الكتاب.. فإذا فيه.. من حاطب بن أبي بلتعة.. إلىٰ أناس من المشركين بمكة.. يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ.. كان حاطب حاضرًا في المجلس.. والكتاب يقرأ علىٰ النبي ﷺ.. والصحابة يسمعون.. عجبًا!! حاطب يخبر الكفار بغزو النبي ﷺ لهم!!

أول مرة يقع ذلك بين المسلمين.. التفت ﷺ.. إلىٰ حاطب فقال: «يا حاطب، ما هذا؟!».

توجهت الأنظار إلىٰ حاطب.. كادت الأعين تأكله.. فقال حاطب: يا رسول.. لا تعجل علي.. إني كنت امرأ ملصقًا في قريش.. ولم أكن من أنفسهم..

وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة.. فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي.. يا رسول الله.. والله ما فعلت ذلك كفرًا.. ولا ارتدادًا عن ديني.. ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.. ثم سكت حاطب.. وسكت رسول الله ﷺ.. والناس مطرقون كأن علىٰ رءوسهم الطير.. فحسم النبي ﷺ الموقف.. بكلمتين.. قال: «إنه صدقكم».

لم يتحمل عمر رضي الله عنه الموقف.. فقال: يا رسول الله.. دعني أضرب عنق هذا المنافق..

فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع إلىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فأنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١].

فمن أخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب..؟ ومن دله علىٰ الموضع الذي وصلت إليه المرأة تحديدًا؟! إنه العليم الخبير.. تأييدًا وإعجازًا..

غزاة البحر إلى قبرص

كان رسول الله ﷺ يدخل علىٰ عمته أم حرام بنت ملحان.. فيزورها ويطعم عندها.. وكان زوجها عبادة بن الصامت.. يفرح بلقاء النبي ﷺ.. دخل عليها ﷺ يومًا فأكل عندها طعامًا.. ثم اضطجع ﷺ في بيتها فغلبته عينه.. ونام.. ثم استيقظ وهو يضحك..

قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟

فقال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون البحر، ملوكًا

علىٰ الأسرة، أو مثل الملوك علىٰ الأسرة».

ملوك علىٰ الأسرة!! اشتاقت أم حرام أن تكون من هؤلاء.. فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم.. فدعا لها ﷺ أن تكون منهم.. ثم وضع رأسه فنام.. ثم استيقظ وهو يضحك..

قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله..». كما قال في الأولىٰ.

فقالت أم حرام: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم..

فقال ﷺ: «أنت من الأولين».

ومضت السنون.. وتوفي النبي عليه الصلاة والسلام.. وتولىٰ من بعده الخلفاء الأربعة الراشدون.. ثم لما كان عهد معاوية ﵁.. ركبت أم حرام بنت ملحان ﵂ البحر.. فلما خرجت من السفينة وركبت دابتها.. صرعت عن دابتها فماتت ﵂.

انشقاق القمر

دعا النبي ﷺ الكفار بكل سبيل.. وهم يكذبون ويبحثون عن حجج وأعذار.. حتىٰ قالوا له يومًا: شق لنا القمر..!! فدعا النبي ﷺ ربه.. ودعا.. وفجأة.. انشق القمر نصفين!!

قال ابن مسعود ﵁: رأيت القمر منشقًا شقتين بمكة.. قبل مخرج النبي ﷺ منها.. شقة علىٰ جبل أبي قبيس.. وشقة علىٰ السويداء..

رأىٰ الكفار ذلك.. فشدهت أبصارهم.. لكن غلبهم شيطانهم وقالوا: هذا سحر سحركم به.. ثم لأجل أن يخرجوا من حرج الموقف.. قالوا: انظروا المسافرين القادمين.. فإن كانوا وهم في ديارهم رأوا مثل ما رأيتم.. فقد صدق.. وإن لم يكونوا رأوا مثل ما رأيتم.. فهو سحر.. فإنه لا يستطيع أن

يسحر الناس كلهم..

فلما وصل أول المسافرين إلىٰ مكة.. سألتهم قريش: هل رأيتم القمر منشقًا..

قالوا: نعم.. ليلة كذا وكذا.. ثم وصل بقية المسافرين.. وكلهم يجيبون الجواب نفسه..

فكذبت قريش واستكبرت وقالت: هذا قد سحر الناس كلهم..

وأنزل الله تعالى خبر هذه المعجزة في كتابه.. فقال تعالىٰ: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر:١-٧].

والعجب أن الأبحاث العلمية المنشورة اليوم.. المتخصصة في دراسات حول القمر.. أثبتت وجود شق يقطع القمر نصفين.. وكأنه أصابه فيما مضىٰ انشقاق..

أشار للسماء فأطاعته

- ومن تأثيره ﷺ.. أنه أشار إلىٰ السماء فأطاعته بإذن الله.. ففي فترة من عهد النبوة المبارك.. تقلص المطر.. وأجدبت الأرض.. وماتت الزورع.. فبينما هو ﷺ يخطب الناس علىٰ منبره يوم الجمعة.. إذ دخل رجل المسجد.. ورسول الله ﷺ قائم يخطب.. فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا.. ولم ينتظر.. بل قطع الخطبة.. وصاح بأعلىٰ صوته..

قال: يا رسول الله.. هلكت الأموال.. وانقطعت السبل.. فادع الله يغيثنا..

كان الرجل يتكلم من حرقة أصابته.. وهو يرىٰ أولاده جوعىٰ.. وأغنامه هلكىٰ.. السبل تقطعت.. والأرض أجدبت.. والأموال نفدت..

كان رسول الله ﷺ يعيش هموم أصحابه.. فلم يتأخر.. وإنما رفع يديه إلىٰ السماء.. ودعا.. وتضرع والتجأ.. وقال: «اللهم اسقنا.. اللهم اسقنا.. اللهم اسقنا».

كان أنس رضي الله عنه حاضرًا بين المصلين.. فلما رأىٰ النبي ﷺ يبتهل ويستسقي.. رفع بصره ينظر إلىٰ السماء..

قال أنس: فلا والله.. ما نرىٰ في السماء من سحاب ولا من قزعة.. وإن السماء لمثل الزجاجة.. وما بيننا وبين سلع من دار.. فوالذي نفسي بيده.. ما وضع يديه حتىٰ ثار السحاب أمثال الجبال.. ثم لم ينزل رسول الله ﷺ عن منبره.. حتىٰ رأيت المطر يتحادر عن لحيته..!!

وأمطرت السماء.. سبعة أيام متواصلة.. حتىٰ رويت الأرض.. وشبعت الأنعام..

وفي الجمعة الأخرىٰ.. قام ﷺ يخطب الناس علىٰ منبره المبارك.. وفجأة فإذا الرجل نفسه.. أو غيره.. يدخل من ذلك الباب نفسه.. ورسول الله ﷺ قائم يخطب.. فاستقبله قائمًا.. فقال: يا رسول الله.. هلكت الأموال.. وانقطعت السبل.. فادع الله يمسكها عنا..

فرفع رسول الله ﷺ يديه.. ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا.. اللهم علىٰ الآكام.. والظراب.. وبطون الأودية.. ومنابت الشجر». ثم جعل ﷺ يشير بيده إلىٰ نواحي السحاب في السماء.

قال أنس: فما يشير ﷺ بيده إلىٰ ناحية إلا تفرجت.. حتىٰ رأيت المدينة في مثل الجوبة.. أي صارت المياه حولها.. وهي كالجزيرة.. وسال وادي قناة شهرًا.. ولم يجئ أحد من ناحية.. إلا أخبر بجود ومطر.. أي كل من وصل إلىٰ المدينة من سفر أخبرهم بكثرة الأمطار حولها.. وهذا من بركة دعائه ﷺ: «حوالينا ولا علينا».

ولا شك أن تأثيره ﷺ في السحاب.. هو من القدرة التي مكن الله تعالىٰ نبيه ﷺ منها.. وتصرفه ﷺ فيما حوله.. هو بإذن الله ومشيئته.. كما كان عيسىٰ ﷺ.. يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ بإذن الله..

وإلا فلو شاء الله تعالىٰ لما مكن أحدًا من البشر لا نبيًّا ولا غيره من فعل هذه الأشياء.. ولكنه ﷻ يمكنهم منها.. لحكمة يريدها..

استجابة جمل

كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه.. أي: يستخرجون عليه الماء من البئر..

وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره.. وهاج عليهم.. فلم يستطيعوا استعماله.. ولا الركوب عليه.. فتعطلت منافعهم.. والناس فقراء لا يقدرون علىٰ شراء غيره..

فجاء أصحابه إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسي عليه.. وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره.. وقد عطش الزرع والنخل..

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا».

فقاموا يمشون معه.. فمضىٰ حتىٰ دخل البستان.. فإذا الجمل في ناحية منه.. فمشىٰ النبي ﷺ نحوه.. فخاف الأنصار أن يؤذي الجمل رسول الله ﷺ.. فقالوا: يا نبي الله، إنه قد صار مثل الكلب الكَلِب.. أي: مثل الكلب الهائج الثائر.. وإنا نخاف عليك صولته..

فقال ﷺ: «ليس علي منه بأس..». ومضىٰ يمشي إليه..

فلما نظر الجمل إلىٰ رسول الله ﷺ.. أقبل يمشي نحو النبي عليه الصلاة والسلام.. حتىٰ خر ساجدًا بين يديه..

فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته.. أي: بأعلىٰ رأسه.. والجمل بين يديه ذليل

هادئ منساق بين يديه.. حتىٰ أدخله في عمله.. وخطمه ﷺ وربطه..

فعجب الصحابة وقالوا: يا رسول الله.. هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك..!! ونحن نعقل.. فنحن أحق أن نسجد لك..

فقال ﷺ: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشرٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها».

وأخيرًا:

هذا التحكم في الحيوان هو بإذن الله تعالىٰ.. ومحكوم بإرادة الله ومشيئته.. وإلا فقد يريد النبي ﷺ من الحيوان شيئًا ولا يكون..

كما حدث لما أقبل ﷺ راكبًا ناقته القصواء معتمرًا.. قبل فتح مكة.. وفجأة بركت به ناقته ﷺ.. فأرادها علىٰ المشي.. فأبت عليه..

فقال الناس: خلأت القصواء.. أي: عصت..

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما خلأت القصواء، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة». يعني: أصحاب الفيل.. أبرهة وأصحابه..

ثم قال ﷺ: «لا تدعوني قريش اليوم إلىٰ خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». ثم حصل بينه ﷺ وبين قريش صلح الحديبية المشهور.. ورجع عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة.

مسحة مباركة

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق.. زعيمًا من زعماء اليهود.. وكان كثير الأذىٰ لرسول الله ﷺ.. وكان يحرض مشركي مكة علىٰ قتال النبي ﷺ.. وكان في حصن له بعيد عن المدينة بالقرب من خيبر.. فبعث رسول الله ﷺ إلىٰ أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار.. وهم من الخزرج.. فأمر عليهم عبد الله بن عتيك..

وكان أبو رافع اليهودي يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه.. وكان ممن أعان قبيلة غطفان.. وأعان أيضًا مشركي العرب بالمال الكثير علىٰ رسول الله ﷺ..

ويقول لهم: أنا أتكفل بهذا كله لكم.. ويذهب إلىٰ مشركي مكة ويقول لهم: تعالوا إلىٰ محمد.. إنكم أولو بأس وقوة.. ثم تتركون هذا الرجل..

وكان هذا اليهودي له اليد الطولىٰ في جمع الأحزاب في غزوة الخندق.. فهو الذي جمع كل المشركين.. وجاء بهم صوب النبي ﷺ.. يتمنىٰ هزيمتهم والقضاء علىٰ المسلمين.. وهو الذي أغرىٰ يهود بني قريظة بأن يخونوا المواثيق والعهود مع النبي ﷺ..

هذا هو أبو رافع وهذه بعض إنجازاته..

عندها شكلت فرقة بقيادة عبد الله بن عتيك.. ومعه عبد الله بن عتبة.. وعبد الله بن أنيس.. وانطلقوا من المدينة قبل غروب الشمس..

وكان أبو رافع في حصن له بأرض الحجاز بالقرب من خيبر.. فلما دنوا منه وقد غربت الشمس..

كان الحصن الذي يسكنه أبو رافع.. منيعًا.. له باب يفتح في الصباح فيخرج المزارعون ورعاة الغنم.. ثم يقفل.. ويفتح عند غروب الشمس ليدخلوا..

فقال عبد الله بن عتيك لأصحابه ﷺ: اجلسوا مكانكم.. فإني منطلق ومتلطف للبواب.. لعلي أن أدخل..

فأقبل عبد الله حتىٰ دنا من الباب.. فإذا البواب دقيق حريص.. لا يدخل أحد إلا نظر إليه وعرف من هو..

جعل عبد الله بن عتيك يرقب الباب ليدخل..

فأقبل الناس عند غروب الشمس.. بمواشيهم ودوابهم وأدخلوها إلىٰ الحصن وعادوا من الرعي.. وهاهنا فقد بعض اليهود من أهل الحصن حمارًا لهم.. فخرجوا بشعلة نار يبحثون عنه.. وهذا بعد غروب الشمس.. جعلوا

يطلبون ذلك الحمار..

وكان عبد الله قريبًا من الحصن.. قال: فخشي أن يعرف.. فغطىٰ رأسه كأنه يقضي حاجة..

ووجد اليهود حمارهم فعادوا إلىٰ حصنهم.. ثم نادىٰ البواب: من أراد أن يدخل فليدخل..

ثم هتف البواب بعبد الله يحسبه منهم: إن كنت تريد أن تدخل فادخل.. فإني أريد أن أغلق الباب..

فقام عبد الله.. ودخل حصن اليهود.. ثم نظر في الداخل.. يريد مكانًا آمنًا له يختبئ فيه.. فوجد مربط حمارٍ عند باب الحصن.. فاختبأ فيه..

ولما دخل الناس لحظ عبد الله.. أين سيضع البواب المفاتيح التي للحصن.. فخبأ البواب مفاتيحه.. فلبث في مخبئه قليلاً.. حتىٰ هدأ الناس.. وأطفئوا السرج.. فقام فأخذ المفاتيح.. وفتح أبواب الحصن من الداخل.. وتركها مفتوحة شيئًا يسيرًا..

وكانت ليلة مقمرة.. ثم مر علىٰ أبواب بيوت الناس من الخارج التي داخل الحصن.. وجعل يغلقها عليهم من الخارج..

حتىٰ وصل إلىٰ بيت أبي رافع.. وكان بيته في مكان مرتفع لا يوصل إليه إلا بسلم ودرج.. فسمع عبد الله صوت أبي رافع.. وكان يسمر مع عدد من أصحابه.. يخططون ويمكرون.. فجلس عبد الله في مكان لا يرونه ينتظر..

فتحدث أصحابه معه حتىٰ انقضىٰ أكثر الليل.. ثم خرجوا فرجعوا إلىٰ بيوتهم..

فلما رأىٰ عبد الله ذلك صعد إليه.. وجعل يفتح الأبواب ماضيًا إلىٰ غرفة أبي رافع بحذر.. وصار كلما فتح بابًا أغلقه من الداخل.. حتىٰ لو علم به الحراس يتأخر وصولهم إليه..

صعد عبد الله السلم.. فلما جاء عند باب دار أبي رافع.. فتح الباب.. فدخل فوجد الغرفة مظلمة.. وقد طفئ السراج..

وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر.. كما ذكر المؤرخون.. فلم يدر أين الرجل؟! بصر ضعيف.. وظلمة شديدة!!

فنادى قائلاً: أبا رافع..

فتنبه أبو رافع للصوت.. وقال: من هذا؟

فانطلق عبد الله نحو الصوت.. وضرب أبا رافع ضربة بالسيف.. فدهش أبو رافع.. لكن السيف لم يصب الهدف تمامًا.. فلم يمت.. فصاح أبو رافع.. وفشلت المحاولة.. فخرج عبد الله مسرعًا.. فلما جاوز الباب.. سمع صوت أبي رافع يئن.. لم يمت!!

فرجع إليه مرة أخرى.. ودخل عليه كأنه أحد الحراس.. فإذا الغرفة مظلمة..

فغير عبد الله صوته وقال: ما لك يا أبا رافع؟

فجعل أبو رافع يصيح مستغيثًا: إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف..

فانطلق عبد الله إليه وأهوى عليه بالسيف.. بضربة أخرى أثخنته.. ولكنها لم تقتله أيضًا.. عندها صاح أبو رافع.. وخرج عبد الله مسرعًا نحو الباب..

وبدأت الحركة في البيت.. والحراس يستيقظون.. وأبو رافع يئن.. فرجع إليه عبد الله.. وتكلم مغيرًا صوته.. ما لك يا أبا رافع؟

فتوجه عبد الله إليه.. ووضع السيف في بطنه.. ثم اتكأ عليه.. حتى خرج من ظهره..

قال عبد الله: فسمعت صوت عظام ظهره.. فعرفت أني قتلته..

توجه عبد الله نحو الباب يبحث عنه في الظلام.. وقد ثار الحراس.. واضطرب الناس.. وجد الباب.. فخرج مسرعًا وجعل يفتح الأبواب.. بابًا

بابًا.. حتىٰ أتىٰ السلم.. وجعل ينزل مسرعًا.. فظن أن السلم انتهىٰ.. فقفز.. فوقع علىٰ الأرض.. فانكسرت ساقه.. فحل عمامته.. فربط بها ساقه.. ومضىٰ يقفز علىٰ رجل واحدة.. نحو باب الحصن.. خرج عبد الله من الحصن وهو يعرج.. وصل إلىٰ أصحابه وهم ينتظرون..

وقال لهم: انطلقوا.. فبشروا رسول الله ﷺ.. أما أنا.. فإني لا أبرح مكاني هذا.. حتىٰ أسمع ناعيه..

وكانوا في الجاهلية إذا مات فيهم الرجل الشريف في قومه.. قام رجل في الصبح علىٰ شرفة بيت مرتفع.. ونادىٰ في الناس يخبرهم.. وينشد فيه الأشعار..

فأراد عبد الله أن يتأكد تمامًا أن الرجل مات..

فمضىٰ أصحاب عبد الله.. وتركوا عنده دابة.. فلما كان الصبح.. صعد الناعي علىٰ السور.. وعبد الله بن عتيك ينظر إليه من خارج الحصن..

فقال الناعي: أيها الناس.. أنعى إليكم أبا رافع تاجر أهل الحجاز..

ففرح عبد الله.. وانطلق وراء أصحابه.. فأدركهم قبل أن يأتوا رسول الله ﷺ.. فلما وصل إلىٰ النبي ﷺ.. صاح قائلاً: النجاء.. النجاء.. فقد قتل الله أبا رافع..

كانت ساق عبد الله مكسورة.. يمشي أعرج.. فلما رأىٰ النبي عليه الصلاة والسلام ساقه المكسورة.. قال له: «ابسط رجلك».

فبسطها.. فمسح النبي ﷺ عليها بيده.. والناس ينظرون.. فما كادت يد رسول الله ﷺ تفارق رجل عبد الله. حتىٰ قام ليس بها بأس أبدًا.. فهذا من آيات نبوته ﷺ..

شفاء عيني علي

خرج ﷺ مع أصحابه إلىٰ غزوة خيبر.. وطالت محاصرتهم لحصون خيبر.. ولم يتيسر فتحها لهم.. فقال ﷺ لأصحابه: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يفتح الله علىٰ يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

فبات الناس طوال ليلهم.. يتفكرون.. ويتحدثون.. فيمن سينال هذا الشرف.. وكان كلهم يرجو أن يعطاها..

فلما أصبح الناس غدوا علىٰ النبي ﷺ.. كلهم يتمنىٰ أن يعطىٰ الراية..

فقال ﷺ: «أين علي بن أبي طالب؟».

قالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه.. وكان في عيني علي رضي الله عنه رمد شديد.. حتىٰ غطىٰ علىٰ بصره تمامًا فلا يرىٰ شيئًا.. فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إليه..

فجاء علي رضي الله عنه يقودونه بيده.. حتىٰ جلس بين يدي النبي ﷺ.. ففتح النبي ﷺ عينيه.. فبصق فيهما.. ودعا له.. فبرأ من لحظته.. حتىٰ كأن لم يكن به وجع..

فأعطاه ﷺ الراية..

فقال علي: يا رسول الله.. أقاتلهم حتىٰ يكونوا مثلنا؟

قال ﷺ: «انفذ علىٰ رسلك.. حتىٰ تنزل بساحتهم.. ثم ادعهم إلىٰ الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه.. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا.. خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

يفهم الجذع.. ويواسيه!!

كان الناس في القديم.. يعتمدون في بناء بيوتهم.. علىٰ جذوع النخل.. والطين والحجارة..

وكان مسجد النبي ﷺ عبارة عن سوارٍ وأعمدة من جذوع النخل.. فوقها عريش من عسيب النخل..

فكان النبي ﷺ يقوم يوم الجمعة يخطب الناس قائمًا.. فإذا تعب أسند ظهره إلىٰ جذع نخلة منصوب في المسجد..

فقالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله.. إن لي غلامًا نجارًا.. ألا آمره فيصنع لك منبرًا؟

قال ﷺ: «إن شئت».

فأمرت المرأة غلامها.. فصنع منبرًا.. وجاء به ووضعه في المسجد..

فلما كان يوم الجمعة.. أقبل النبي ﷺ إلىٰ المنبر.. فصعده.. ثم سلم على الناس.. وقعد.. وشرع بلال في الأذان..

في هذه الأثناء: سمع الصحابة صوت بكاء.. وأنين.. ثم سمعوا صوت خوار كخوار الثور.. فإذا الصوت من جذع النخلة يبكي.. وجعلت النخلة تصيح.. حتىٰ كادت أن تنشق..

وارتج المسجد.. فنزل النبي ﷺ من علىٰ منبره.. وتوجه نحو جذع النخلة.. فضمه إليه ﷺ.. فجعلت النخلة تئن.. وتئن.. كأنين الصبي الذي يسكت حتىٰ استقرت..

فالتفت ﷺ إلىٰ أصحابه.. وقال: «بكىٰ.. لما فقد من الذكر.. أما والذي نفس محمد بيده.. لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلىٰ يوم القيامة».

النخلة تمشي إليه..

كان رسول الله ﷺ مع أصحابه في سفر.. فرأىٰ أعرابيًا في طريقهم.. فلما دنا الأعرابي من النبي ﷺ وأصحابه..

رآه النبي ﷺ.. وكان عليه الصلاة والسلام حريصًا علىٰ دعوة الناس في كل

زمان ومكان.. فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: «أين تريد؟».

قال: إلىٰ أهلي..

قال: «هل لك في خير؟».

قال: وما هو؟

قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. وأن محمدًا عبده ورسوله».

قال الأعرابي: ومن يشهد علىٰ ما تقول؟

فالتفت ﷺ إلىٰ نخلة في طرف الوادي.. وقال: «هذه السلمة». أي: النخلة..

ثم نظر النبي ﷺ إلىٰ النخلة.. ودعاها.. فأقبلت تخد الأرض خدًّا وتشق التراب.. حتىٰ قامت بين يديه.. فاستشهدها ثلاثًا علىٰ أنه نبي.. فشهدت النخلة ثلاثًا أنه كما قال.. ثم رجعت إلىٰ منبتها..

وسكت النبي ﷺ ينتظر القرار الأخير من هذا الأعرابي.. هل يدخل في الإسلام.. أم لا؟ فإذا بالأعرابي يعرف الحق.. ويتحمس.. فيلتفت راجعًا إلىٰ قومه.. وهو يقول لرسول الله ﷺ: إن اتبعوني أتيتك بهم.. وإلا رجعت فكنت معك..

انقياد شجرتين له ﷺ

في قصة جابر الطويلة في حكاية حج النبي ﷺ..

قال: سرنا مع رسول الله ﷺ.. حتىٰ نزلنا واديًا أفيح.. فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته.. فاتبعته بإداوة من ماءٍ..

فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستتر به.. فإذا شجرتان بشاطئ الوادي.. فانطلق رسول الله ﷺ إلىٰ إحداهما.. فأخذ بغصن من أغصانها..

فقال: «انقادي علي بإذن الله».. فانقادت معه كالبعير المخشوش.. الذي

يصانع قائده..

والبعير المخشوش هو الذي يجعلون في أنفه عودًا ويربطونه بحبل.. فإذا تمانع عن المشي شدوا الحبل فآلمه.. فانقاد شيئًا فشيئًا.. فهو يصانع قائده..

قاد ﷺ الشجرة حتىٰ أتىٰ بها إلىٰ الشجرة الأخرىٰ.. فأخذ بغصن من أغصانها.. فقال: «انقادي علي بإذن الله».. فانقادت معه كذلك.. حتىٰ إذا كان بالمنصف مما بينهما.. لأم ﷺ بينهما - يعني جمعهما -.. وقال: «التئما علي بإذن الله».. فالتأمتا..

قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد..

فجلست أحدث نفسي.. فحانت مني لفتة.. فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً.. وإذا الشجرتان قد افترقتا.. فقامت كل واحدة منهما علىٰ ساقٍ - أي: كما كانت..

ماء المزادتين

سافر رسول الله ﷺ مع أصحابه.. في يوم شديد الحر.. فأطالوا المسير.. ولم يكن في طريقهم ماء ولا بئر.. فاشتكىٰ الناس العطش إلىٰ رسول الله ﷺ..

فكان لا بد أن يجد لهم حلاً..

فنزل ﷺ فدعا رجلاً من أصحابه ودعا عليًّا.. فقال: «اذهبا فابتغيا الماء..».

ذهب علي ﵁ وصاحبه يبحثان عن الماء..

فبينما هما كذلك.. إذ لقيا امرأة بين مزادتين.. أو سطيحتين - قربتين - من ماءٍ علىٰ بعير لها.. فقالا لها: أين الماء؟

قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة.. ونفرنا خلوف..

يعني: الماء بعيد بينكم وبينه مسيرة يوم وليلة..

قالا لها: انطلقي إذًا..

قالت: إلىٰ أين؟

قالا: إلىٰ رسول الله ﷺ..

قالت: الذي يقال له الصابي؟

وكان المشركون يعيرون النبي ﷺ بهذا الاسم.. الصابئ - أي: المغير دينه..

فلم يطل الصحابيان معها الكلام.. بل قالا: هو الذي تعنين.. فانطلقي..

مضت المرأة معهم علىٰ بعيرها.. فجاءا بها إلىٰ النبي ﷺ.. فسألها عن الماء.. فذكرت أنه بعيد.. وذكرت له أنها ضعيفة وأم أيتام..

فتناول النبي عليه الصلاة والسلام قربتي الماء.. ومسح عليهما بيديه.. ثم دعا بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين.. ثم نودي في الناس: «اسقو واستقوا..».

فجعل الناس يأتون بآنيتهم.. فمنهم من يشرب.. ومنهم من يملأ قربته.. ومنهم من يصب في إنائه.. فسقىٰ من شاء واستقىٰ من شاء..

والمرأة قائمة تنظر إلىٰ ما يفعل بمائها.. حتىٰ روىٰ الصحابة وعبئوا آنيتهم.. وإن قربتيها لم يتغير حجمهما.. ولا كثرت ماؤهما..

فأراد ﷺ أن يحسن إلىٰ المرأة.. مع أنه لم ينقص من مائها شيئًا.. فقال لأصحابه: «اجمعوا لها».

فجمعوا لها من بين تمر عجوةٍ ودقيق كسر خبز.. حتىٰ جمعوا لها طعامًا فجعلوه في ثوبٍ.. وحملوها علىٰ بعيرها.. ووضعوا الثوب بين يديها..

ثم قال ﷺ: «تعلمين.. ما رزئنا من مائك شيئًا.. - أي: ما أنقصنا منه شيئًا - ولكن الله هو الذي أسقانا».. مضت المرأة إلىٰ أهلها.. وقد تأخرت عليهم..

فقالوا: ما حبسك يا فلانة؟

قالت: العجب.. لقيني رجلان فذهبا بي إلىٰ هذا الذي يقال له الصابئ، ففعل كذا وكذا.. فوالله إنه لأسحر الناسِ من بين هذه وهذه.. وأشارت إلىٰ السماء والأرض.. أو إنه لرسول الله حقًا.. ثم قيل: إن المرأة أسلمت بعد ذلك.. وأسلم قومها.

ميضأة أبي قتادة

سار النبي ﷺ مع أصحابه في سفر.. وقل معهم الماء.. فخطبهم النبي ﷺ.. فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم.. وتأتون الماء إن شاء الله غدًا».

فانطلق الناس.. وطال سيرهم.. فاشتد بهم العطش.. ولم يجدوا ما يتوضئون..

فدعا النبي ﷺ بميضأة كانت مع أبي قتادة.. وهي قربة ماء صغيرة.. فأتاه أبو قتادة بها.. وكان فيها شيء قليل من ماء.. فتوضأ منها ﷺ وضوءًا يسيرًا.. وبقي فيها شيء من ماء.. ثم قال ﷺ لأبي قتادة: «احفظ علينا ميضأتك.. فسيكون لها نبأ!!».

ثم مضوا في سيرهم.. فطلع النهار.. وحمي كل شيء.. والناس يقولون: يا رسول الله.. هلكنا.. عطشنا..

فقال ﷺ: «لا هلك عليكم».

ثم قال: «أطلقوا لي غمري». أي أحضروا إناء وضوئي.. ثم دعا ﷺ بميضأة أبي قتادة..

فأحضرها أبو قتادة.. قربة صغيرة بين يديه.. فيها بقية ماء يسير.. فأخذها ﷺ.. وحل سقاءها.. وقلبها وأخذ يصب منها.. فلما رأى الناس الماء.. تكابوا عليه.. وازدحموا..

فقال ﷺ: «أحسنوا الملء.. كلكم سيروى».

ثم جعل رسول الله ﷺ يصب في الإناء.. ويسقيهم أبو قتادة.. حتى رووا وملئوا آنيتهم..

فما بقي غير أبي قتادة.. وغير رسول الله ﷺ.. ثم صب رسول الله ماء.. فقال لأبي قتادة: «اشرب»..

قال: لا أشرب حتى تشرب.. يا رسول الله..

فقال ﷺ: «إن ساقي القوم آخرهم شربًا»..

قال أبو قتادة: فشربت.. وشرب رسول الله ﷺ.. وشرب الناس كلهم. وكانوا ثلاثمائة.. وهذا من بركته ﷺ.. ومعجزاته الظاهرة..

غزوة تبوك.. مليئة بالعجائب..

أصاب المسلمين فيها جوع وعطش ومشقة.. فهو طريق طويل.. وعددهم كبير..

فجمع النبي ﷺ الظهر والعصر جميعًا.. ثم جمع المغرب والعشاء جميعًا..

فقال ﷺ لأصحابه: «إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك.. وإنكم لن تأتوها حتىٰ يضحىٰ ضحىٰ النهار.. فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا.. حتىٰ آتي»..

ومضىٰ الجيش يسير.. فلما وصلها النبي ﷺ.. فإذا قد سبق إلىٰ عين الماء رجلان.. والعين قليلة الماء جدًّا.. ونبع الماء منها شحيح.. فلما رأىٰ النبي عليه الصلاة والسلام الرجلين سألهما: «هل مستما من مائها شيئًا؟».

قالا: نعم..

فغضب النبي ﷺ عليهما.. كيف يمسان الماء وقد منع من ذلك.. وأعلن في الناس النهي عنه.. فسبهما ﷺ.. وقال لهما ما شاء الله أن يقول.. والصحابة عطشىٰ.. ثم أمر النبي ﷺ بعض الصحابة.. فغرفوا من العين ماء قليلاً.. ثم قليلاً..

وجعلوه في إناء صغير.. ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويديه.. ثم صب هذا الماء في العين..

فما كاد هذا الماء المبارك منه ﷺ يمس ماء العين حتىٰ جرت العين بماء كثير..

فاستقىٰ الناس.. وشربوا.. ورووا.. وتوضئوا.. ثم التفت ﷺ إلىٰ معاذ فقال: «يا معاذ.. يوشك إن طالت بك حياة أن ترىٰ ما هاهنا قد ملئ جنانًا».. أي مزارع وبساتين.

تكثيره الطعام:

قال جابر ﷺ: إنا يوم الخندق نحفر.. فعرضت كدية شديدة.. فجاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ.. فقالوا: هذه كدية عرضت.. فقال: «أنا نازل».. فقام وبطنه معصوب بحجر.. ولبثنا ثلاثًا لا نذوق ذواقًا..

فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب.. فعاد كثيبًا أهيل.. فقلت: يا رسول الله.. ائذن لي إلىٰ البيت..

فقلت لامرأتي: رأيت من رسول الله ﷺ شيئًا ما في ذلك صبر..

قالت: عندي شعير.. وعناق..

فذبحت العناق.. وطحنت الشعير.. حتىٰ جعلنا اللحم في البرمة.. ثم وليت إلىٰ رسول الله ﷺ.. فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه..

قال: فجئت فساررته.. فقلت: يا رسول الله.. طعيم لي.. فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان..

قال: «كم هو؟».. فذكرت له.. قال: «كثير طيب».. ثم صاح رسول الله ﷺ وقال: «يا أهل الخندق.. إن جابرًا قد صنع لكم سؤرًا.. فحي هلا بكم»..

ثم قال: «قل لها: لا تنزع البرمة.. ولا الخبز من التنور.. حتىٰ آتي..».

فقام المهاجرون والأنصار.. فلما دخل علىٰ امرأته قال: ويحك!! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار.. ومن معهم..

فقالت: بك.. وبك..

قال: قد فعلت الذي قلت لي..

فأخرجت له عجينًا فبصق فيه.. وبارك.. ثم عمد إلىٰ برمتنا فبصق فيها..

وبارك..

ثم قال: «ادع خابزة فلتخبز معي.. واقدحي من برمتكم.. ولا تنزلوها..».

وهم ألف.. فأقسم بالله.. لأكلوا حتىٰ تركوه وانحرفوا.. وإن برمتنا لتغط كما هي.. وإن عجيننا ليخبز كما هو.

تكثيره اللبن:

قال أبو هريرة ﵁: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد علىٰ الأرض من الجوع.. وإن كنت لأشد الحجر علىٰ بطني من الجوع..

ولقد قعدت يومًا علىٰ طريقهم الذي يخرجون منه.. فمر أبو بكر.. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني.. فلم يفعل.. ثم مر عمر.. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني.. فمر فلم يفعل.. ثم مر بي أبو القاسم ﷺ.. فتبسم حين رآني.. وعرف ما في وجهي وما في نفسي..

ثم قال: «أبا هر».. قلت: لبيك يا رسول الله.. قال: «الحق»..

ومضىٰ.. فاتبعته.. فدخل.. فاستأذن.. فأذن لي.. فدخلت.. فوجد لبنًا في قدح.. فقال: «من أين هذا اللبن؟».

قالوا: أهداه لك فلان.. أو فلانة..

قال: «أبا هر».. قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «الحق أهل الصفة.. فادعهم لي..».

قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام.. لا يأوون إلىٰ أهل ولا إلىٰ مال.. إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا.. وإذا أتته هدية أرسل إليهم.. وأصاب منها وأشركهم فيها.. فساءني ذلك..

وقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة!! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوىٰ بها.. فإذا جاءوا.. أمرني.. فكنت أنا أعطيهم.. وما عسىٰ أن يبلغني من هذا اللبن..

ولم يكن من طاعة الله.. وطاعة رسوله بد.. فأتيتهم.. فدعوتهم.. فأقبلوا.. فأذن لهم.. وأخذوا مجالسهم من البيت.. فقال: «يا أبا هر..».

قلت: لبيك يا رسول الله.. قال: «خذ.. فأعطهم..».

فأخذت القدح.. فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتىٰ يرویٰ.. ثم يرد علي القدح.. فأعطيه الآخر.. فيشرب حتىٰ يرویٰ.. ثم يرد علي القدح.. فأعطيه الآخر فيشرب حتىٰ يرویٰ.. ثم يرد علي القدح..

حتى انتهيت إلى النبي ﷺ.. وقد روي القوم كلهم.. فأخذ القدح فوضعه علىٰ يده.. فنظر إلي فتبسم فقال: «أبا هر».. قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «بقيت أنا وأنت؟»..

قلت: صدقت يا رسول الله..

قال: «اقعد فاشرب..» فقعدت فشربت.. فقال: «اشرب..» فشربت..

فما زال يقول: «اشرب..» حتىٰ قلت: لا.. والذي بعثك بالحق.. ما أجد له مسلكًا.. قال: «فأرني..» فأعطيته القدح.. فحمد الله وسمىٰ.. وشرب الفضلة.

عودة إلى تبوك:

أصاب المسلمين في معركة تبوك مجاعة شديدة.. ففكر الصحابة في نحر الإبل وأكلها.. فاستأذنوا من رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله!.. لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا.. فأكلنا لحمها.. وادهنا بدهنها.. كانوا مجهدين جائعين.. والحر والعطش يزيد الأمر سوءًا.. وهم لن ينحروا جميع الإبل.. بل بعضها ليسدوا رمقهم..

فقال ﷺ لهم: «افعلوا».. فتوجه الصحابة إلىٰ بعض الإبل.. لينحروها..

كان النبي ﷺ رحيمًا بأصحابه.. لكنه يحرص علىٰ الشورىٰ.. ويستمع لجميع الآراء..

فجاء عمر إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله! إن فعلت قل

الظهر.. - يعني: إن بدءوا في نحر الإبل.. لم نجد دواب لنكمل طريقنا.. ولكن: ادعهم بفضل أزوادهم.. - أي: كل واحد يأتي بما تبقىٰ عنده من تمر أو كسر خبز.. ثم - يا رسول الله - ادع الله لهم عليها بالبركة.. لعل الله أن يجعل في ذلك بركة..

فقال ﷺ: «نعم»..

ثم دعا النبي ﷺ بنطع - أي: قطعة جلد - فبسطه علىٰ الأرض.. ثم دعا بفضل أزوادهم..

فجعل الرجل يجيء بكف ذرة.. ويجيء الآخر بكف تمر.. ويجيء الثالث بكسرة.. حتىٰ اجتمع علىٰ النطع من ذلك شيء يسير..

قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة.. ثم قال: «خذوا في أوعيتكم».

قال: فأخذوا في أوعيتهم حتىٰ ما تركوا في المعسكر وعاء إلا ملئوه طعامًا..

فأكلوا حتىٰ شبعوا.. وفضلت فضلة علىٰ النطع..

فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله.. وأني رسول الله.. لا يلقىٰ الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة».

مع أبي جهل

قال تعالىٰ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٩٤-٩٦].

من أمثلة ذلك.. ما وقع لفرعون هذه الأمة.. أبي جهل..

كان أبو جهل متكبرًا متغطرسًا.. أقبل يومًا إلىٰ أصحابه عند الكعبة.. وقال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟

قالوا: نعم..

فغضب وقال: واللات والعزىٰ.. لئن رأيته يفعل ذلك.. لأطأن علىٰ رقبته..

تبًا له.. ما أقبحه وأقبح أخلاقه!!

فما هو إلا قليل.. حتىٰ جاء النبي ﷺ يمشي بكل سكينة.. فصف قدميه قريبًا من الكعبة.. وكبر مصليًا.. سجد النبي ﷺ.. وصار يناجي ربه..

كان هذا المنظر امتحانًا عاجلاً لشجاعة أبي جهل.. بالنسبة لأصحابه..

مضىٰ أبو جهل يضرب الأرض بقدميه بكل كبر.. يظن أنه سيتمكن من أن يطأ علىٰ رقبة النبي الكريم ﷺ!!.. فما كاد أبو جهل يصل إلىٰ النبي ﷺ.. حتىٰ صرخ.. وأخذ يرجع إلىٰ ورائه.. ويتقي بيديه أمامه.. وكأن حريقًا أو أذىٰ سيصيب وجهه..

وصل إلىٰ أصحابه منتقع الوجه.. أصفر اللون.. نظر إليه أصحابه.. فقالوا: ما لك؟

فقال وهو يلهث: إن بيني وبينه لخندقًا من نار.. وهولاً وأجنحة..

فلما قضىٰ ﷺ صلاته.. قال: «لو دنا مني.. لاختطفته الملائكة.. عضوًا.. عضوًا»..

وأنزل الله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:٩-١٩].

قصة سراقة.. من أحداث الهجرة المباركة..

إن قريشًا لما جعلت الجوائز الكبار لمن قبض علىٰ النبي ﷺ أو صاحبه.. تاقت نفوس الناس لهذه الجوائز.. ممن تبعهم يبحث وينقب.. سراقة بن مالك..

استطاع سراقة فعلاً أن يصل إلىٰ النبي ﷺ وأبي بكر.. واقترب.. واقترب..

وهو يطوي الأرض راكبًا فرسه..

فقال أبو بكر: يا رسول الله أتينا..

فقال ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا».. ثم دعا رسول الله ﷺ علىٰ سراقة..

فدخلت قدما فرسه في التراب.. حتىٰ غاصت فرسه في الأرض إلىٰ بطنها.. حاول سراقة أن يتخلص.. فلم يستطع..

فصاح بالنبي ﷺ فقال: إني قد علمت أنكما دعوتما علي.. فادعوا لي.. ولكما أن أرد عنكما الطلب.. فدعا النبي عليه الصلاة والسلام الله أن ينجيه.. فنجا..

فرجع سراقة إلىٰ مكة.. وجعل لا يلقىٰ أحدًا من قريش متوجهًا جهة النبي ﷺ وصاحبه.. إلا قال: قد كفيتم هاهنا.. ويدفع الناس ليبحثوا في الجهات الأخرىٰ..

وأنجىٰ الله تعالىٰ نبيه ﷺ.. وصدق الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

من يمنعك مني؟

خرج النبي ﷺ مع أصحابه في غزوة من الغزوات.. فلما رجعوا.. نزلوا واديًا أثناء الطريق.. وتفرق الناس يستظلون بالشجر.. وينامون..

ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة.. فاضطجع في ظلها.. وعلق سيفه بغصن من أغصانها.. فبينما رسول الله ﷺ نائم.. إذا برجل من المشركين كان يتبعهم..

أقبل هذا الرجل يمشي رويدًا إلىٰ النبي ﷺ.. حتىٰ وقف علىٰ رأس النبي ﷺ وهو نائم.. ثم أخذ سيف النبي ﷺ المعلق علىٰ الشجرة.. واستله من غمده.. ثم رفعه علىٰ رأس النبي ﷺ.. وجعل يصيح وهو سكران بنشوة

الانتصار.. ويقول: يااا محمد.. من يمنعك مني؟

فتح النبي ﷺ عينه.. فإذا بالرجل شاهر السيف.. وأصحابه متفرقون عنه..

كان الرجل ثائرًا.. لم تفلح معه أي طريقة لتهدئته أو التفاهم معه.. ولا يسمع منه النبي ﷺ إلا ثلاث كلمات: من.. يمنعك.. مني؟

فقال ﷺ بكل ثقة: «يمنعني منك.. الله».. فانتفض الرجل وسقط السيف من يده..

فقام ﷺ والتقط السيف.. ورفعه وقال للرجل: «من يمنعك مني؟».

فاحتار الرجل.. ماذا يقول؟ اللات والعزىٰ!! وأنىٰ تنفعه اللات والعزىٰ!! فلم يجد الرجل بدًّا من أن يقول بكل استسلام: لا أحد.. كن خير آخذ..

فقال له ﷺ: «تسلم؟».

قال: لا.. لكن أعاهدك ألا أقاتلك أبدًا.. ولا أكون في قوم هم حرب لك..

وكان الرجل ملكًا علىٰ قومه.. فعفا عنه النبي ﷺ.. ثم مضىٰ إلىٰ قومه.. فلم يلبث أن دخل في الإسلام..

هي بنت لا ولد

ذكروا أن أحد هؤلاء الكهان والعرافين والمنجمين ممن يدعي علم الغيب عمومًا دخل مرة علىٰ أحد الخلفاء، فرأىٰ في حجر هذا الخليفة مولودًا فجاء هذا وهو يريد أن يتقرب إلىٰ هذا الخليفة بنوع من القربة، فأقبل هذا الكاهن فقال: يأيها الخليفة.

قال: نعم.

قال: ألا أخبرك بمستقبل هذا المولود؟

قال: بلىٰ.

فجعل ينظر في النجوم ويعد أصابعه ويتكلم بطلاسم، وقال: آه، إن هذا

سوف يكبر ويصير فارسًا من الفرسان، وسيكون ممن يقاتل بسيفين في وقت واحد، ولن يحتاج إلىٰ أن يمسك بلجام الفرس ويقاتل، وهذا سيتزوج بنت الملك الفلاني في البلد الفلاني ويملكهم أيضًا، وجعل يقول ويذكر أنه سوف يرزق بكذا وكذا من الأولاد وسوف تكبر المملكة في حياته، وأخذ يطول الكلام وأعطاه جميع المميزات، ثم انتهىٰ ينتظر الجائزة.

فقال له الخليفة: يا كذاب! هذه بنت وليس ولد، هؤلاء أصلاً يضربون بشيء من الغيب، وكم لعبوا بعقول الناس في كثير من الأحيان.

كف عبر الهواء:

خاصة أولئك الذين يظهرون في القنوات الفضائية فيستضيفون أحيانًا منجمًا أو قارئ كف أو قارئة كف في قناة تبث من لندن أو باريس أو من أستراليا أو من واشنطن؛ يعني بينك وبينها آلاف الأميال ثم يتصل بهم متصل من بلد بعيد عنهم ويقول لهم: اقرءوا كفي، فيقول له الجالس: ضع كفك علىٰ الشاشة.

هذا واقع، ولو شئت أن أسمي بعض القنوات لفعلت، ويأتي ويقول هذا من مكانه والتليفون معه، والدقيقة بثلاثين أو سبعين ريالاً تحسب عليه ويربحونها هم.

ثم يضع يديه علىٰ الشاشة ويبدأ يقرأ له كفه في أستراليا، معقول هذا؟!

وما شاء الله بدل ما كان التليفزيون يبث صار يستقبل، فيبدأ ببث الذبذبات من هذا الكف، معقول هذا؟! والمشكلة أن هناك عقولاً تصدق هذا الكلام.

هؤلاء - يا جماعة - لو كان الناس يضحكون منهم لفشلت هذه البرامج التي يبثونها، لكن المشكلة أنهم يجدون عقولاً سفيهة غبية مجنونة يحتالون عليها، يتصل الواحد فيقول: وضعت كفي، فيقولون: لا، ضع كفك اليمنىٰ، والله لو تضع رجلك ما دري ولا علم، ويبدأ يقرأ لهم مثل هذا الكف، والذي لا يقول لك اقرأ كفك يتصل، ثم إذا ما اتصل بهم قالوا له: ما اسمك قال: اسمي فلان،

قالوا: ما اسم أمك؟!

تدري لماذا يسأل هؤلاء الكهان عن اسم الأم؟ لأنهم يسيئون الظن بجميع الناس وبجميع النساء، ويفترضون أن كونك ابن فلان هذا مشكوك فيه؛ لأن أمك غير ثقة، يفترضون ذلك، لكن كونك ابن فلانة هذا مائة في المائة؛ لأنك طلعت من بطنها، فهم يقولون: ما اسمك؟ أعطنا اسم أمك؛ لأن اسم أبيك ما ندري جاءت بك من ماء أبيك أم من ماء غيره، فانظر إلىٰ خبث نفوسهم أصلاً في النظر إلىٰ الخلق، فإذا أخبرهم وقال: أنا فلان ابن فلانة، قالوا: آه أنت مولود يوم كام بالضبط؟ فيخبرهم بتاريخ الميلاد.

فيخطون خطوطًا في أوراق، ثم تقول لك العرافة، هذه الكاهنة المشعوذة قد يكون رجلاً أو امرأة، يقول لك: نعم، أنت سيحصل لك كذا، وستتزوج كذا، أو تتوظف في كذا، ويبدأ اللعب بعقلك، أنت في الحقيقة لا تستطيع أن تقول له: أنت كذاب؛ لأنه يخبرك بأمر سوف يحصل مستقبلاً، فأنت لا تدري لو قال لك: غدًا أنت ستمرض، ما تستطيع أن تقول له: أنت كذاب، فهو لم يخبرك بماضٍ فتقول له: أنت كذاب؛ لأن هذا لم يقع، وإنما يخبرك بأمر مستقبلي، ولذلك تجد أن الناس يطيرون من أمثال هؤلاء للأسف الشديد.

خاصة - يا جماعة - ما ينشر أحيانًا من الأبراج وقد بدأت تنتشر أكثر، حتىٰ في بعض الجرائد التي لم تكن تصدر الأبراج والتنجيم بدأت من خلال شهر تقريبًا تصدر أمثال هذه الأبراج فيقول لك: أنت مولود مثلاً في الشهر الفلاني، برجك هو برج الجدي أو برج الكبش أو برج الأسد من أين هذه المسميات أصلاً حتىٰ تحضروها وتجعلوها قاعدة لجميع الناس؟

احذر التسلية:

ثم قد يأتي إنسان ويأخذ هذه المجلة التي بها الأبراج ويقول: أنا اقرأ من قبيل التسلية، من باب معرفة الواقع، من باب كذا، ويعلم أنه مولود في الشهر الفلاني وهذا الشهر يطابق البرج الفلاني، فيقرأ أنه سيأتيه خبر سار، هذا واقع

فعلاً.

أو أمه تقول: ستذهب إلىٰ مكان كذا، أو زوجته تطلب منه أن يحضر كذا، أي أمر من الأمور العادية التي تحصل للناس، لكنه قد ارتبط بذهنه انتظار هذه اللحظة، فيبدأ بدلاً من أن كان مكذبًا تسعين بالمائة، ثم بعدها ينزل إلىٰ ثمانين بالمائة، ثم بعدها ينزل التكذيب إلىٰ سبعين بالمائة، ثم ينزل إلىٰ عشرة بالمائة، ثم يبدأ يذهب إلىٰ المجلات التي فيها الأبراج؛ ليقرأها ولينظر فيها إلىٰ التوقعات، فبعد أن كان مكذبًا مائة في المائة أصبح يقع في قلبه نوع من التصديق؛ لذلك النبي ﷺ حذر فقال: «من أتىٰ كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء..».

عن أي شيء حتىٰ لو صدقت، لو قلت: نسأله، وأنا أعلم أنه كذاب، كما يقع من بعض السائحين أحيانًا، الذين يذهبون للسياحة في بعض البلدان؛ إما العربية وإما غير العربية، أحيانًا يأتي لك بعض الناس الذين في الشارع، يأتي ويقول: تريد أن أقرأ لك كفك ببلاش. أحيانًا يقول بعض الشباب: هيا اقرأ كفي، تضحك عليه.

فيبدأ يقرأ الكف، ويخبره بأمور عنده أصلاً في بلده، أو بتوقعات معينة، فيقول: آه أنت تتزوج خلال السنتين القادمتين، تريد أخبرك بصفات المرأة التي ستتزوجها؟ طبعًا مجرد سؤالك له حرام، حتىٰ لو ببلاش، يقول الشاب: هاه!! أخبرني، فيقول له: ادفع كذا وكذا فيكون هذا الدفع الذي تدفعه أصلاً هو مبلغ بالنسبة لك يسير بينما قد يكون معتبرًا عند هذا الدجال الكذاب.

فيدفع الشاب، وقد يقع في قلبه نوع ولو يسيرًا من التصديق، والنبي قال لنا وحذرنا: «من أتىٰ كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ» فهذه قضية مهمة ينبغي علينا جميعًا أن نحذرها؛ لأنها تمس العقيدة قبل أن تمس غيرها.

تكثير الطعام

في صحيح البخاري من حديث جابر ﷺ قال: بينما نحن نحفر الخندق إذ عرضت لنا كدية شديدة لم تذهب فيها معاولنا - يعني: صخرة عظيمة صلبة - يضربونها بالفأس فينكسر الحديد والصخرة لم يصبها أذىٰ.

قال: قلنا: يا رسول الله، هذه صخرة عرضت لنا، لم تذهب فيها معاولنا.

فقال النبي ﷺ: «إني نازل» ونزل إلىٰ الخندق فأقبل النبي ﷺ ونزل وأخذ المعول - الفأس - وكان النبي يلبس إزارًا ورداءً، فالإزار من سرته إلىٰ الأسفل، والرداء يغطي الصدر والبطن ويداه تحت ردائه، أخذ الفأس، فلما رفع عليه الصلاة والسلام انكشف بطنه، فإذا بطنه معصوب بحجر من شدة الجوع.

قال جابر: وقد لبثنا ثلاثة أيام والله ما ذقنا ذواقًا إلا الماء.

فقال جابر: يا رسول الله، ائذن لي إلىٰ أهلي، فأذن له، فأقبل إلىٰ امرأته، فقال: يا امرأة. قالت: نعم.

قال: والله لقد رأيت من رسول الله ﷺ منظرًا والله ما علىٰ هذا صبر!!

قالت: وماذا رأيت؟

قال: رأيت بطنه معصوبًا بحجر، فهل عندك أي شيء يؤكل؟ خبز، تمر، لحم، أي شيء؟

قالت: والله ما عندنا إلا صاع من بر (كيلو وأربعين جرامًا) هذا ولم يطحن، وإلا لو طحن لقل، وعناق (عنز صغيرة)، فإذا شئت طحنت الشعير، أو البر وذبحت العناق لأجل رسول الله ﷺ. قال: افعلي.

طحنت الشعير أو البر وعجنته وجعلته في طبق حتىٰ يخمر، ومضىٰ هو إلىٰ العناق فذبحها، وقعها في البرمة - القدر - وصب عليها الماء ووضعها فوق النار، وأقبل إلىٰ الباب ليذهب فرحًا مستبشرًا، فلما أراد الخروج تعلقت به

امرأته، وقالت: يا جابر! قد رأيت الطعام – تريد: أنه يوجد قليل من العجين وعناق - فلا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، لا تتحمس وتأتي بخمسة أو ستة، فأنت ترىٰ الطعام بالكاد لا يكفي لثلاثة أو أربعة.

فقال لها: سأحضر رسول الله ﷺ ومعه رجل أو رجلان، ومضىٰ جابر وأقبل علىٰ النبي، فإذا النبي ﷺ جالس.

يقول جابر: فجئت فساررته - أي: كلمته سرًّا - وقلت: يا رسول الله، طعيم لي، فتعال أنت ورجل أو رجلان، فقال النبي ﷺ: «كم هو؟».

قال: يا رسول الله، هو عناق وصاع من شعير.

فقال رسول الله ﷺ: «كثير طيب».

فقام النبي ﷺ وقال: «يأهل الخندق، إن جابرًا يدعوكم إلىٰ طعام»، ثم قال: «يا جابر، انطلق ولا تخرج العجين من مكانه، ولا تحرك اللحم حتىٰ آتيك» دع كل شيء علىٰ ما هو عليه.

يقول جابر: فمررت أحضر - أجري - فدخل علىٰ امرأته فقال: ويلك! فضحنا.

فقالت امرأته: وما بالك؟

قال: جاءك رسول الله ﷺ بالمهاجرين والأنصار.

فقالت: قاتلك الله، أو لم أكن حذرتك؟

قال: والله ما دعوتهم أنا.

قالت: فمن دعاهم؟

قال: رسول الله.

قالت: هل سألك عن طعامك؟

قال جابر: نعم.

قالت: هو أدرىٰ.

إنها المرأة العاقلة.

أقبل رسول الله ﷺ ومعه جموع الناس من المهاجرين والأنصار، أناس جوعىٰ، ثم دخل رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذنوا له، فدخل إلىٰ المطبخ، دخل بنفسه، عمره قريب من الستين عامًا، ثم دخل إلىٰ إناء العجين فكشفه ونفث فيه ودعا الله أن يطرح فيه البركة، ثم التفت إلىٰ القدر الذي فيه اللحم وكشفه ونفث فيه، ودعا الله أن يطرح فيه البركة وغطاه، ثم التفت إلىٰ امرأة جابر وقال: «ادعي لي خبازة فلتخبز معك»، سبحان الله! إنه عجين قليل فبمجرد قبضة أو قبضتين ينتهي، وأحضر معي خبازة! دعت خبازة.

تقول امرأة جابر: فوالله لقد كنت أقبض القبضة من العجين فينبت مكانها مثلها، والنبي ﷺ يغرف من اللحم ويضع في صحن، وامرأة جابر والمرأة تخبزان، وتلقيان الخبز إليه، والنبي ﷺ يقطع الخبز ويضعه ويصب عليه اللحم.

سبحان الله! من يجد خبزًا ويضعه ويصب عليه اللحم.

سبحان الله! من يجد خبزًا ولحمًا ومرقًا في هذا الوقت، وطازجًا؟!

فقال رسول الله ﷺ: «يا جابر! أدخل عشرة عشرةً وقل لهم: ادخلوا ولا تضاغطوا»، يعني الطعام يكفي إن شاء الله، ما يحتاج الأمر إلىٰ أن يتزاحموا.

قال جابر: فأدخلت عشرة فأكلوا حتىٰ شبعوا ثم خرجوا، ثم أدخلت عشرةً آخرين، فأكلوا حتىٰ شبعوا، والنبي ﷺ في المطبخ في الحر عند التنور، يضع لأصحابه ويعمل.

يقول جابر: فأقسم بالله لدخلوا وأكلوا جميعًا ثم خرجوا.

قيل: يا جابر، كم كنتم؟

قال: كنا ألف رجل، ألف يأكلون لجوع سابق، وجوع لاحق، وطبعًا - يا

جماعة - الألف رجل أكلوا والنبي في المطبخ، تتوقع ألف رجل دخلوا عشرة عشرة، يعني مائة مجموعة دخلت، تخيل كل مجموعة يحتاجون فترة أكل كم؟ خمس دقائق مثلاً، هذا على الأقل حتى يستطيع أن يأكل عشرة أشخاص، اضرب خمسة في مائة يعني ٥٠٠ دقيقة؛ يعني قرابة تسع ساعات والنبي ﷺ في المطبخ.

يقول جابر: فلما انتهوا قربت إلى رسول الله ﷺ الطعام، حقًا صدق الله إذ يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] ما كان يقول: نفسي نفسي، أنا الرئيس، أنا المسئول الكبير عليهم، أنا الملك، أنا النبي أصلاً، كلا كلا، أجوع ويأكل الناس، لا توجد مشكلة، أتعب ويرتاح الناس، ما توجد مشكلة.

أصابع ينبع منها الماء

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: كنا في الحديبية مع رسول الله ﷺ قال: قرب إلي النبي ﷺ جفنة ليتوضأ منها.

قال جابر: فأجهش الناس إليه - أي: أقبلوا عليه وتجمعوا - فقال النبي ﷺ: «ما بالكم؟» قالوا: ما في المعسكر أي شيء نشرب منه أو نتوضأ منه إلا هذا الماء الذي بين يديك، وهم في برد، وقد حبسوا عن دخول مكة في الحديبية.

يقول جابر: فأدخل النبي ﷺ يده في الإناء، قال: فوالله لقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فوالله ما بقي من إناء في المعسكر إلا ملأناه، فشربنا وتوضأنا، قيل: كم كنتم؟ قال جابر: كنا ألفًا وأربعمائة.

شفاء الأمراض:

روى البخاري أيضًا في صحيحه أن أبا رافع اليهودي كان في حصن له منيع، وكان يؤذي النبي ﷺ بأنواع الأذى، تارة يرسل من يقاتله، وتارة يرسل من يريد اغتياله، وتارة يشتري قيانًا من النساء المغنيات ويجعلهن يغنين بسب رسول

الله ﷺ وهجائه... كل أنواع الأذىٰ.

فقال النبي يومًا لأصحابه: «من لنا بأبي رافع؟».

فقال عبد الله بن عيتك: أنا يا رسول الله.

يقول عبد الله بن عتيك: ذهبت إليه لأقتله، يقول: فكنا نسير الليل ونختبئ بالنهار، حتىٰ نصل إلىٰ الحصن ما يدرون عنا حتىٰ وصلنا إلىٰ الحصن، فإذا حصن منيع ليس له إلا باب واحد يفتح مرتين في اليوم؛ مرة في الصباح ليخرج المزارعون ورعاة الغنم، ثم يغلق، ويفتح مرة أخرىٰ في المساء عند المغرب ليدخل هؤلاء، وكان الحارس يعدهم عدًّا ويعرفهم واحدًا واحدًا، لا يمكن دخول أي واحد إلا والحارس يعرفه، فلما جاء الصحابة تحيروا كيف يدخلون؟

فقال عبد الله بن عتيك: أنا أذهب لأنظر، مضىٰ حتىٰ إذا اقترب من الحصن فإذا بالحارس قد فتح الحصن عند المغرب، وجعلوا يدخلون بدوابهم، والحارس ينظر فيهم واحدًا واحدًا، فلم يستطع أن يدخل في غمرهم.

يقول: فأغلق الباب وجلست أفكر، وأظلم الليل علي وأنا أفكر كيف أقفز؟

قال: فبينما أنا كذلك إذ فقدوا حمارًا لهم، قال: ففتحوا الباب وخرجوا بشعل فيها نار يلتمسونه.

قال: وجعلوا يبحثون يمنة ويسرة فلم يجدوه، فصاح فيهم الحارس في الظلام وقال: ادخلوا وإلا أغلقت الباب، قال عبد الله بن عتيك: فدخلوا يتزاحمون، فدخلت في غمارهم إلىٰ داخل الحصن وأغلق الباب، قال: فاختبأت في مربط الحمار إلىٰ جانب الباب، فأقبل الحارس ثم أغلق الباب، ثم التفت يمينًا ويسارًا، فوجدته قد علق المفتاح في مكان معين عند الباب.

يقول: فنظرت إلىٰ قصر أبي رافع، فهذا حصن فيه مجموعة بيوت لأصحاب أبي رافع، وفيه قصر في الداخل لأبي رافع نفسه، قال: فنظرت إلىٰ قصر أبي

رافع فإذا السراج يزهر، وعنده أصوات، فعلمت أن عنده قومًا، فلا أستطيع أن أدخل بين عشرة أو خمسة عشر.

قال: فانتظرت حتىٰ أطفئ السراج، وانخفضت الأصوات وخرجوا من عنده.

قال: فخرجت وأقبلت إلىٰ المفتاح، وفتحت الباب وجعلته مفتوحًا شيئًا يسيرًا، حتىٰ إذا ما عرفوا بأمري وأقبلت لأهرب لا آخذ المفتاح وأفتح وأجرب مفتاحين أو ثلاثة لأفتح الباب وأهرب.

يقول: وأقبلت إلىٰ بيوتهم فجعلت أغلقها عليهم من الخارج، ثم صعدت إلىٰ غرفة أبي رافع، ومعي السيف ودخلت إلىٰ غرفة أبي رافع فإذا هي مظلمة - والعجيب أن عبد الله بن عتيك ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أنه كان ضعيف البصر - يقول عبد الله: فلم أر شيئًا، فقلت: يا أبا رافع! فقال: من؟ من؟

قال: فأقبلت إلىٰ موضع الصوت ورفعت السيف وضربت ضربة، فصاح أبو رافع يطلب النجدة والإنقاذ.

يقول عبد الله بن عتيك: فخرجت مسرعًا فسمعت صياحًا، فرجعت مرة أخرىٰ وغيرت صوتي كهيئة المنجد له، فقلت: ما بالك يا أبا رافع ندعو الحرس، ندعو الجند؟

قال: نعم.

يقول: فأقبلت فضربته ضربة أخرىٰ أقوىٰ من الأولىٰ ما يدري أين تقع.

يقول: فخرجت، فسمعت صراخه، فرجعت إليه وغيرت صوتي وقلت: يا أبا رافع ماذا تريد؟

قال: أقبل بسرعة أنقذني.

قال: فأقبلت إلىٰ مصدر الصوت، ووضعت السيف علىٰ صدره ثم اتكأت عليه حتىٰ سمعت طرقعة عظام ظهره (قرع السيف عظام ظهر أبي رافع).

قال عبد الله: ثم خرجت ونزلت مسرعًا وقد استيقظ الناس، فظننت أن السلم قد انتهىٰ (ظلام في ظلام) فقفزت، فوقعت علىٰ رجلي فوثئت رجلي - أي: انكسرت ساقي - فقمت ونزعت عمامتي وربطت ساقي حتىٰ لا تشغلني واتكأت علىٰ سيفي، وجعلت أخطو علىٰ رجل واحدة حتىٰ أقبلت علىٰ أصحابي، فلما عدت إليهم قالوا: ماذا فعلت؟ قلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ، قالوا: هيا بنا نرجع إلىٰ رسول الله.

قال: ارجعوا أنتم، أما أنا فوالله ما أرجع إلىٰ المدينة حتىٰ أسمع بأذني نعي أبي رافع - وكانوا في الجاهلية إذا مات عظيم من عظمائهم رقي راقٍ علىٰ شرفة في قصره ثم نعاه إلىٰ الناس، ثم أنشد فيه الأشعار - فلما أسفر الصباح، خرج أحدهم، ورقي علىٰ شرفة قصر أبي رافع وقال: يأيها الناس! أنعىٰ إليكم أبا رافع تاجر الحجاز.

فقال عبد الله بن عتيك: فقمت أمشي ما بي قلبة، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ فبشرته.

فقال: يا رسول الله، لكن رجلي مكسورة.

فقال النبي ﷺ: «ابسط رجلك». فبسطت رجلي فكأنها لم أشتكها قط.

ما فارقت يد النبي ﷺ رجل عبد الله حتىٰ قفزت ليس بها بأس.

عين ترد إلى مكانها

وفي معركة أخرىٰ رمي أبو قتادة بسهم فأصاب عينه، وخرجت عينه فصارت معلقة بشيء من العروق واللحم والعصب، فأقبل إليه بعض أصحابه قالوا: يا أبا قتادة، يعوضك الله، هذه عينك انتهت، وأرادوا أن يقطعوا اللحم المتمزق هذا.

قال لهم: يا قوم لا تفعلوا!! قالوا: كيف؟!

قال: اعرضوني علىٰ رسول الله ﷺ. فمضوا به حتىٰ وقف بين يدي النبي

ﷺ، قال: يا رسول الله، عيني.

فقال له ﷺ: «إن شئت أعدتها لك كما كانت، وإن شئت صبرت ولك الجنة».

قال: يا رسول الله، إني رجل حببت إلي النساء، وأخشىٰ يا رسول الله إن ذهبت عيني أن تبغضني النساء، يا رسول الله أعد عيني، والجنة إن شاء الله.

يقول: فضحك النبي ﷺ وأعاد عينه، ودعا الله تعالىٰ.

قال: فلما رفع يده فتح عينه، فكان الذي يراه لا يدري أي عينيه أصيبت.

حنين الشجر

روىٰ البخاري أيضًا أنه ﷺ كان يخطب الجمعة في قبلة المسجد، وإذا تعب أحيانًا يتكئ علىٰ جذع نخلة.

فأقبلت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله، إن لي غلامًا نجارًا، فهل آمره يصنع لك منبرًا؟ قال: «مريه إن شئت».

ودخل النبي ﷺ صلاة الجمعة فأقبل فرقىٰ درجات المنبر الثلاث، ووقف، قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ثم جلس، وقام بلال يؤذن.

يقول أنس: فسمعنا بكاءً كبكاء الصبي، فالتفتنا فإذا هي النخلة تصيح حتىٰ كادت أن تنشق.

قال: فنزل النبي ﷺ وأقبل علىٰ جذع النخلة وضمه بين يديه.

قال: فجعل يسكنه كما يسكن الصبي الذي يسكت حتىٰ سكت.

هذا وأسأل الله أن يجزيكم خير الجزاء، ويجزي الإخوة الكرام في مجمع البوارج الخيري في جنوب الرياض خير الجزاء علىٰ حرصهم علىٰ إقامة مثل هذه اللقاءات، والله تعالىٰ أعلم، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد.

النبي ﷺ وحفصة

روىٰ النسائي وأبو داود: أنه ﷺ وقع بينه وبين أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها شيء.. فطلقها تطليقة.. فأتاه جبريل فقال: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة.. فإنها صوامة.. قوامة.. وهي زوجتك في الجنة..». فراجعها ﷺ..

وفي مسند أحمد.. عن أبي أمامة رضي الله عنه.. أن رسول الله ﷺ أنشأ غزوة يومًا فأقبل إليه أبو أمامة فقال: يا رسول الله.. ادع الله لي بالشهادة..

فقال: «اللهم سلمهم وغنمهم»..

قال: فسلمنا.. وغنمنا..

قال: ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزوًا ثالثًا..

فأتيته فقلت: يا رسول الله.. إني أتيتك مرتين قبل مرتي هذه.. فسألتك أن تدعو الله لي بالشهادة.. فقلت: «اللهم سلمهم وغنمهم».. فسلمنا وغنمنا..

يا رسول الله.. مرني بعمل.. فقال ﷺ: «عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له»..

فسمع أبو أمامة هذه الوصية.. فما رؤي بعدها هو ولا امرأته ولا خادمه إلا صيامًا.. فكان الناس لا يرون في دارهم دخانًا بالنهار أبدًا.. فإذا رؤي في دارهم دخان بالنهار.. عرف أنه نزل بهم ضيف.. فلبث أبو أمامة رضي الله عنه.. زمانًا علىٰ ذلك..

قال: ثم أتيت رسول الله ﷺ.. فقلت: يا رسول الله.. أمرتنا بالصيام.. فأرجو أن يكون قد بارك الله لنا فيه..

يا رسول الله.. فمرني بعمل آخر..

فقال ﷺ: «اعلم أنك لن تسجد لله سجدة.. إلا رفع الله بها لك درجة.. وحط عنك خطيئة».. فلازم أبو أمامة بعدها الصلاة والصوم..

وعلىٰ هذا كان السلف - رحمهم الله - يعرفون للقربات حقها.. ويحرصون

علىٰ صوم النافلة.. فضلاً عن صيام رمضان..

وقد قال ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه»

اجتهاد السلف في الصيام

كان الإمام الصالح إبراهيم بن هانئ.. يكثر الصيام.. حتىٰ كبرتْ سنه.. فنزل به مرض الموت.. ثم حضرته الوفاة بعد العصر.. فأخذ يشهق.. وقد جف ريقه.. ويبس لسانه..

فالتفت إلىٰ ولده.. فقال: يا ولدي.. أنا عطشان.. فجاءه ولده بماء.. فلما قربه إلىٰ فيه.. أغلق شفتيه فجأة وقال: أغابت الشمس؟ قال ولده: لا.. فدفع الإناء عن فمه.. فأصر عليه ولده وهو يأبىٰ أن يفطر.. فجلس ولده ينتظر أذان المغرب والإناء بيده..

فسكت الشيخ قليلاً ثم قرأ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] ثم تشهد ومات..

أما المرأة الصالحة.. من البيت الطاهر.. نفيسة بنت الحسن.. فكانت تكثر من الصيام.. حتىٰ كبرت سنها.. ورق عظمها.. واقتربت منيتها.. فلما نزل بها مرض الموت كانت صائمة.. فاشتد عليها النزع.. فأكثر عليها أبناؤها يطلبون منها أن تفطر.. فنظرت إليهم.. وقد تقلصت شفتاها.. وثقل لسانها.. وقالت لهم:

واعجباه!! أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله ربي أن ألقاه وأنا صائمة أأفطر لما حان اللقاء؟! هذا لا يكون.. ثم أخذت تتلو القرآن فلما بلغت قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].. فاضت روحها إلىٰ باريها..

نعم.. أقوام صالحون.. أحبوا ربهم فأحبهم.. وتقربوا إليه فقربهم..

قال الإمام ابن أبي عدي: أمضىٰ داود بن أبي هند أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا.. ولا يعلم به حتىٰ أهله..

قيل له: كيف؟

فقال: كان خرازًا.. يخرج كل يوم إلىٰ دكانه ويحمل معه غداءه.. فإن كان مفطرًا أكله.. وإن كان صائمًا تصدق به علىٰ مسكين في الطريق.. ثم يرجع عشيًا فيفطر مع أهله..

أما عبد الله بن عمر ﷺ.. فقد كان كثير الصوم.. فلما نزل به الموت.. قال:

لم آسف على شيء يفوتني من الدنيا إلا على ثلاث:

ظمأ الهواجر.. - يعني صيام الأيام شديدة الحر التي يشتد فيها العطش..

قال: - ظمأ الهواجر ومكابدة الليل ولم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا يعني: الحجاج.

نعم.. كان الأولون يمتدحون الصيام.. ويجعلونه طريقًا إلىٰ الجنة.. يدركون الحكمة الإلٰهية التي شرع لأجلها..

أما اليوم.. فكثير من الناس يصومون.. ولكن قليل أولئك الذين يعرفون لماذا يصومون..

اليهود وتفويت فرص الخير

أرسل الله إليهم موسىٰ فبشرهم بمحمد.. ثم جاء عيسىٰ فبشرهم أيضًا بمحمد عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم..

فهم منذ أن بعث النبي ﷺ.. وهم ما شكوا في صدقه طرفة عين.. يعلمون أنه النبي الخاتم الذي أمرهم موسىٰ باتباعه.. ويعلمون أن نجاتهم في الدارين بالدخول في الإسلام.. ويعلمون أنهم قد حرفوا وبدلوا.. لكنهم مع ذلك

يكتمون الحق وهم يعلمون.. كبرًا وعنادًا..

ولا يزال كل واحد منهم تمر به الأوقات.. وتمضي الأيام والسنوات.. وهو يرىٰ الحق وتضعف إرادته عن اتباعه..

وانظر - بالله عليك - إلى حال اليهود يوم الأحزاب..

فإن أحزاب قريش ومن ناصرهم.. لما عزموا علىٰ قتال المسلمين.. وجيشوا جيوشهم.. وأقبلوا إلىٰ المدينة.. تحير النبي ﷺ وأصحابه ماذا يفعلون؟ فنظروا فإذا المدينة تحيط بها الجبال من ثلاث جهات.. فعلم المسلمون أن جيش الكفار لا يمكن أن يهاجم المدينة إلا من جهة واحدة وهي السهل.. فحفروا خندقًا عند مدخل المدينة يمنع الكفار من دخولها..

فلما وصل جيش الكافرين ورأوا الخندق تحيروا.. كيف يهزمون المسلمين؟ فعسكروا من وراء الخندق.. لا يستطيعون دخول المدينة..

وكان في المدينة قبيلة من قبائل اليهود هم بنو قريظة.. في حصن لهم.. وكان النبي ﷺ قد جعل بينه وبينهم عهدًا ألا يقاتلوه ولا ينصروا أحدًا عليه..

لكن اليهود كعادتهم خونة.. لما رأوا تألب الأحزاب.. وتتابع الكربات علىٰ المسلمين.. شعروا أن هذه نهاية الإسلام.. فنقضوا العهد وأرسلوا إلىٰ الكفار ما يعينهم.. ولم يكتفوا بذلك.. بل لما رأوا المسلمين مرابطين عند الخندق منشغلين في القتال.. تسللوا بين طرقات المدينة.. وأقبلوا علىٰ بيوت المسلمين يهاجمون من فيها من النساء والصبيان.. حتىٰ وصلوا إلىٰ حصن لحسان بن ثابت.. فيه نساء النبي ﷺ وبعض نساء المؤمنين وصبيانهم.. فهاجموهم.. وكادوا أن يهتكوا الأعراض.. ويقتلوا الأرواح.. لولا أن الله دحر كيدهم.. ولم تزل رحىٰ الحرب دائرة علىٰ المسلمين.. واليهود في حصونهم.. يمدون الكفار من بعيد..

ومضت الأيام عصيبة على النبي ﷺ وأصحابه.. وقد زاغت الأبصار..

وبلغت القلوب الحناجر.. حتىٰ أنجز الله وعده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده.. وفر كفار قريش إلىٰ مكة.. فأسقط في يد اليهود.. وأغلقوا عليهم حصنهم..

كان اليهود فعلاً يستحقون العقاب..

رجع النبي ﷺ إلىٰ هؤلاء اليهود - بني قريظة - فعسكر حول حصنهم.. عرض عليهم أن يستسلموا فأبوا.. فحاصرهم ﷺ يومًا ويومين.. وثلاثة.. وأسبوعًا وأسبوعين.. وهم صامدون.. حتىٰ أكمل خمسة وعشرين يومًا..

فلما جهدهم الحصار.. وقذف الله في قلوبهم الرعب.. ورأوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتىٰ يؤدبهم.. اجتمعوا.. فقام فيهم سيدهم كعب بن أسد.. فقال:

يا معشر يهود.. قد نزل بكم من الأمر ما ترون.. وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثًا فخذوا بما شئتم منها..

قالوا: وما هن؟

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه ونؤمن به.. فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل.. وأنه للذي تجدونه في كتابكم.. فتأمنون به علىٰ دمائكم وأموالكم.. وأبنائكم ونسائكم..

فنظر بعضهم إلىٰ بعض.. وقالوا بكل غطرسة وكبر: لا نفارق حكم التوراة أبدًا.. ولا نستبدل به غيره..

قال كعب: فإذا أبيتم علي هذه.. فخذوا الثانية.. إنه إنما يجعلنا نجبن عن القتال.. خوفنا علىٰ نسائنا وصبياننا..

فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا.. ثم نخرج إلىٰ محمد وأصحابه.. رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً نخاف عليه.. حتىٰ يحكم الله بيننا وبين محمد.. فإن نهلك نهلك ولم نترك نسلاً نخشىٰ عليه.. وإن نظهر فلعمري

لنجدن النساء والأبناء..

فانتفضوا وقالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟

فقال كعب: فإن أبيتم علي هذه.. فاسمعوا الثالثة:

الليلة ليلة السبت.. وإنه عسىٰ أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها.. فانزلوا نهجم عليهم لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة..

فجعلوا يبحثون عن أعذار.. فقالوا: أنفسد سبتنا.. ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت.. فأصابه ما لم يخف عنك من المسخ..

فسكت كعب قليلاً متفكرًا في هؤلاء الرعاديد.. الذين ليس عندهم إرادة.. ولا قدرة علىٰ التغيير.. ولا اتخاذ قرار.. ولا رجوع إلىٰ الحق.. ثم قال: والله يا معشر يهود.. ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازمًا..

فمضت عليهم أيام.. وهم في كرب شديد..

وهم بعض الصحابة باقتحام الحصن عليهم.. ففكر بنو قريظة ماذا يفعلون.. فتذكروا أنهم حلفاء للأوس في الجاهلية.. وسيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه..

فلما أصبحوا يومًا جعلوا ينادون: يا محمد، تنزل علىٰ حكم سعد بن معاذ..

عجبًا.. علىٰ حكم سعد ورسول الله ﷺ حاضر بينهم..!! وأمرهم بالنزول.. وأرسل إلىٰ سعد بن معاذ..

كان سعد بن معاذ مصابًا.. وقد جعله النبي ﷺ في خيمة بالمسجد.. عنده من يمرضه ويعتني به.. فانطلق قومه إليه ينادونه.. فلما دخلوا عليه فإذا هو قد تمكنت منه الجراح حتىٰ ضعف.. وكان رجلاً جسيمًا جميلاً.. فأقبلوا بحمار قد وضعوا عليه وسادة من أدم.. وحملوا سعدًا فوقه.. قال: ما خبركم؟

قالوا: إن رسول الله ﷺ يدعوك لتحكم بينه وبين بني قريظة..

عجب سعد.. كيف يحكم فيهم ورسول الله ﷺ حي بين أظهرهم؟

فأخبروه أن بني قريظة اختاروه دون غيره.. فسكت سعد ومضىٰ معهم.. فجعل قومه حوله يقولون: يا أبا عمرو.. أحسن في مواليك.. فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم.. فلما أكثروا عليه.. قال سعد: لقد آن لسعد بن معاذ ألا تأخذه في الله لومة لائم..

وصل سعد إلىٰ ديار بني قريظة.. وقد جلس رسول الله ﷺ في ناحية.. وجلس بنو قريظة في ناحية.. فلما رآه رسول الله ﷺ.. التفت إلىٰ أصحابه وقال: «قوموا إلىٰ سيدكم».. فقاموا إليه وساعدوه علىٰ النزول..

فنظر سعد إلىٰ اليهود فإذا هم الذين خانوا وغدروا ونقضوا عهدهم مع المسلمين.. وإذا هم الذين هاجموا حصن حسان بن ثابت الذي جمعت فيه النساء والصبيان.. وإذا هم الذين أمدوا قريشًا بالسلاح والطعام.. وإذا فهم رجال أشداء مقاتلون.. عوهدوا مرارًا وغدروا.. فلا يؤمنون بعدها..

سكت الجميع ينتظرون حكم سعد بن معاذ..

فالتفت سعد إلىٰ جهة اليهود، وقال: يا بني قريظة.. عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيكم لما حكمت..

قالوا: نعم.. فأراد أن يلتفت جهة النبي ﷺ.. ليسأله السؤال نفسه.. لكنه استحىٰ..

هو أصلاً من البداية مستحٍ.. كيف يحكم والنبي ﷺ موجود؟!!

فأشار بيده إلىٰ الناحية التي فيها النبي ﷺ وهو معرض عنه إجلالاً له.. وقال: وعلىٰ من هاهنا..

فقال ﷺ: «نعم»..

فسكت سعد قليلاً.. والناس يترقبون.. والنبي ﷺ قد أرهف سمعه ينتظر ما ينطق به من الحكم.. وسعد قد اشتد عليه المرض والجهد.. حتىٰ ما يكاد

يسمع صوته..

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل المقاتلة.. وتسبى النساء والذرية.. وتقسم أموالهم..

فابتهج النبي ﷺ.. وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة».. ثم أمر بهم.. فجمع المقاتلون في مكان.. وجعل عليهم من يحرسهم.. وكان من بينهم رجل أعمى اسمه الزبير بن باطا.. وكان الزبير من كبارهم.. وكانت تمر به الفرص لاتباع الحق.. وتغيير مسار حياته.. لكنه يجبن عن ذلك..

الزبير.. كان قد خرج يومًا مع بعض أصحابه.. فأخبروه أن كوكبًا أحمر قد ظهر في السماء.. فقال: طلع الكوكب الأحمر؟ قالوا: نعم..

فقال: إنه لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره.. ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره.. يعني: المدينة..

مع كل هذه القناعة.. إلا أنه لم يدخل في الإسلام.. بل كان يعادي المسلمين..

صحيح أنه لم يقاتل بجسده؛ لكنه كان يمدهم بالسلاح.. والرأي والمال.. وكان يتمنى أن لو كان مبصرًا ليقاتل معهم..

فبينما هو محبوس مع قومه.. إذ مر به ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه.. فلما رآه ثابت تذكر أن هذا اليهودي قد أحسن إليه في الجاهلية.. فأراد أن يكافئه.. فأقبل إليه فقال: هل تعرفني يا زبير؟

فقلب الأعمى رأسه يتذكر هذا الصوت.. ثم قال: وهل يجهل مثلي مثلك.. أنت ثابت بن قيس؟

فقال ثابت: نعم.. أريد أن أكافئك بإحسانك إلي في الجاهلية..

فابتهج الزبير وقال: إن الكريم يجزي الكريم..

فذهب ثابت إلىٰ النبي ﷺ.. فقال: يا رسول الله، هذا شيخ كبير بينهم.. كان قد أحسن إلي في الجاهلية.. وأنا أشفع فيه يا رسول الله أن تطلقه.. فأطلقه النبي ﷺ.. وعفا عن قتله.. ففرح ثابت ومضىٰ سريعًا إلىٰ الزبير.. وقال: أبشر يا زبير.. قد عفا عنك النبي ﷺ.. قم.. فقام معه الزبير.. لا تكاد تحمله قدماه من الفرح..

فلما مشىٰ خطوات.. وقف.. قال ثابت: ما بالك وقفت؟!!

قال: وما يفعل شيخ كبير.. لا أهل له ولا ولد.. ما يصنع بالحياة!

قال ثابت: انتظر هنا.. فرجع ثابت إلىٰ النبي ﷺ..

قال: يا رسول الله.. الزبير يريد زوجه وأولاده.. ويقول: شيخ كبير أعمىٰ به حاجة إليهم.. فأمر النبي ﷺ.. فأطلقت امرأته وأولاده..

فمضىٰ بهم ثابت إليه.. فلما رأوا أباهم تعلقوا به وبكوا وبكىٰ.. وهم يشكرون لثابت.. ثم ما كاد الزبير يمشي خطوات.. حتىٰ وقف.. وقال: وما يفعل شيخ كبير.. مع زوجته وأولاده في الحجاز من غير مال!! كيف يعيشون؟!!

فقال ثابت: انتظر هنا.. ثم رجع ثابت إلىٰ رسول الله ﷺ.. فقال: يا رسول الله.. الزبير يقول: وما يفعل شيخ كبير.. مع زوجته وأولاده في الحجاز من غير مال؟!! كيف يعيشون؟!!

فقال النبي ﷺ: «أطلقوا ماله»..

فأخذه ثابت.. ومضىٰ إلىٰ الزبير.. قال: يا زبير.. وما تريد أكثر.. هذه زوجتك.. وهؤلاء أولادك.. وهذا مالك.. وهذه نفسك.. قم امض معي.. فقام الزبير.. شاكرًا داعيًا.. فلما مشىٰ خطوات.. معه أولاده وزوجه وماله.. تذكر قومه وأصحابه.. وقد كان قبل قليل معهم لكنه أعمىٰ لا يدري من بقي ومن ذهب..

فالتفت إلىٰ ثابت وقال: يا ثابت.. ما فعل سيدنا الذي كأن وجهه مرآة صينية.. تتراءىٰ فيها عذارىٰ الحي.. قال ثابت: من تعني؟

قال: أعني كعب بن أسد سيدنا؟ قال: قتل.. فسكت ثم مشىٰ قليلاً.. ثم التفت إلىٰ ثابت وقال: فما فعل سيدنا الآخر.. سيد الحضر والبادي.. قال ثابت: من تعني؟

قال: أعني حيي بن أخطب؟ قال: قتل.. فسكت ثم مشىٰ قليلاً.. ثم التفت إلىٰ ثابت وقال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا..

قال ثابت: من تعني؟ قال: أعني: عزال بن شمول؟ قال: قتل..

قال: فما فعل سادة المجلسين.. اللذين يجتمع إليهما الناس؟

قال ثابت: من تعني؟.. قال: بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة..

قال ثابت: ذهبوا.. قتلوا.. عندها.. وقف الزبير..

هو الآن في لحظة اتخاذ قرار.. يسلم أو لا يسلم..

السلطان يحبس رجلا

حبس أحد السلاطين رجلاً.. فلما طال عليه الحبس.. كتب إليه بعض إخوانه الصالحين: اشكر الله علىٰ نعمه.. واصبر.. فلبث أيامًا ثم أمر به السلطان فضرب بالسياط.. فكتب إليه صاحبه: اشكر الله.. فمرت الأيام..

فأمر به السلطان فجعل في رجله قيد.. وربط مع رجل مجوسي مسجون.. فاشتد عليه الأمر..

ومضت أيام.. فأصيب المجوسي بداء في بطنه.. فأصابه إسهال.. وصار يقوم بالليل والنهار لقضاء الحاجة مرات..

وكلما ذهب للخلاء.. ذهب معه الرجل.. لأنه مربوط معه.. فيقف عند رأسه حتىٰ يقضي حاجته.. فضجر من ذلك.. فكتب إليه صاحبه يوصيه: اشكر

الله.. ولا تجزع..

فتسخط من وصيته.. وقال: أشكر الله علىٰ ماذا؟! وأي بلاء فوق ما أنا فيه؟!

فكتب إليه صاحبه: لو كنت مجوسيًّا مثله.. وجعلنا أنا الزنار الذي في وسطه في وسطك.. ما كنت تصنع؟ فاشكر الله علىٰ سلامة الدين.. ولا عليك بما فاتك من الدنيا..

صفاء نفوس المؤمنين..

ومن نظر في حال السلف وجد من حرصهم علىٰ صفاء النفوس أعاجيب.. حتىٰ مع العصاة والمجرمين كانوا يتعاملون معهم بصفاء نفس..

أم المؤمنين زوج النبي ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها كانت يهودية فأسلمت وتزوجها النبي ﷺ.. عاشت بعد النبي ﷺ زمنًا..

وفي خلافة عمر رضي الله عنه.. ذهبت جارية لها إلىٰ عمر وقالت: إن صفية تحب السبت (وهو يوم معظم عند اليهود) تحب السبت.. وتصل اليهود..

فبعث عمر رضي الله عنه إليها يسألها: يا أم المؤمنين ما الخبر؟!!

فقالت: أما السبت فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة.. وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها.. فدعا لها عمر.. فعلمت صفية رضي الله عنها أن الجارية هي التي نمت عليها عند عمر..

فسألت جاريتها: ما حملك علىٰ ما صنعت؟ فزعت الجارية وقالت: الشيطان!!

ثم سكتت الجارية تترقب ما سوف تفعل بها صفية رضي الله عنها.. فكظمت أم المؤمنين غيظها وقالت: اذهبي فأنت حرة..

والإمام أبو إسحاق الشيرازي..

أقبل يومًا إلىٰ دجلة وخلع عمامته علىٰ شاطئ النهر ونزل ليتوضأ.. وكانت

عمامته بعشرين دينارًا.. فجاء لص فأخذها وترك مكانها عمامة رديئة..

فلما انتهىٰ أبو إسحاق من وضوئه أقبل إلىٰ العمامة فتناولها ولفها علىٰ رأسه ومضىٰ وهو ساكت.. فلما جلس في درسه.. نبهه طلابه إلىٰ أن هذه غير عمامته.. وأن لصًّا سرق عمامته الفاخرة وترك له هذه.. وهم ينتظرون أن يغضب الشيخ ويدعو علىٰ من سرق عمامته.. فقال الشيخ: عفا الله عنا وعنه.. لعله أخذها محتاجًا إليها..

سافر المسور بن مخرمة رضي الله عنه إلىٰ الشام.. فوفد علىٰ معاوية رضي الله عنه.. فسأله بعض الحاجات فقضاها معاوية..

وكان معاوية يبلغه أن المسور يعيب عليه وعلىٰ عدد من الولاة أشياء.. وربما تكلم بها عند خاصته.. فلما خف الناس.. خلا معاوية بالمسور.. ثم قال: يا مسور! ما فعل طعنك علىٰ الأئمة؟

فقال المسور: دعنا من هذا.. وأحسن..

فأصر معاوية عليه وقال: لا والله.. لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب علي..

فتكلم المسور.. فلم يترك شيئًا يعيبه عليه إلا بينه له..

فقال معاوية: لا أبرأ من الذنب..

فهل تعد لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة..؟ فإن الحسنة بعشر أمثالها.. أم تعد الذنوب.. وتترك الإحسان؟

قال مسور: ما تذكر إلا الذنوب..

قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه..

فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشىٰ أن تهلكك إن لم تغفر؟

قال: نعم..

قال: فما يجعلك لله برجاء المغفرة أحق مني.. فوالله ما ألي من الإصلاح

أكثر مما تلي.. ولكن والله لا أخير بين أمرين: بين الله وبين غيره.. إلا اخترت الله علىٰ ما سواه.. وإني لعلي دين يقبل فيه العمل ويجزي فيه بالحسنات.. ويجزىٰ فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها..

فسكت المسور قليلاً ثم قال: خصمتني.. ودعا له.. ثم خرج مسور من عنده.. فلم يسمع بعدها يذكر معاوية إلا صلىٰ عليه..

كان القاضي وكيع.. يصلي الفجر.. ثم يجلس لطلاب العلم.. حتىٰ ترتفع الشمس.. ثم ينصرف إلىٰ بيته.. فينام قليلاً فإذا صلىٰ الظهر.. خرج إلىٰ طريق الأعراب الذي يمرون به لاستقاء الماء.. فإذا رآهم قد أراحوا إبلهم.. جلس إليهم يعلمهم من القرآن ما يؤدون به الصلاة.. ويستمر علىٰ هذا معهم في الشمس.. إلىٰ أذان العصر.. ثم ينصرف إلىٰ مسجده..

ولم يكن القاضي وكيع وحده الذي يحترق لهذا الدين.. ويستميت لإصلاح المسلمين.. بل لا يزال في الأمة..

وحدثني بعض المشايخ في مدينة جازان.. عن الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي.. أنه كان لا يفوت فرصة في تعليم الناس ودعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ..

مر يومًا ببئر يصطف عنده رعاة الغنم ليملئوا قربهم بالماء.. ورأىٰ أن الراعي يظل واقفًا زمنًا ينتظر وصول دوره.. فبنىٰ مظلة صغيرة بجانب البئر.. وصار يجلس فيها وقت مجيء الرعاة.. ويجعل بين يديه طبقًا فيه تمر.. فإذا رأىٰ راعيًا واقفًا ناداه قائلاً: تعال كل تمرًا.. واحفظ سورة الفاتحة..

فيوقف الراعي حماره في الصف.. ويجلس بين يدي الشيخ.. فيناوله التمر ويقرأ عليه السورة.. فلا يصل دوره إلا وقد حفظها..

فحفظ الفاتحة بهذه الطريقة مئات الناس من العوام..

كان عبد الله بن عباس ﵄ يمشي يومًا ومعه تلميذه عكرمة وبعض أصحابه.. فوقف له رجل في الطريق وجعل يسبه ويشتمه.. وابن عباس

ساكت.. والرجل يسب ويشتم.. فلما خف غضب الرجل.. التفت ابن عباس إلىٰ عكرمة وقال: انظر إن كان للرجل حاجة فاقضها له.. ثم مضىٰ..

أما عمر بن عبد العزيز فقد مضىٰ إلىٰ المسجد يومًا مع بعض حجابه.. فلما دخل المسجد.. فإذا السرج مطفئة.. وعدد من الناس نائم في المسجد.. فجعل يمشي بينهم ويتخطىٰ برجليه.. فوطئ برجله من غير قصد علىٰ رجل أحد النائمين..

فاستيقظ النائم غاضبًا وصاح بعمر: أنت حمار..!! فأجابه بكل هدوووء: لا أنا عمر بن عبد العزيز.. فهم الحاجب الذي مع عمر أن يؤدب الرجل.. فنهاه عمر وقال: ما فعل شيئًا يستحق به التأديب.. إنما سألني: أنت حمار؟ فأجبته بأني عمر..

باع رجل من الصالحين جارية لأحد الناس، فلما أقبل رمضان أخذ سيدها الجديد يتهيأ بألوان الطعام..

فقالت الجارية: لماذا تصنعون ذلك؟

قالوا: لاستقبال الصيام في شهر رمضان، فقالت: وأنتم لا تصومون إلا في رمضان؟! والله لقد جئت من عند قوم السنة عندهم كلها رمضان، لا حاجة لي فيكم، ردوني إليهم، ورجعت إلىٰ سيدها الأول..

فلما فتح النبي ﷺ خيبر أرسل إلىٰ المسلمين في الحبشة ليقدموا إلىٰ المدينة، فلما دخلوا المدينة، فرح النبي ﷺ بقدوم جعفر فرحًا شديدًا..

وذكر أنه ﷺ لما رآه قبله بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر».

وكان جعفر شديد الشبه بالنبي ﷺ، حتىٰ كان ﷺ يقول لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي».

ما كاد جعفر يستقر في المدينة، حتىٰ بلغ النبي ﷺ أن الروم يجمعون

الجيوش لغزو المسلمين، فجهز النبي ﷺ جيشًا لقتال الروم في مؤتة، وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم: «إن أصيب زيد فجعفر علىٰ الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة». فتجهز الناس وهم ثلاثة آلاف مقاتل، ثم ودعهم رسول الله ﷺ..

وصل المسلمون إلىٰ مؤتة، فإذا الروم مائة ألف مقاتل، فابتدأ القتال، فأخذ الراية زيد فأصيب فقتل، ثم أخذها جعفر بيمينه، وقاتل بها حتىٰ إذا اشتد القتال، رمىٰ بنفسه عن فرسه، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردًا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علي إذ لاقيتها ضرابها

ولازال يضربهم بسيفه، والراية في يمينه، فضربه رومي علىٰ يمينه، فقطعت، فأخذ الراية بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتىٰ قتل، وهو ابن ثلاثين سنة..

قال عبد الله بن عمر ﭭ: رأيت جعفر صريعًا، وفي جسده أكثر من تسعين ضربة ما بين طعنة وضربة ورمية، والله ما فيها واحدة في قفاه.. ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فأصيب فقتل، ثم أخذها خالد بن الوليد، فانسحب بالجيش..

هذا خبر المجاهدين في مؤتة، أما خبر المدينة فيحكيه أنس ﭬ فيقول: خرج إلينا رسول الله ﷺ، ثم رقي النبي ﷺ المنبر، فقال: «ألا أنبئكم جيشكم هذا الغازي؟». قلنا: بلىٰ، قال: «أخذ الراية زيد فأصيب فقتل فاستغفروا له». قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، قال: «ثم أخذ الراية جعفر فأصيب فقتل فاستغفروا له». قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، قال: «ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فأصيب فقتل فاستغفروا له». قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، ثم استعبر

النبي ﷺ ونزل، وبعدها، ذهب إلىٰ بيت جعفر..

قالت أسماء بنت عميس زوجة جعفر: كنت قد غسلت أولادي، ونظفتهم ودهنتهم، وعجنت عجيني، ننتظر قدوم جعفر.. فاستأذن علينا رسول الله ﷺ ثم دخل، فقال: «ادعي لي بني أخي».

قالت: فأتيته بهم كأنهم أفراخ.. فلما رأوا رسول الله ﷺ، أقبلوا يتسابقون إليه، يتعلقون به ويقبلونه، يظنونه أباهم جعفرًا، فجعل رسول الله ﷺ يمسح رءوسهم ويبكي، ويمسح رءوسهم ويبكي، فقالت أسماء: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيء؟

فسكت، قالت: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيء؟

قال: «قتل جعفر». قالت: يا رسول الله، يتم بنيه، يتم بنيه..

قال: «العيلة تخافين عليهم!! أنا وليهم في الدنيا والآخرة». ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «علىٰ مثل جعفر فلتبك البواكي».

ثم رجع الرسول ﷺ إلىٰ أهله فقال: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا فإنهم أتاهم ما يشغلهم». نعم، قتل جعفر، وفارق أهله وماله، لكنه دخل جنة عرضها السماوات والأرض..

قال ﷺ: «رأيت جعفرًا في الجنة، له جناحان مضرجان بالدماء، يطير بهما مع الملائكة».

وانظر إلىٰ حال الأنصار ﷺ بعد معركة حنين، الأنصار الذين قاتلوا مع النبي ﷺ في بدر ثم قتلوا في أحد، وحوصروا في الخندق، ولازالوا معه يقاتلون ويقتلون، حتىٰ فتحوا معه مكة، ثم مضوا إلىٰ معركة حنين..

ففي الصحيحين: أن القتال اشتد أول المعركة، وانكشف الناس عن رسول الله، فإذا الهزيمة تلوح أمام المسلمين، فالتفت ﷺ إلىٰ أصحابه، فإذا هم يفرون من بين يديه، فصاح بالأنصار: «يا معشر الأنصار». فقالوا: لبيك يا

رسول الله، وعادوا إليه، وصفوا بين يديه، ولازالوا يدفعون العدو بسيوفهم، ويفدون رسول الله ﷺ بنحورهم، حتىٰ فر الكفار وانتصر المسلمون، وبعدما انتهت المعركة، وجمعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ، أخذوا ينظرون إليها، وأحدهم يتذكر أولاده الجوعىٰ، وأهله الفقراء، ويرجو أن يناله من هذه الغنائم شيء يوسع به عليهم، فبينما هم علىٰ ذلك، فإذا برسول الله ﷺ، يدعو الأقرع بن حابس - ما أسلم إلا قبل أيام في فتح مكة، فيعطيه مائة من الإبل، ثم يدعو أبا سفيان ويعطيه مائة من الإبل، ولا يزال يقسم النعم بين أقوام، ما بذلوا بذل الأنصار، ولا جاهدوا جهادهم، ولا ضحوا تضحيتهم، فلما رأىٰ الأنصار ذلك..

قال بعضهم لبعض: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فلما رأىٰ سيدهم سعد بن عبادة رضي الله عنه ذلك، دخل علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أصحابك من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم، قال: «وما ذاك؟».

قال: لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا، في قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منه شيء..

فقال ﷺ: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟».

قال: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤ من قومي..

فقال: «فاجمع لي قومك». فلما اجتمعوا، أتاهم رسول الله..

فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم».

قالوا: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم..

فقال ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي». قالوا: بلىٰ ولله ورسوله المنة والفضل، قال: «ألم تكونوا عالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف

بين قلوبكم». قالوا: بلىٰ ولله ورسوله المنة والفضل، ثم سكت رسول الله ﷺ، وسكتوا، وانتظر، وانتظروا، فقال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار». قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المنة والفضل..

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم، لو شئتم لقلتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فواسيناك». ثم قال: «يا معشر الأنصار، أوجدتم علىٰ رسول الله في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتم إلىٰ إسلامكم» - إن قريشًا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم، وأتألفهم - «ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله ﷺ إلىٰ بيوتكم، لو سلك الناس واديًا أو شعبًا، وسلكت الأنصار واديًا أو شعبًا، لسلكت وادي الأنصار، أو شعب الأنصار، فوالذي نفس محمد بيده، إنه لولا الهجرة، لكنت امرأ من الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكىٰ القوم حتىٰ أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا..

نعم، إن الإسلام الذي هدوا إليه هو خير مما يجمعون..

قال عبد الله بن المبارك لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة؟

فقال سفيان: هو أعقل من أن يسلط علىٰ حسناته من يذهب بها..

بل كان بعضهم يحاسب نفسه علىٰ الكلام المباح فضلاً عن غيره..

ذكر ابن قدامة في الرقة والبكاء، عن: مالك بن ضيغم عن أبيه قال: جاءنا رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر، فقلنا: هو نائم..

فقال: أنوم بعد العصر؟ هذه الساعة؟ هذا وقت نوم!! ثم ولىٰ، فقلنا للخادم: ألحقه، فقل: نوقظه لك؟ فذهب الخادم، فلم يرجع الخادم إلا بعد

المغرب، فقلنا: أبلغته..

فقال: هو كان أشغل من أن يفهم عني، أدركته وهو يدخل المقابر، وهو يوبخ نفسه، يقول: يا نفس أقلت: أي نوم هذا، لينم الرجل متىٰ شاء، تسألين عما لا يعنيك، أما إن لله ﷻ علىٰ عهدا، أن أصلي كذا وكذا..

نعم دقق على نفسك، ولا تحتقرن شيئًا..

جلست عائشة يومًا مع رسول الله ﷺ، فذكرت له صفية - إحدىٰ زوجاته، وتعلمون ما يقع بين الضرائر من الغيرة - قالت عائشة: يا رسول الله، حسبك من صفية كذا وكذا، تعني قصيرة، فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة، لو مزجت بماء البحر لمزجته». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح..

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار، أبعد مما بين المشرق والمغرب».

قيام الليل

كان قيام الليل دأب النبي ﷺ وأصحابه.. ففي الصحيح عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضىٰ فقلت يصلي بها في ركعة، فمضىٰ، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح، سبح، وإذا مر بسؤال، سأل، وإذا مر بتعوذ، تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم»، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلىٰ» فكان سجوده قريبًا من قيامه..

أما أبو بكر ﷺ، فكان يصلي من الليل ما شاء الله، ويبكي..

وأما عمر ﷺ، فكان يصلي من الليل ما شاء الله، حتىٰ إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة ثم يقول لهم: الصلاة، الصلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ

بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه:١٣٢].

نعم كان أحدهم يصلي لربه، صلاة عبد مشتاق إليه، معترفٍ بفضله عليه، متذلل منكسر بين يديه، فيزداد محبة إلىٰ محبته، وشوقًا إلىٰ دخول جنته..

يـود أن ظـلام الليـل دام لـه   وزيد فيه سـواد القلب والبصـر

وهكذا كان من بعدهم.. كان محمد بن خفيف ﷺ به وجع الخاصرة، فكان يشتد عليه حتىٰ يقعده عن الحركة، فكان إذا نودي بالصلاة، يحمل علىٰ ظهر رجل إلىٰ المسجد، فقيل له: إن الله قد عذرك، فلو خففت علىٰ نفسك، فقال: كلا، إذا سمعتم حي علىٰ الصلاة، ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة.

لله درهم من مرضى، بل والله نحن المرضى..

وكان منصور بن المعتمر، إذا جن عليه الليل، يلبس من أحسن ثيابه، ثم يرقىٰ إلىٰ سطح بيته، ويصلي، فلما مات، قال غلام جيرانهم لأمه: يا أماه، الجذع الذي كان ينصب في الليل في سطح جيراننا، ليس أراه..

فقالت: يا بني، ليس ذاك جذعًا ذاك منصور كان يصلي، وقد مات..

وكانوا يستشعرون عظمة ربهم إذا وقفوا بين يديه..

كان أبو زرعة الرازي إمامًا في مسجد قومه عشرين سنة، فجاءه يومًا، قوم من طلاب الحديث، فنظروا فإذا في محرابه كتابة، فقالوا له: ما حكم الكتابة في المحاريب؟ فقال: قد كرهه قوم ممن مضىٰ، فأنا أنهىٰ عنه وأكرهه..

فقالوا: هو ذا في محرابك كتابة، أو ما علمت بها؟!

فقال: سبحان الله!! رجل يقف بين يدي الله تعالىٰ، ويدري ما بين يديه..

أما سفيان الثوري، فقد حدث عنه عبد الرزاق، أحد طلابه، قال: قدم علي سفيان الثوري، بعد العشاء، فوضعت له العشاء، والزبيب والموز، فأكل أكلاً جيدًا، فلما فرغ، قام، وتوضأ، ثم شد علىٰ وسطه إزاره، واستقبل القبلة وقال:

يا عبد الرزاق!! يقولون: اعلف الحمار ثم كده، ثم صف قدميه يصلي حتىٰ الصباح..

وقال ابن وهب: رأيت سفيان الثوري في الحرم بعد المغرب، صلىٰ ثم سجد سجدة فلم يرفع حتىٰ نودي بالعشاء..

نعم، كانوا يتسابقون إلى الخير..

قام أبو مسلم الخولاني ليلة، فتعبت قدماه فضربهما بالسوط، وأخذ يقول: أيظن أصحاب رسول الله ﷺ أن يسبقونا عليه؟ والله لنزاحمنهم عليه، حتىٰ يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالاً..

وكانوا يجدون في الصلاة خشوعًا، وفي السجود خضوعًا..

ذكر الذهبي عن بعض أصحاب شعبة بن الحجاج قال: كان شعبة يطيل الصلاة، وما رأيته ركع في الصلاة قط إلا ظننت أنه نسي، ولا قعد بين السجدتين إلا ظننت أنه نسي..

وفي الحلية: أن عبيدة بن مهاجر، كان عابدًا شاكرًا، متخشعًا ذاكرًا، وكان له أم مجوسية، فكان يبرها أشد البر، ويدعوها إلىٰ الإسلام فتأبىٰ عليه، فرجع من صلاة العصر يوم الجمعة، فبشرته أنها أسلمت، ونطقت الشهادتين، فخر ساجدًا لله، يبكي ويناجي، فما رفع رأسه حتىٰ غابت الشمس..

ولم يكن العباد من الرجال فقط ففي النساء نصيب..

فمعاذة العدوية كانت تصلي أكثر الليل، وتقول: عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في ظلم القبور، وتبكي..

وكانت حفصة بنت سيرين تسرج سراجها من الليل ثم تقوم في مصلاها، وكانت تقرب كفنها، لتذكر الموت في صلاتها، فتتخشع..

نعم، كانوا يركعون ويسجدون، ويصلون ويقومون، حتىٰ صار ذلك لهم عادة..

كان للحسن بن صالح جارية فاشتراها منه بعضهم، فلما انتصف الليل عند سيدها الجديد قامت تصيح في الدار: يا قوم، الصلاة، الصلاة، فقاموا فزعين، وسألوها: هل طلع الفجر؟ فقالت: وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟! ثم قامت تصلي، فلما أصبحت رجعت إلىٰ سيدها الأول..

وقالت له: لقد بعتني إلىٰ قوم سوء لا يصلون إلا الفريضة ولا يصومون إلا الفريضة فردني فردها..

فليت شعري، ماذا تقول تلك الجارية لو رأت فريقًا من مسلمي زماننا، الذين تمر عليهم الأيام تترىٰ، وهم علىٰ فرشهم يتقلبون.. فلا الليل يقومون، ولا صلاة الفجر يشهدون..

فكانوا كما قال الله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]..

وكانوا في رمضان أشد منهم اجتهادًا.. فكان الصحابة في عهد عمر ﷺ يصلون ثلاثًا وعشرين ركعة، ويختمون القرآن مرارًا في رمضان..

وفي الموطأ عن ابن هرمز قال: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان، فكان القارئ يقوم بسورة البقرة في ثمان ركعات، فإذا قام بها في اثنتي عشرة ركعة، رأىٰ الناس أنه قد خفف..

وفي الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال: كنا ننصرف من القيام في رمضان، فنستعجل الخادم بالطعام مخافة الفجر..

وفي شعب البيهقي عن خالد بن دريك قال: كان لنا إمام بالبصرة يختم بنا في شهر رمضان في كل ثلاث، فمرض فأمنا غيره، فختم بنا في كل أربع، فرأينا أنه قد خفف..

وقال السائب بن زيد: كان القارئ يقرأ بالمئين - يعني بمئات الآيات - حتىٰ كنا نعتمد علىٰ العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا عند الفجر..

السلف والقرآن

كان القرآن عند السلف الصالحين، مسهرًا لليلهم، مدرًا لدموعهم..

قال عبيد بن عمير، سألت عائشة: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي».

قلت: والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك..

فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي، حتىٰ بلّ لحيته، ثم بكىٰ حتىٰ بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، تبكي!! وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر..

قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾». رواه ابن حبان وصححه الألباني..

نعم كانوا يقرءون ويبكون..

أما بعض المسلمين اليوم، فقد تحول القرآن عندهم إلىٰ زخارف في البيوت، والمتاجر، والسيارات، فصاحب المتجر يعلق آيات القرآن، وهو يتعامل بالربا، ويحلف كاذبًا..

بل، تشاهد الآيات في السيارات، وأصحابها يحملون الخمر، وعلب السجائر، ويحين عليهم وقت الصلاة ولا يصلون.. وتذهب إلىٰ بعض الإدارات فتجد آيات القرآن معلقة، وبين جدران هذه الإدارة تؤكل الرشوة، ويحتال علىٰ المسلمين..

بل ترىٰ المرأة المتبرجة، تعلق في عنقها قلادة علىٰ صورة مصحف، وهي سافرة متكشفة، والقرآن يقول لها: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]..

عبد الله بن المبارك والفقير

ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، أن فقيرًا جاء إلىٰ عبد الله بن المبارك، فسأله أن يقضي عنه دينًا عليه، فناوله عبد الله كتابًا، إلىٰ وكيل ماله، فذهب به الفقير، فلما قرأه الوكيل، قال للفقير: كم الدين الذي سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك؟

قال: سبعمائة درهم، فكتب الوكيل إلىٰ عبد الله، أن الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم، وكتب له سبعة آلاف، وسوف تفنىٰ الأموال أو فنيت..

فكتب إليه عبد الله: إن كانت الأموال قد فنيت، فإن العمر أيضًا قد فني، فأجز له ما سبق به قلمي..

وفي السير: أن ابن المبارك، كان كثيرًا ما يسافر إلىٰ الرقة، وينزل في خان فيها.. فكان شاب يأتي إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله الرقة مرة، فلم ير ذلك الشاب، فسأل عنه: فقالوا: إنه محبوس، لدين ركبه..

فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل عبد الله يستقصي، حتىٰ دل علىٰ صاحب المال، فدعا به ليلاً وأعطاه عشرة آلاف درهم، وحلفه أن لا يخبر أحدًا، ما دام عبد الله حيًّا، وقال له: إذا أصبحت، فأخرج الرجل من الحبس، ثم خرج عبد الله من ليلته من الرقة.. فلما خرج الفتىٰ من الحبس، قيل له: عبد الله بن المبارك كان ها هنا، وكان يسأل عنك، فخرج الفتىٰ في أثره فلحقه علىٰ مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فلما قابله، قال له عبد الله: يا فتىٰ، أين كنت؟ لم أرك في الخان! قال: كنت محبوسًا بدين..

قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضىٰ ديني، ولم أعلم به حتىٰ أخرجت من الحبس..

فقال له عبد الله: احمد الله علىٰ ما وفق لك من قضاء دينك، ثم فارقه ومضىٰ..

وما الله

ذكر ابن قدامة في التوابين، عن عبد الواحد بن زيد قال: كنت في مركب، فطرحتنا الريح إلىٰ جزيرة، وإذا فيها رجل يعبد صنمًا، فقلنا له: يا رجل، من تعبد؟ فأومأ إلىٰ الصنم، فقلنا: إن معنا في المركب من يصنع مثل هذا، وليس هذا إلهًا يعبد..

قال: فأنتم من تعبدون؟ قلنا: الله، قال: وما الله؟

قلنا: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه، فقال: كيف علمتم به..

قلنا: وجه إلينا هذا الملك رسولاً كريمًا، فأخبر بذلك..

قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: أدىٰ الرسالة، ثم قبضه الله..

قال: فما ترك عندكم علامة؟ قلنا: بلىٰ، ترك عندنا كتاب الملك..

فقال: أروني كتاب الملك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حسانًا..

فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا..

فقرأنا عليه سورة من القرآن، فلم نزل نقرأ ويبكي، حتىٰ ختمنا السورة..

فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصىٰ..

ثم أسلم، وحملناه معنا، وعلمناه شرائع الإسلام، وسورًا من القرآن، وأخذناه معنا في السفينة، فلما سرنا وأظلم علينا الليل، أخذنا مضاجعنا.

فقال لنا: يا قوم، هذا الإله الذي دللتموني عليه، إذا أظلم الليل هل ينام؟

قلنا: لا يا عبد الله، هو عظيم قيوم لا ينام..

فقال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام، ثم أخذ في التعبد وتركنا..

فلما وصلنا بلدنا، قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام، وغريب في البلد، فجمعنا له دراهم وأعطيناه..

فقال: ما هذا؟ قلنا: تنفقها في حوائجك..

فقال: لا إله إلا الله، أنا كنت في جزائر البحر، أعبد صنمًا من دونه، ولم يضيعني، أفيضيعني وأنا أعرفه!! ومضىٰ يتكسب لنفسه..

وكان بعدها من كبار الصالحين..

ووالله ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أكرم خلقًا، ولا أزكىٰ نفسًا، ولا أحرص علىٰ هداية الناس من أبي القاسم ﷺ، لقد دعا ﷺ، إلىٰ الله في كل مكان، وحال، وزمان، دعا من أحبوه، ومن أبغضوه، ومن أحسنوا معه، ومن آذوه، ولم يكن اهتمامه ﷺ مقتصرًا علىٰ كبار الناس المؤثرين في المجتمع، بل اعتنىٰ بالصغار والكبار، والعبيد والأحرار..

جيران الحرام

ذكر بعض المفسرين عند كلامه علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧] أن رجلاً رأىٰ ابن سيرين في الحرم فسأله: من أين جئت يا بن سيرين؟ من أي البلاد؟

فقال ابن سيرين: أنا من بلاد بعيدة، أنا من العراق.

فقال ذلك الرجل: من العراق؟ أنت من جيران الحرم.

قال ابن سيرين: فمن أين جئت أنت؟

قال: أنا من بلاد ما وراء النهر، خرجت من بلدي منذ خمس سنوات، واليوم وصلت للحرم.

ولا يستغرب في زمنهم أن تمضي عليه الخمس سنين ليصل، لا لبعد المسافة فقط، وإنما لأنهم كانت تنتهي نفقة أحدهم في الطريق، فيقف في بلد في طريقه أشهرًا ليعمل ويجمع نفقة جديدة، ثم يكمل مسيره.

فما أروعها من رحلة عجاب، ومنظر يأخذ الألباب!

فهل شممت عبيرًا أزكىٰ من غبار المحرمين؟ وهل رأيت لباسًا أجمل من لباس الحجاج والمعتمرين؟ وهل رأيت رءوسًا أكرم من رءوس المحلقين والمقصرين؟ وهل مر بك ركب أشرف من ركب الطائفين؟ وهل سمعت نظمًا أعذب من تلبية الملبين، وأنين التائبين، وتأوه الخاشعين، ومناجاة المنكسرين؟

طاوس بن كيسان والحجاج

قال طاوس بن كيسان: بينما أنا بمكة إذ بعث إلي الحجاج، فلما دخلت عليه أجلسني إلىٰ جنبه، وأتكأني علىٰ وسادة، فبينما هو كذلك إذ سمع ملبيًا يلبي حول البيت، رافعًا صوته بالتلبية، فقال: علي بالرجل، فأتي به، فقال: ممن الرجل؟

قال: من المسلمين.

قال: ليس عن الإسلام سألت!!.

قال: فعم سألت؟

قال: سألت عن البلد.

قال: من أهل اليمن.

قال: كيف تركت محمد بن يوسف؛ يعني أخاه أمير اليمن.

قال: تركته عظيمًا، جسيمًا، لباسًا، ركابًا، خراجًا، ولاجًا.

قال: ليس عن هذا سألتك!!

قال: فعم سألت؟

قال: سألتك عن سيرته.

فقال: تركته ظلومًا غشومًا، مطيعًا للمخلوق، عاصيًا للخالق.

فغضب الحجاج لما رأىٰ جرأته علىٰ الكلام عن أخيه، فقال: ما حملك أن تتكلم بهذا الكلام، وأنت تعلم مكانه مني؟

قال الرجل: أتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من الله ﷻ، وأنا وافد بيته، ومصدق نبيه. فسكت الحجاج وجعل ينظر إلىٰ الأرض، وما أحار جوابًا، وقام الرجل من غير أن يؤذن له فانصرف.

قال طاوس: فعجبت من دينه وشجاعته، وقمت في أثره وقلت: الرجل حكيم.

فأتىٰ البيت ثم قال: اللهم بك أعوذ وبك ألوذ، اللهم اجعل لي في اللفه إلىٰ جودك، والرضا بضمانك مندوحة عن منع الباخلين، وغنىٰ عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة.

ثم ذهب في الناس، فرأيته عيشة عرفة وهو يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني الأجر علىٰ مصيبتي بتركك القبول مني.

ثم ذهب في الناس فرأيته فجر مزدلفة يقول: واسوءتاه والله منك وإن عفوت، ويردد ذلك.

القابضات على الجمر

ذكر الذهبي في الكبائر: أن امرأة ماتت فدفنها أخوها، فسقط كيس منه فيه مال في قبرها فلم يشعر به حتىٰ انصرف عن قبرها، ثم ذكره فرجع إلىٰ قبرها فنبش التراب، فلما وصل إليها وجد القبر يشتعل عليها نارًا، ففزع، ورد التراب عليها، ورجع إلىٰ أمه باكيًا فزعًا وقال: أخبريني عن أختي وماذا كانت تعمل؟ فقالت الأم: وما سؤالك عنها؟ قال: يا أمي إني رأيت قبرها يشتعل عليها نارًا، فبكت الأم وقالت: كانت أختك تتهاون بالصلاة، وتؤخرها عن وقتها.

فهذا حال من تؤخر الصلاة عن وقتها، فلا تصلي الفجر إلا بعد طلوع الشمس، أو تؤخر غيرها من الصلوات، فكيف حال من لا تصلي؟! وقد أخبر

النبي ﷺ عن رؤياه لعذاب من يخرج الصلاة عن وقتها، فقال: «أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا علىٰ رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتىٰ يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولىٰ، فقلت: سبحان الله!! ما هذان؟ فقال الملكان: هذا الرجل، يأخذ القرآن فيرفضه - يعني لا يعمل بما فيه - وينام عن الصلاة المكتوبة». ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣].

أما ثانية القابضات على الجمر: فقد كانت ملكة علىٰ عرشها، علىٰ أسرة ممهدة، وفرش منضدة، بين خدم يخدمون، وأهل يكرمون، لكنها كانت مؤمنة تكتم إيمانها، إنها آسية، امرأة فرعون، كانت في نعيم مقيم، فلما رأت قوافل الشهداء تتسابق إلىٰ السماء اشتاقت لمجاورة ربها، وكرهت مجاورة فرعون، فلما قتل فرعون الماشطة المؤمنة، دخل علىٰ زوجه آسية يستعرض أمامها قواه، فصاحت به آسية: الويل لك! ما أجرأك علىٰ الله، ثم أعلنت إيمانها بالله، فغضب فرعون، وأقسم لتذوقن الموت، أو لتكفرن بالله، ثم أمر فرعون بها فمدت بين يديه علىٰ لوح، وربطت يداها وقدماها في أوتاد من حديد، وأمر بضربها فضربت، حتىٰ بدأت الدماء تسيل من جسدها، واللحم ينسلخ عن عظامها، فلما اشتد عليها العذاب، وعاينت الموت، رفعت بصرها إلىٰ السماء، وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١]، وارتفعت دعوتها إلىٰ السماء. قال ابن كثير: فكشف الله لها عن بيتها في الجنة فتبسمت، ثم ماتت.

نعم، ماتت الملكة، التي كانت بين طيب وبخور، وفرح وسرور. نعم، تركت فساتينها، وعطورها، وخدمها، وصديقاتها، واختارت الموت، لكنها اليوم تتقلب في النعيم كيفما شاءت، ولماذا لا يكون جزاؤها كذلك

نفعها صبرها علىٰ الطاعات، ومقاومتها للشهوات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

وعن شهر بن حوشب: أن الله جل ثناؤه يقول لملائكته: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدعونه من أجلي، فأسمعوا عبادي، فيأخذون بأصوات من تسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط.

بل إن القابضات علىٰ الجمر، لم يكتفين بالصبر علىٰ العذاب، وتحمل البلاء، وإنما كان لهن في نصر الدين، ومقاومة الباطل، بطولات وأعاجيب.

صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، عجوز قد جاوز عمرها الستين سنة، فلما اجتمع الكفار من قريش وغيرها، وتآمروا علىٰ غزوة المدينة، حفر المسلمون خندقًا في جهة من جهات المدينة، وكانت الجبال تحيط ببقية الجهات، وكان عدد المسلمين قليلاً، فاستنفرهم النبي ﷺ للرباط أمام الخندق لصد من يتسلل إليهم من الكفار، أما النساء والصبيان فقد جمعهم النبي ﷺ في حصن منيع، ولم يترك عندهم من يحرسهم، لقلة المسلمين وكثرة الكفار، وبينما النبي ﷺ منشغل مع أصحابه في القتال عند الخندق، تسلل جمع من اليهود حتىٰ وصلوا إلىٰ الحصن، ثم لم يجرءوا علىٰ الدخول خشية من وجود أحد من المسلمين، فاصطفوا خارج الحصن، وأرسلوا واحدًا منهم يستطلع لهم الأمر، فجعل هذا اليهودي يطوف بالحصن، حتىٰ وجد فرجة فدخل منها، وجعل يبحث وينظر، فرأته صفية ﵁، ففزعت وقالت في نفسها: هذا اليهودي يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل علىٰ عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه، وإن صرخت فزعت النساء والصبيان، وعلم اليهودي أن لا رجال في الحصن، فتناولت سكينًا وربطتها في وسطها، ثم أخذت عمودًا من خشب، ونزلت من الحصن إليه وتحينت منه

التفاتة، فضربته بالعمود علىٰ أم رأسه، حتىٰ قتلته، فلما خمد، تناولت سكينًا، فلله در صفية، تلك العابدة التقية.

والقابضات علىٰ الجمر يتسابقن إلىٰ الأعمال الصالحة، صغيرها وكبيرها، ولهن في كل ميدان سهم، ولا تعلمين ما العمل الذي به تدخلين إلىٰ الجنة، فلعل شريطًا توزعينه في مدرسة، أو نصيحة عابرة تتكلمين بها، يكتب الله بها لك رضاه ومغفرته.

ولقد أخبر النبي ﷺ كما في الصحيحين أن امرأة بغيًّا من بني إسرائيل كانت تمشي في صحراء، فرأت كلبًا بجوار بئر يصعد عليه تارة، ويطوف به تارة، في يوم حار قد أدلع لسانه من العطش، قد كاد يقتله العطش، فلما رأته هذه البغي، التي طالما عصت ربها، وأغوت غيرها، ووقعت في الفواحش، وأكلت المال الحرام، لما رأت هذا الكلب، نزعت خفها، حذاءها، وأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء، وسقته، فغفر الله لها بذلك، الله أكبر، غفر الله لها، بماذا؟ هل كانت تقوم الليل وتصوم النهار؟! هل قتلت في سبيل الله؟! كلا، وإنما سقت كلبًا شربة من ماء، فغفر الله لها.

وروىٰ مسلم عن عائشة ﵂ أنها أخبرت عن امرأة مسكينة جاءتها، تحمل ابنتين لها، فقالت: يا أم المؤمنين، والله ما دخل بطوننا طعام منذ ثلاثة أيام، فبحثت عائشة في بيت النبي ﷺ فلم تجد إلا ثلاث تمرات، فأعطتها الثلاث تمرات، ففرحت المسكينة بها، وأعطت كل واحدة من الصغيرتين تمرة، ورفعت إلىٰ فيها تمرة لتأكلها، فكانت البنتان لفرط الجوع، أسرع إلىٰ تمرتيهما من الأم إلىٰ تمرتها، فرفعتا أيديهما تريدان التمرة التي بيد الأم، فنظرت الأم إليهما، ثم شقت التمرة الباقية بينهما. قالت عائشة: فأعجبني حنانها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار».

فالقابضات على الجمر يتسابقن إلى الطاعات، وإن كانت يسيرة صغيرة،

والأعظم من ذلك هو الحذر من المعاصي، وعدم التساهل بها، فقد قال تعالىٰ عن قوم تساهلوا بالمعاصي وتصاغروها: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

وأخبر النبي ﷺ كما في الصحيحين، أنه رأىٰ امرأة تعذب في النار، فما الذي أدخلها إلىٰ النار؟ هل سجدت لصنم؟ هل قتلت نبيًّا؟ هل سرقت أموال الناس؟ كلا، «دخلت امرأة النار في هرة، سجنتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض». حتىٰ ماتت هزلاً، قال ﷺ: «فلقد رأيتها في النار والهرة تخدشها».

وروىٰ البخاري أنه قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل، وتصدق، لكنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا خير فيها، هي من أهل النار».

قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصدق بأثوار - يعني بأجزاء يسيرة من الطعام - ولا تؤذي أحدًا..

فقال رسول الله ﷺ: «هي من أهل الجنة».

إن الصالحات، القابضات علىٰ الجمر، عفيفات مستورات، تموت إحداهن ولا تهتك سترها.

بل قد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، كانت دائمة الستر والعفاف، فلما حضرها الموت، فكرت في حالها وقد وضعت جثتها علىٰ النعش، وألقي عليها الكساء، فالتفتت إلىٰ أسماء بنت عميس، وقالت يا أسماء: إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، إنه ليطرح علىٰ جسد المرأة الثوب فيصف حجم أعضائها لكل من رأىٰ، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله، أنا أريك شيئًا رأيته بأرض الحبشة، قالت: ماذا رأيت؟ فدعت أسماء بجريدة نخل رطبة فحنتها، حتىٰ صارت مقوسة كالقبة، ثم طرحت عليها ثوبًا، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله، تعرف بها المرأة من الرجل،

فلما توفيت فاطمة، جعل لها مثل هودج العروس، هذا حرص فاطمة علىٰ الستر وهي جثة هامدة، فكيف لما كانت حية؟!

سبحان الله!!

أين أولئك الفتيات المسلمات، اللاتي نعلم أنهن يحببن الله ورسوله، وقلوبهن تشتاق إلىٰ الجنة، ولكن مع ذلك تذهب إحداهن إلىٰ المشغل النسائي فتكشف عورتها طائعة مختارة لتقوم امرأة أخرىٰ بإزالة الشعر ممن أجزاء جسدها، وقد قال ﷺ فيما رواه الترمذي: «ما من امرأة تضع ثيابها، في غير بيت زوجها، إلا هتكت الستر بينها وبين ربها».

والنبي ﷺ قد قال فيما صح عند البيهقي: «شر نسائكم المتبرجات المتخيلات، وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم».

ذكر ابن قدامة في كتابه التوابين: أن قومًا فساقًا، أمروا امرأة ذات جمال أن تتعرض للربيع بن خثيم فلعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها، فراعه أمرها فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمىٰ بجسمك فغيرت ما أرىٰ من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو قد ساء بك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة، وبكت، ثم تولت إلىٰ بيتها، وتعبدت، حتىٰ ماتت.

وذكر العجلي في تاريخه: أن امرأة جميلة بمكة وكان لها زوج فنظرت يومًا إلىٰ وجهها في المرآة، فقالت لزوجها: أترىٰ يرىٰ أحد هذا الوجه ولا يفتتن به؟! قال: نعم، قالت: من؟! قال: عبيد بن عمير العابد الزاهد في الحرم، قالت: أرأيت إن فتنته، وأكشف وجهي عنده، قال: قد أذنت لك، فأتته كالمستفتية فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله، غطي وجهك واتق الله، فقالت: إني قد فتنت بك، فقال: إني

سائلك عن شيء، فإن أنت صدقت، نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك يقبض روحك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة، قالت: اللهم لا، قال: فلو أدخلت في قبرك فأجلست للمساءلة، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو أردت المرور علىٰ الصراط ولا تدرين تنجين أم لا، كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة، قالت: اللهم لا، قال: فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقلين، كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة، كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فاتقي الله يا أمة الله، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، فرجعت إلىٰ زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال، ونحن بطالون، الناس يتعبدون ويستعدون للآخرة، وأنا وأنت علىٰ هذا الحال، فأقبلت علىٰ الصلاة والصوم والعبادة، حتىٰ ماتت.

ذكريات تائب

هذه ذكريات، ومشاعر وهمسات، أفضىٰ بها التائبون، واعتبر بها المذنبون، نعم، هي ذكريات، اعترف بها كهول هدمهم مر السنوات، وشباب لعبت بهم الشهوات، وفتيات ولغن في الملذات، هي ذكريات، مرت وانقضت، وانتهت ونسيت، لكنها سجلت وكتبت، وأحصيت وعدت.

نعم، هذه ذكريات تائب، واعترافات منيب وراغب، في زمن كثرت فيه المغريات، وتنوعت الشهوات، وزلت بكثير من الناس الأقدام، فقارفوا المعاصي والآثام، فضعف إيمانهم، وقوي عليهم شيطانهم، إنها ذكريات، لمن يؤمن بقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]، كما يؤمن

بقوله: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٥٠].

هذه أخبار أقوام أخبر ربهم أنه يفرح بتوبة التائبين إليه، مع غناه عنهم، وشدة حاجتهم إليه، وكيف لا يفرح بتوبتهم، وقد ناداهم بقوله: يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم.

وناداهم نبيهم بقوله: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها».

ومن فرح الله بالتائبين إليه أنه لا يغفر سيئاتهم فقط، كلا، بل يبدل سيئاتهم حسنات، قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

وفي البخاري: أن حكيم بن حزام ﷺ أقبل علىٰ رسول الله ﷺ فقال: أي رسول الله، أرأيت أمورًا كنت أتحنث بها في الجاهلية، من صدقة أو عتاقة، أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسلمت علىٰ ما أسلفت من خير».

الله أكبر، الذنوب تغفر، والسيئات تبدل حسنات، والحسنات أيام الجاهلية تثبت لصاحبها بعد التوبة، فماذا بقي.

هو التواب الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، لكن رحمته قريبة من المحسنين، الراجعين التائبين، الذين إذا أذنبوا استغفروا، وإذا ذُكروا ذَكروا، فليست المشكلة في وقوع الذنب، لكن المشكلة الكبرىٰ، والداهية العظمىٰ، هي أن يألف الذنب، ثم يتساهل به، فلا يحدث منه توبة، والله رحيم بعباده، رحمته أسرع من غضبه، ومغفرته أعجل من عقوبته، هو والله أرحم بعباده، من آبائهم وأمهاتهم.

في الصحيحين: أن النبي ﷺ لما انتهىٰ من حرب هوازن، أتي إليه بعد المعركة، بأطفال الكفار ونسائهم، ثم جمعوا في مكان، فالتفت النبي ﷺ إليهم، فإذا امرأة من السبي، أم ثكلىٰ، تجر خطاها، تبحث عن ولدها، وفلذة كبدها، قد اضطرب أمرها، وطار صوابها، واشتد مصابها، تطوف علىٰ الأطفال الرضع، تنظر في وجوههم، يكاد ثديها يتفجر من احتباس اللبن فيه، تتمنىٰ لو أن طفلها بين يديها، تضمه ضمة، وتشمه شمة، ولو كلفها ذلك حياتها، فبينما هي علىٰ ذلك، إذ وجدت ولدها، فلما رأته جف دمعها، وعاد صوابها، ثم انكبت عليه، وانطرحت بين يديه، وقد رحمت جوعه وتعبه، وبكاءه ونصبه، أخذت تضمه وتقبله، ثم ألصقته بصدرها، وألقمته ثديها، فنظر الرحيم الشفيق إليه، وقد أضناها التعب، وعظم النصب، وقد طال شوقها إلىٰ ولدها، واشتد مصابه ومصابها، فلما رأىٰ ذلها، وانكسارها، وفجيعتها بولدها، التفت إلىٰ أصحابه ثم قال: «أترون هذه طارحة ولدها في النار». يعني لو أشعلنا نارًا وأمرناها أن تطرح ولدها فيها، أترون أنها ترضىٰ، فعجب الصحابة الكرام: كيف تطرحه في النار، وهو فلذة كبدها، وعصارة قلبها، كيف تطرحه، وهي تلثمه، وتقبله، وتغسل وجهه بدموعها، كيف تطرحه، وهي الأم الرحيمة، والوالدة الشفيقة، قالوا: لا، والله يا رسول الله، لا تطرحه في النار، وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه، فقال ﷺ: «والله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

نعم، ربنا أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا، ومن سعة رحمته، أنه عرض التوبة علىٰ كل أحد، مهما أشرك العبد وكفر، أو طغىٰ وتجبر، فإن الرحمة معروضة عليه، وباب التوبة مشرع بين يديه، وانظر إلىٰ ذاك الشيخ الهرم، الذي كبر سنه، وانحنىٰ ظهره، ورق عظمه، أقبل علىٰ رسول الله ﷺ، وهو جالس بين أصحابه يومًا، يجر خطاه، وقد سقط حاجباه علىٰ عينيه، وهو يدعم علىٰ عصا، جاء يمشي، حتىٰ قام بين يدي النبي ﷺ، فقال بصوت تصارعه الآلام: يا رسول الله، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك

حاجة، ولا داجة، أي صغيرة ولا كبيرة، إلا أتاها، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل لذلك من توبة؟ فرفع النبي ﷺ بصره إليه، فإذا شيخ قد انحنىٰ ظهره، واضطرب أمره، قد هده مر السنين والأعوام، وأهلكته الشهوات والآلام، فقال له ﷺ: «فهل أسلمت؟». قال: أما أنا، فأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال ﷺ: «تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن». فقال الشيخ: وغدراتي، وفجراتي؟ فقال: «نعم». فصاح الشيخ: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، فما زال يكبر حتىٰ تواریٰ عنهم. الحديث: رواه الطبراني والبزار، وقال المنذري، إسناده جيد قوي، وقال ابن حجر: هو علىٰ شرط الصحيح.

وذكر ابن قدامة في التوابين: أن بني إسرائيل أصابهم قحط علىٰ عهد موسىٰ ، فاجتمع الناس إليه، فقالوا: يا كليم الله، ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث، فقام معهم، وخرجوا إلىٰ الصحراء، وهم سبعون ألفًا أو يزيدون، اجتمعوا بين يديه، وقاموا يدعون، وهم شعث غبر، عطاش جوعىٰ، وقام كليم الله يدعو: إلهي، اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضع، والبهائم الرتع، والمشايخ الركع، فما زادت السماء إلا تقشعًا، والشمس إلا حرارة، فقال موسىٰ: إلهي، اسقنا، فقال الله: كيف أسقيكم وفيكم عبد يبارزني بالمعاصي منذ أربعين سنة، فناد في الناس حتىٰ يخرج من بين أظهركم، فبه منعتكم، فصاح موسىٰ في قومه: يا أيها العبد العاصي، الذي يبارز الله منذ أربعين سنة، اخرج من بين أظهرنا، فبك منعنا المطر، فنظر العبد العاصي، ذات اليمين وذات الشمال، فلم ير أحدًا خرج، فعلم أنه المطلوب، فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق، أفتضحت علىٰ رءوس بني إسرائيل، وإن قعدت معهم منعوا المطر بسببي، فانكسرت نفسه، ودمعت عينه، فأدخل رأسه في ثيابه، نادمًا علىٰ فعاله، وقال: إلهي، وسيدي، عصيتك أربعين سنة، وسترتني وأمهلتني، وقد أتيتك طائعًا فاقبلني، وأخذ يبتهل إلىٰ خالقه، فلم

يستتم الكلام، حتىٰ ارتفعت سحابة بيضاء، فأمطرت كأفواه القرب، فعجب موسىٰ وقال: إلهي، سقيتنا، وما خرج من بين أظهرنا أحد، فقال الله: يا موسىٰ سقيتكم بالذي به منعتكم، فقال موسىٰ: إلهي، أرني هذا العبد الطائع، فقال: يا موسىٰ، إني لم أفضحه وهو يعصيني، أأفضحه وهو يطيعني.

نعم، غفر الله له، ولماذا لا يغفر له العزيز الرحيم وهو الذي قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر:٥٣-٦١]. وصح عند الترمذي أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالىٰ: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة».

نعم يأتيه بقراب الأرض مغفرة.

ومن رحمة الله تعالىٰ، أنه يرىٰ عبده يعصيه، فلا يعاجله بالعقوبة، بل قد يبتليه بالأمراض والأسقام، والمصائب والآلام، ليرده إليه، ويطرحه بين يديه، فيقرع أبواب السماء بأنواع الدعاء، طالبًا كشف الضر ورفع البلاء، والعبد كلما كان خائفًا توابًا، منيبًا لربه أوابًا، كانت رحمة الله أقرب إليه، وفضل الله أوسع

عليه، يستجيب الله دعاءه، ويكشف عنه بلاءه.

وقد روى الترمذي أن النبي ﷺ قال: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

التائبون، هم من أحب الخلق إلى الله، والله أخبر أنه يحب التوابين، لكنه يبغض المعتدين الظالمين، وكم من عاص يمسي ويصبح ضاحكًا، وربه من فوقه يلعنه، والملائكة تبغضه، والصالحون يدعون عليه، والنار تشتاق إليه، أتم الله له سمعه وبصره، وسلم له عقله وفكره، فبارز ربه بالعصيان، وصار من أنصار الشيطان، يعصي ولا يتوب، ويتتبع الشهوات والذنوب.

عجبًا، ينعم الله عليك وتعصيه بنعمه، هب أنك كنت مشلولاً مقعدًا، أو مريضًا مجهدًا، أو مسلوب السمع والبصر، فكيف يكون حالك؟!

دخلت على مريض في المستشفى، فلما أقبلت إليه، فإذا رجل قد بلغ من العمر أربعين سنة، من أنضر الناس وجهًا، وأحسنهم قوامًا، لكن جسده كله مشلول لا يتحرك منه ذرة، إلا رأسه وبعض رقبته، دخلت غرفته، فإذا جرس الهاتف يرن، فصاح بي وقال: يا شيخ أدرك الهاتف قبل أن ينقطع الاتصال، فرفعت سماعة الهاتف ثم قربتها إلى أذنه ووضعت مخدة تمسكها، وانتظرت قليلاً حتى أنهى مكالمته، ثم قال: يا شيخ، أرجع السماعة مكانها، فأرجعتها مكانها، ثم سألته: منذ متى وأنت على هذا الحال؟ فقال: منذ عشرين سنة، وأنا أسير على هذا السرير.

وحدثني أحد الفضلاء أنه مر بغرفة في المستشفى، فإذا فيها مريض يصيح بأعلى صوته، ويئن أنينًا يقطع القلوب، قال صاحبي: فدخلت عليه، فإذا هو جسده مشلول كله، وهو يحاول الالتفات فلا يستطيع، فسألت الممرض عن سبب صياحه، فقال: هذا مصاب بشلل تام، وتلف في الأمعاء، وبعد كل وجبة غداء أو عشاء، يصيبه عسر هضم، فقلت له: لا تطعموه طعامًا ثقيلاً، جنبوه أكل اللحم، والرز، فقال الممرض: أتدري ماذا نطعمه، والله لا ندخل إلى بطنه إلا

الحليب من خلال الأنابيب الموصلة بأنفه، وكل هذه الآلام، ليهضم هذا الحليب.

وحدثني ثالث أنه مر بغرفة مريض مشلول أيضًا، لا يتحرك منه شيء أبدًا، قال: فإذا المريض يصيح بالمارين، فدخلت عليه، فرأيت أمامه لوح خشب عليه مصحف مفتوح، وهذا المريض منذ ساعات، كلما انتهىٰ من قراءة الصفحتين أعادهما، فإذا فرغ منهما أعادهما، لأنه لا يستطيع أن يتحرك ليقلب الصفحة، ولم يجد أحدًا يساعده، فلما وقفت أمامه، قال لي: لو سمحت، اقلب الصفحة، فقلبتها، فتهلل وجهه، ثم وجه نظره إلىٰ المصحف وأخذ يقرأ، فانفجرت باكيًا بين يديه، متعجبًا من حرصه وغفلتنا، وشدة مرضه وحسن صحتنا.

هذا حال أولئك المرضىٰ، فأنت يا سليمًا من الأمراض والأسقام، يا معافىٰ من الأدواء والأورام، يا من تنقلب في النعم، ولا تخشىٰ النقم، ماذا فعل الله بك فقابلته بالعصيان، بأي شيء آذاك، أليست نعمه عليك تترىٰ، وأفضاله عليك لا تحصىٰ؟ أما تخاف أن توقف بين يدي الله غدًا فيقول لك: يا عبدي ألم أصح لك في بدنك، وأوسع عليك في رزقك، وأسلم لك سمعك وبصرك، فتقول بلىٰ، فيسألك الجبار: فلم عصيتني بنعمي، وتعرضت لغضبي ونقمي، فعندها تنشر في الملأ عيوبك، وتعرض عليك ذنوبك، فتبًا للذنوب، ما أشد شؤمها، وأعظم خطرها، أولها عناء، وأوسطها بلاء، وآخرها فناء، وهل أخرج أبانا من الجنة إلا ذنب من الذنوب، وهل أغرق قوم نوح إلا الذنوب، وهل أهلك عادًا وثمود إلا الذنوب، وهل قلب علىٰ قوم لوط ديارهم، وعجل لقوم شعيب عذابهم، وأمطر علىٰ أبرهة حجارة من سجيل، وأنزل بفرعون العذاب الوبيل، إلا المعاصي والذنوب، قال الله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[العنكبوت: ٤٠].

ولا تعجب، إذا عذبت بذنبك في الدنيا، فمرضت في بدنك، أو ابتليت في ولدك..

أو خسرت في تجارتك، أو ضاق عليك رزقك، أو كثر عليك البلاء، ولم يستجب منك الدعاء، فتتابعت عليك المصائب، وأحاطت بك المتاعب، قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]، فبادر إلىٰ التوبة من ذنوبك.

ولقد كان الصالحون، يصبرون أنفسهم علىٰ الطاعات، وينهونها عن المحرمات، ويجعلون موعد الراحة الجنات.

نعم، يستطيعون أن يزنوا، أتظنهم عاجزين عن ذلك؟ ويستطيعون أن يمتعوا أعينهم بالنظر إلىٰ المحرمات، وأسماعهم بسماع الأغنيات، ويكثروا أموالهم بالربا، يستطيعون ذلك كله، فما الذي يمنعهم؟! نعم ما الذي يمنعهم؟! إنهم يخشون أن يتجرعوا من الحميم، ويقاسوا العذاب الأليم، يخشون من يوم تزيغ فيه الأبصار، ويشتد غضب الجبار، يخافون يومًا كان شره مستطيرًا.

كان الإمام أحمد بن حنبل يكثر علىٰ نفسه التعبد، والصلاة والقيام، فقال له ابنه عبد الله يومًا: يا أبت، متىٰ ترتاح؟! فقال أبو عبد الله: أرتاح، إذا وضعت أولىٰ قدمي في الجنة.

وعلىٰ التائب أن يصبر علىٰ ما قد يصيبه بعد التوبة من بلاء، أو سخرية واستهزاء، ويتحمل ذلك في ذات الله، فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يدعه يمشي علىٰ الأرض وليس عليه خطيئة، ولا يغتر بكثرة الواقعين في المعاصي، ولا يلتفت إلىٰ الهالكين في الشهوات ممن استغواهم الشيطان، فأصبح أكبر هم أحدهم شهوة فرجه، أو فمه وبطنه، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ

يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦].

أما الحياة بعد التوبة، فهي الحياة التي خلقت لأجلها، وأوجدك الله لها، فأي لذة للحياة، إذا كنت تشعر في كل لحظة منها أنك عدو لله، متتبع للشهوات، واقع في المحرمات، وربك الذي يطعمك ويسقيك، وإذا مرضت فهو يشفيك، وهو الذي يمتيك ثم يحييك، بل كل شعرة من شعراتك، وذرة من ذراتك، لا تتحرك إلا بإذنه..

ومن صدق الله في توبته تحول بعدها إلىٰ جندي من جنود هذا الدين، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويحمل هم الإسلام، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يبسط أحدهم يده فيبايع محمدًا ﷺ، ثم يستشعر أنه بهذه البيعة أصبح جنديًّا يعمل لهذا الدين.

ذكر ابن إسحاق - وأصل القصة في البخاري - أن النبي ﷺ، لما تمكن في المدينة، بدأ يبعث أصحابه إلىٰ ما حوله من القرىٰ والوديان، يدعون الناس إلىٰ الإسلام، فبعث أحد الصحابة إلىٰ وادي نعمان قرب الطائف، فلما وصل ذلك الصحابي إليهم، فإذا أعراب في بواديهم، لا يعقلون من الحياة إلا إبلهم وغنمهم، فدعاهم إلىٰ الله، وأبان لهم الدين، فأعرضوا، فانطلق رجل منهم إلىٰ المدينة، لينظر في خبر هذا النبي، انطلق الرجل علىٰ ناقته، حتىٰ وصل إلىٰ المدينة، ثم دخلها، وأقبل يصيح بين الناس: أين ابن عبد المطلب، أين ابن عبد المطلب، فدله رجل علىٰ المسجد، فتوجه إليه، فبينما رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه يومًا، إذ أقبل الأعرابي الجلد، وقد جعل شعره جديلتين، فأناخ بعيره علىٰ باب المسجد، فعقله، ثم دخل المسجد، وقال وصاح بالناس: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب». فقال: محمد؟ فقال: «نعم». فقال: يا ابن عبد المطلب إني سائلك، ومغلظ عليك في المسألة، فلا تجدن في نفسك علي، فقال ﷺ: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك». فقال: من رفع السماء؟ قال: «الله». قال: فمن بسط الأرض؟ قال: «الله». قال:

فمن نصب الجبال؟ قال: «الله». قال: فأسألك بالذي رفع السماء، وبسط الأرض، ونصب الجبال، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «اللهم نعم». قال: فأنشدك الله، آلله أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللهم نعم». ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة، فريضة: آلله أمرك أن نصلي خمس صلوات؟ آلله أمرك أن نزكي أموالنا؟ آلله أمرك أن نصوم؟ ويعدد فرائض الإسلام، والنبي ﷺ يقول: «اللهم نعم». حتىٰ إذا فرغ قال: فأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني بكر بن سعد، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف خارجًا من المسجد، راجعًا إلىٰ بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولىٰ: «إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة». ثم أتىٰ بعيره، فأطلق عقاله، وانطلق عليه حتىٰ قدم علىٰ قومه، فاجتمعوا عليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزىٰ، فقالوا: مه يا ضمام، اتق البرص، والجنون، والجذام، قال: ويلكم، إنهما ما يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فما زال بقومه، يدعوهم، ويستنقذهم من النار، حتىٰ ما غابت الشمس ذلك اليوم، وفي قومه أحد كافر.

فهل نجد عند التائبين اليوم مثل هذه الحماس، في نشر الدين، ومناصرة المؤمنين، كم من تائب كان في جاهليته رأسًا في المنكرات، والدعوة إلىٰ الشهوات، لكنه بعد توبته، وصلاحه واستقامته، أصبح ذيلاً بعد أن كان رأسًا، راجلاً بعد أن كان فارسًا، عجبًا!! جبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟!! لا ينفع الإسلام ولا المسلمين، لا في دعوة، ولا إصلاح، ولا تعليم جاهل، أو نصح غافل.

ومن عظم قدر ربه في قلبه، حاسب نفسه أشد المحاسبة، وعاتبها أعظم

المعاتبة.

قال زيد بن أرقم: كان لأبي بكر الصديق مملوك، يعمل، ويشتري طعامًا كل يوم، فأتاه ليلة بطعام، فتناول أبو بكر منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك كنت تسألني كل ليلة عن الطعام، ولم تسألني الليلة، قال: حملني علىٰ ذلك الجوع، فمن أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية، فتكهنت لهم، ولا أحسن كهانة، فوعدوني بأجرة، فلما أن كان اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم، فأعطوني هذا الطعام، فقال أبو بكر: أف لك، كدت تهلكني، فأدخل يده في حلقه، فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست ماء فجعل يشرب، ويتقيأ، حتىٰ رمىٰ بها، فقيل له: يرحمك الله!! كل هذا من أجل هذه اللقمة؟!! فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولىٰ به» فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة.

أما شهيد المحراب، العابد الأواب، عمر بن الخطاب، فله في محاسبة النفس شأن عجيب.

ذكر صاحب الحلية: أن عمر بعث إليه أميره في الشام زيتًا في قرب، ليبيعه ويجعل المال في بيت مال المسلمين، فجعل عمر يفرغه للناس في آنيتهم، وكان كلما فرغت قربة من قرب الزيت، قلبها ثم عصرها وألقاها بجانبه، وكان بجواره ابن صغير له، فكان الصغير كلما ألقىٰ أبوه قربة من القرب أخذها ثم قلبها فوق رأسه حتىٰ يقطر منها قطرة أو قطرتان، ففعل ذلك بأربع قرب أو خمس فالتفت إليه عمر فجأة، فإذا شعر الصغير حسن، ووجهه حسن، فقال: أدهنت؟ قال: نعم، قال: من أين؟ قال: مما يبقىٰ في هذه القرب، فقال عمر: إني أرىٰ رأسك قد شبع من زيت المسلمين من غير عوض، لا والله لا يحاسبني الله علىٰ ذلك، ثم جره بيده إلىٰ الحلاق وحلق رأسه، خوفا من قطرة وقطرتين.

هذا حال المتقين، الأوابين الخاشعين، أما المتهالكون في الشهوات، فهم في

شقوة في حياتهم، وحسرة عند مماتهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣].

حدثني أحد الأطباء، قال: دخلت إلىٰ غرفة العناية المركزة في المستشفىٰ، ولفت انتباهي شاب في الخامسة والعشرين من عمره مصاب بمرض (الإيدز)، حالته خطرة جدًّا، كلمته برفق فأجاب بكلمات غير مفهومة، اتصلت بأهله، فحضرت أمه، سألتها عن حال ابنها؟ فقالت: كان حاله علىٰ ما يرام، حتىٰ عرف تلك الفتاة، قلت: هل كان يصلي؟ قالت: لا، لكنه كان ينوي أن يتوب ويحج في آخر عمره، اقتربت من الفتىٰ المسكين، فإذا هو يعالج سكرات الموت، اقتربت من أذنه وقلت: لا إله إلا الله، قل: لا إله إلا الله، بدأ يفيق وينظر إلي، المسكين يحاول بكل جوارحه، الدموع تسيل من عينيه، وجهه يتغير إلىٰ السواد، وأنا أردد قل: لا إله إلا الله، بدأ يتكلم بصوت متقطع: آه، آه، ألم شديد، آه، أريد مسكنًا للألم، آه، آه، بدأت أدافع عبراتي وأقول: قل: لا إله إلا الله، بدأ يحرك شفتيه بصعوبة، فرحت، سينطقها الآن، لكنه قال: لا أستطيع، لا أستطيع، أريد صديقتي، لا أستطيع، الأم تنظر وتبكي، النبض يتناقص، يتلاشىٰ، لم أتمالك نفسي، أخذت أبكي بحرقة، أمسكت بيده، عاودت المحاولة: أرجوك قل لا إله إلا الله، وهو يردد: لا أستطيع، لا أستطيع، ثم بدأ يشهق، ويشهق، توقف النبض، انقلب وجه الفتىٰ أسود، ثم مات، انهارت الأم، وارتمت علىٰ صدره، تصرخ، وتصرخ، وأنىٰ ينفعه صراخها، أو حزنها ونحيبها.

نعم، قد مضىٰ الفتىٰ إلىٰ ربه، لم تنفعه شهواته، ولا ملذاته، طالما اغتر بشبابه، وجمال سيارته وثيابه، ثم هو اليوم تجالسه في قبره أعماله، وتحيط به أفعاله، ما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون.

قارن حال هذا الشاب، بذلك الشاب، الذي بلغ من عمره ستة عشر عامًا،

كان في المسجد يتلو القرآن، وينتظر إقامة صلاة الفجر، فلما أقيمت الصلاة، رد المصحف إلىٰ مكانه، ثم نهض ليقف في الصف، فإذا به يقع علىٰ الأرض فجأة مغمىً عليه، حمله بعض المصلين إلىٰ المستشفىٰ، فحدثني الدكتور الجبير الذي عاين حالته، قال: أتي إلينا بهذا الشاب محمولاً كالجنازة، فلما كشفت عليه فإذا هو مصاب بجلطة في القلب، لو أصيب بها جمل لأردته ميتًا، نظرت إلىٰ الشاب فإذا هو يصارع الموت، ويودع أنفاس الحياة، سارعنا إلىٰ نجدته، وتنشيط قلبه، أوقفت عنده طبيب الإسعاف يراقب حالته، وذهبت لإحضار بعض الأجهزة لمعالجته، فلما أقبلت إليه مسرعًا، فإذا الشاب متعلق بيد طبيب الإسعاف، والطبيب قد ألصق أذنه بفم الشاب، والشاب يهمس في أذنه بكلمات فوقفت أنظر إليهما، لحظات وفجأة أطلق الشاب يد الطبيب، وحاول جاهدًا أن يلتفت لجانبه الأيمن، ثم قال بلسان ثقيل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأخذ يكررها، ونبضه يتلاشىٰ، وضربات القلب تختفي ونحن نحاول إنقاذه ولكن قضاء الله كان أقوىٰ ومات الشاب، عندها انفجر طبيب الإسعاف باكيًا حتىٰ لم يستطع الوقوف علىٰ قدميه، فعجبنا وقلنا له: يا فلان، ما لك تبكي؟! ليست هذه أول مرة ترىٰ فيها ميتًا، لكن الطبيب استمر في بكائه ونحيبه، فلما خف عنه البكاء سألناه: ماذا كان يقول لك الفتىٰ؟ فقال: لما رآك يا دكتور، تذهب وتجيء، وتأمر وتنهىٰ علم أنك الطبيب المختص به، فقال لي: يا دكتور، قل لصاحبك طبيب القلب لا يتعب نفسه لا يتعب أنا ميت لا محالة، والله إني أرىٰ مقعدي من الجنة الآن.

وروىٰ مسلم أن النبي ﷺ قال: «يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب».

نعم، هذا الرجل الذي ذاق من الدنيا أعظم نعمتها، ومن الحياة غاية لذتها، أنساه كل نعيم الدنيا غمسة واحدة في النار، فكيف به إذا تردىٰ في دركاتها،

وصارع حياتها، وتجرع من زقومها، وغرق في حميمها.

بل كيف به إذا استغاث فيها فقيل له: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، بالله عليك، هل يذكر في تلك الحال فاحشة ارتكبها؟ أو أغنية سمعها؟ أو خمرًا شربها؟ أو أموالاً جمعها؟

كلا، بل يقال لهم: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور:١٦].

قال ﷺ: «ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا، من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

نعم، أنساه كل بؤس الدنيا، غمسة واحدة غمسها في الجنة، فكيف به إذا شرب من أنهارها، وتقلب في أحضان حورها، وسكن في قصورها، وجالس أنبياءها، بل كيف به إذا نظر إليه ربه وهو فيها، ثم قال لهم: يا أهل الجنة، هل رضيتم، ثم ينظرون إلى وجه ربهم جل جلاله، هل يذكر شدة طاعة أداها، أو حسرة شهوة تركها، كلا، بل هو في نعيم دائم، لا يفنى شبابه، ولا تبلى ثيابه، قال الله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

قصة قتل المائة

في الصحيحين قصة ذلك الرجل، الذي تلطخ بالدماء، وقتل الأبرياء، حتى قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم بدا له أن يتوب، فشك هل يقبل الله توبته، وهو الذي يتم الأطفال، ورمل النساء، ومزق البيوت، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عابد راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فرفع الراهب بصره إليه، فإذا رجل قد ظلم العباد، وأكثر الفساد، حتى قسا قلبه، وكبر ذنبه، فقال الراهب: لا، ليست له توبة، فغضب هذا الرجل، وقتله، فكمل به مائة، ومضى من بين يدي الراهب، ثم بدا له أن يتوب، فسأله

عن أعلم أهل الأرض، فدل علىٰ رجل عالم فأتاه، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال العالم: نعم، نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟!! ولكن، انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلىٰ أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق الرجل التائب، حتىٰ إذا انتصف في الطريق، نزل به الموت، فخر صريعًا ميتًا، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا، مقبلاً بقلبه إلىٰ الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم حكمًا، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيتهما كان أدنىٰ فهو له، فأوحىٰ الله إلىٰ هذه أن تباعدي، وإلىٰ هذه أن تقربي، فقاسوه، فوجدوه أدنىٰ إلىٰ الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.

فانظر كيف قال له العالم: فارق بلدك، واخرج من أرضك فإنها أرض سوء.

وكذلك من كان يريد أن يتوب من الزنا، لا بد أن يفارق أماكن الاختلاط، ومن أراد أن يتوب من ترك الصلاة، أو من سماع الغناء، أو من أكل الربا، أو يتوب من أنواع الشرك، كل هؤلاء، لا بد أن يفارقوا كل ما يعينهم علىٰ تلك المعاصي.

خاتمة سوء

وإطلاق البصر في الشهوات سبب لسوء الخاتمة والعياذ بالله، هل سمعتم بالرجل الذي قيل له عند موته: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلىٰ حمام منجاب؟ ذاك رجل، كان واقفًا بازاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلىٰ حمام منجاب؟ فأشار إلىٰ باب بيته وقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها في داره، وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت خدعة منها له وتحيلاً لتتخلص مما أوقعها فيه، وخوفًا

من فعل الفاحشة، يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت، فهام الرجل، وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق ويقول:

يا رب قائلة يومًا وقد تعبت   أين الطريق إلى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته قائلة:

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها   حرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيجانه ولم يزل يردد هذا البيت حتىٰ مات.

وذكر ابن القيم أن رجلاً قيل له عند موته قل: لا إله إلا الله فصاح بأعلىٰ صوته وقال:

أسلم يا راحة العليل   ويا شفاء المدنف النحيل

حبك أشهى إلى فؤادي   من رحمة الخالق الجليل

هذا شاب، عشق شخصًا فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه، حتىٰ وقع ألمًا به ولزم الفراش بسببه، وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتىٰ وعده أن يعوده، فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره، وانجلىٰ غمه وجعل ينتظر للميعاد الذي ضربه له فبينا هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلىٰ بعض الطريق، ورجع فرغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وبرح بي ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، فعاودته فأبىٰ وانصرف، فلما سمع البائس ذلك أسقط في يده، وعاد إلىٰ أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال:

أسلم يا راحة العليل   ويا شفاء المدنف النحيل

حبك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

فقلت له: يا فلان، اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتىٰ سمعت صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة.

لذا كان للسلف في الحرص على غض البصر شأن عجيب.

نعم، هؤلاء كان لهم أبصار، وعندهم غرائز، ونفوسهم تشتهي الملذات، لكنهم يخافون يومًا تنقلب فيه القلوب والأبصار، ومن تساهل بالنظرة الأولىٰ، ولم يسارع إلىٰ علاج نفسه، وقع في الداهية العظمىٰ وهي تعلق القلب، فإذا تمكن المحبوب من القلب بدأ المحب يستحسن كل ما يقع منه، وتعجبه حركاته، وتثيره ضحكاته، ويفتن بابتسامته، ويأنس بمجالسته، بل ويعجب منه بكل شيء وإن كان قبيحًا، كما ذكروا أن رجلاً كان يحب امرأة سوداء، فلما تمكن حبها من قلبه، صار كل سواد يذكره بها، فأحب كل شيء أسود، وكان يتغزل بها ويقول:

أحب الكلاب السود من أجل حبها ومن أجلها أحببت ما كان أسودًا

ومن تساهل بالنظر أوقعه ذلك في أحد الخطرين، إما عشق النساء، أو عشق الغلمان، فيصرفه ذلك عن طاعة الرحمن، إلىٰ وسوسة الشيطان.

امرأة تتعرض لأحد الصالحين

تعرضت امرأة لأحد الصالحين، فجعلت نفسه توسوس له أن يقع في الفاحشة ثم يتوب، وكان أمامه سراج فيه فتيلة تشتعل..

فقال: يا نفس أدخل أصبعي في هذا السراج فإن صبرت علىٰ حر هذه النار، مكنتك مما تريدين، ثم وضع أصبعه علىٰ لهيب النار، فاضطرب من حر النار، وسحب أصبعه، فقال: يا نفس لم تصبري علىٰ حر هذه النار التي خففت سبعين مرة عن نار الآخرة، فكيف تصبرين علىٰ عذاب الله!!

ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ذكر الدمشقي في كتابه (مطالع البدور) عن أمير القاهرة في وقته شجاع الدين الشرزي، قال: بينما أنا عند رجل بالصعيد، وهو شيخ كبير شديد السمرة، إذ حضر أولاد له بيض حسان، فسألناه عنهم، فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية، ولي معها قصة، فسألناه عنها، فقال: ذهبت إلىٰ الشام وأنا شاب، أثناء احتلال الصليبيين له، واستأجرت دكانًا أبيع فيه الكتان، فبينما أنا في دكاني إذ أتتني امرأة إفرنجية زوجة أحد قادة الصليبيين، فرأيت من جمالها ما سحرني، فبعتها وسامحتها في السعر، ثم انصرفت، وعادت بعد أيام فبعتها وسامحتها، فأخذت تتردد علي، وأنا أتبسط معها فعلمت أني أعشقها، فلما بلغ الأمر مني مبلغه، قلت للعجوز التي معها: قد تعلقت نفسي بهذه المرأة فكيف السبيل إليها؟ فقالت: هذه زوجة فلان القائد، ولو علم بنا، قتلنا نحن الثلاثة، فما زلت بها، حتىٰ طلبت مني خمسين دينارًا، وتجيء بها إلي في بيتي، فاجتهدت حتىٰ جمعت خمسين دينارًا، وأعطيتها إياها، وانتظرتها تلك الليلة في الدار، فلما جاءت إلي أكلنا وشربنا، فلما مضىٰ بعض الليل، قلت في نفسي: أما تستحي من الله!! وأنت غريب، وبين يدي الله، وتعصي الله مع نصرانية!! فرفعت بصري إلىٰ السماء وقلت: اللهم إني أشهدك أني عففت عن هذه النصرانية، حياء منك وخوفًا من عقابك، ثم تنحيت عن موضعها إلىٰ فراش آخر، فلما رأت ذلك قامت وهي غضبي ومضت، وفي الصباح، مضيت إلىٰ دكاني، فلما كان الضحىٰ، مرت علي المرأة وهي غضبىٰ، ووالله لكأن وجهها القمر، فلما رأيتها، قلت في نفسي: ومن أنت حتىٰ تعف عن هذا الجمال؟ أنت أبو بكر، أو عمر، أم أنت الجنيد العابد، أو الحسن الزاهد..

وبقيت أتحسر عليها، فلما جاوزتني، لحقت بالعجوز، وقلت لها: ارجعي بها، الليلة، فقالت: وحق المسيح، ما تأتيك إلا بمائة دينار، قلت: نعم، فاجتهدت حتىٰ جمعتها، وأعطيتها إياها، فلما كان الليل، وانتظرتها في الدار. جاءت، فكأنها القمر أقبل علي، فلما جلست، حضرني الخوف من الله، وكيف

أعصيه مع نصرانية كافرة، فتركتها خوفًا من الله، وفي الصباح، مضيت إلىٰ دكاني، وقلبي مشغول بها، فلما كان الضحىٰ، مرت علي المرأة وهي غضبىٰ، فلما رأيتها، لمت نفسي علىٰ تركها، وبقيت أتحسر عليها، فسألت العجوز، فقالت: ما تفرح بها، إلا بخمسمائة دينار، أو تموت كمدًا، قلت: نعم، وعزمت علىٰ بيع دكاني، وبضاعتي، وأعطيها الخمسمائة دينار، فبينما أنا كذلك، إذ منادي النصارىٰ ينادي في السوق، يقول: يا معاشر المسلمين إن الهدنة التي بيننا وبينكم، قد انقضت، وقد أمهلنا من هنا من التجار المسلمين أسبوعًا، فجمعت ما بقي من متاعي وخرجت من الشام وفي قلبي من الحسرة ما فيه، ثم أخذت أتاجر ببيع الجواري، عسىٰ أن يذهب ما بقلبي من حب ما فيه، فمضىٰ لي علىٰ ذلك ثلاث سنين، ثم جرت وقع حطين، واستعاد المسلمون بلاد الساحل، وطلب مني جارية للملك الناصر، وكان عندي جارية حسناء، فاشتروها مني بمائة دينار، فسلموني تسعين دينارًا، وبقيت لي عشرة دنانير، فقال الملك: امضوا به إلىٰ البيت الذي فيه المسبيات من نساء الإفرنج، فليختر منهن واحدة بالعشرة دنانير التي بقيت له، فلما فتحوا لي الدار، رأيت صاحبتي الإفرنجية، فأخذتها، فلما مضيت إلىٰ بيتي، قلت لها: تعرفيني؟! قالت: لا، قلت: أنا صاحبك التاجر، الذي أخذت مني مائة وخمسين دينارًا، وقلت لي: لا تفرح بي إلا بخمسمائة دينار، ها أنا أخذتك ملكًا بعشرة دنانير، فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فأسلمت وحسن إسلامها، فتزوجتها، فلم تلبث أن أرسلت أمها إليها بصندوق، فلما فتحناه، فإذا فيه الصرتان التي أعطيتها، في الأولىٰ الخمسون دينارًا، وفي الأخرىٰ المائة، وفيه لباسها الذي كنت أراها فيه، وهي أم هؤلاء الأولاد، وهي التي طبخت لكم العشاء.

نعم، ومن ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه..

فهذا طرف من أخبار أهل العفة، وهذه الطائفة لعفتهم أسباب:

أقواها إجلال الجبار، ومراقبته في السر والعلن، والخوف من الله تعالىٰ، فهو الذي وهبهم القوىٰ والأسماع والأبصار، والعبد قد يختفي من الناس، ولكن أنىٰ له أن يختفي من الله، وهو معه، والمرأة العفيفة، لا تهتك سترها، ولا تدنس عرضها، وإن كان في ذلك فقدان حياتها.

ذكر الخطابي في كتابه ﴿عدالة السماء﴾: أنه كان ببغداد قبل قرابة الأربعين سنة، رجل يعمل جزارًا يبيع اللحم، وكان يذهب قبل الفجر إلىٰ دكانه، فيذبح الغنم، ثم يرجع إلىٰ بيته، وبعد طلوع الشمس يفتح المحل ليبيع اللحم، وفي أحد الليالي بعدما ذبح الغنم، رجع في ظلمة الليل إلىٰ بيته، وثيابه ملطخة بالدم، وفي أثناء الطريق سمع صيحة في أحد الأزقة المظلمة، فتوجه إليها بسرعة، وفجأة سقط علىٰ جثة رجل قد طعن عدة طعنات، ودماؤه تسيل، والسكين مغروسة في جسده، فانتزع السكين، وأخذ يحاول حمل الرجل ومساعدته، والدماء تنزف علىٰ ثيابه..

لكن الرجل مات بين يديه، فاجتمع الناس، فلما رأوا السكين في يده، والدماء علىٰ ثيابه، والرجل فزع خائف اتهموه بقتل الرجل، ثم حكم عليه بالقتل، فلما أحضر إلىٰ ساحة القصاص، وأيقن بالموت، صاح بالناس، وقال: أيها الناس أنا والله ما قتلت هذا الرجل، لكني قتلت نفسًا أخرىٰ، منذ عشرين سنة، والآن يقام علي القصاص، ثم قال: قبل عشرين سنة كنت شابًا فتيًا، أعمل علىٰ قارب أنقل الناس بين ضفتي النهر، وفي أحد الأيام جاءتني فتاة غنية مع أمها، ونقلتهما، ثم جاءتا في اليوم التالي، وركبتا في قاربي، ومع الأيام، بدأ قلبي يتعلق بتلك الفتاة، وهي كذلك تعلقت بي، خطبتها من أبيها لكنه أبىٰ أن يزوجني لفقري، ثم انقطعت عني بعدها، فلم أعد أراها ولا أمها، وبقي قلبي معلقًا بتلك الفتاة، وبعد سنتين أو ثلاث، كنت في قاربي، أنتظر الركاب، فجاءتني امرأة مع طفلها، وطلبت نقلها إلىٰ الضفة الأخرىٰ، فلما ركبت، وتوسطنا النهر، نظرت إليها، فإذا هي صاحبتي الأولىٰ، التي فرق أبوها بيننا،

ففرحت بلقياها، وبدأت أذكرها بسابق عهدنا، والحب والغرام، لكنها تكلمت بأدب، وأخبرتني أنها قد تزوجت وهذا ولدها، فزين لي الشيطان الوقوع بها، فاقتربت منها، فصاحت بي، وذكرتني بالله، لكن لم ألتفت إليها، فبدأت المسكينة تدافعني بما تستطيع، وطفلها يصرخ بين يديها، فلما رأيت ذلك أخذت الطفل، وقربته من الماء وقلت إن لم تمكنيني من نفسك، غرقته، فبكت وتوسلت، لكني لم ألتفت إليها، وأخذت أغمس رأس الطفل فإذا أشفر علىٰ الهلاك أخرجته، وهي تنظر إلي وتبكي، وتتوسل، لكنها لا تستجيب لي، فغمست رأس الطفل في الماء، وشددت عليه الخناق، وهي تنظر، وتغطي عينيها، والطفل تضطرب يداه ورجلاه، حتىٰ خارت قواه، وسكنت حركته، فأخرجته فإذا هو ميت، فألقيت جثته في الماء، ثم أقبلت عليها، فدفعتني بكل قوتها، وتقطعت من شدة البكاء، فسحبتها بشعرها، وقربتها من الماء، وجعلت أغمس رأسها في الماء، وأخرجها، وهي تأبىٰ علي الفاحشة، فلما تعبت يداي، غمست رأسها في الماء، فأخذت تنتفض حتىٰ سكنت حركتها، وماتت، فألقيتها في الماء، ثم رجعت، ولم يكتشف أحد جريمتي، وسبحان من يمهل ولا يهمل، فبكىٰ الناس لما سمعوا قصته، ثم قطع رأسه، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

فتأملوا في حال هذه الفتاة العفيفة، التي يقتل ولدها بين يديها، وتموت هي، ولا ترضىٰ بهتك عرضها، فأين هذه العفة من فتيات اليوم، تبيع إحداهن عرضها بمكالمة هاتفية، أو هدية شيطانية، وتنساق وراء كلام معسول من فاسق، أو تنجر وراء شبهة من منافق.

ومن أسباب العفة: الرغبة في الدار الأخرىٰ فيها متع عظيمة، والتفكر في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلىٰ ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع هناك، قال ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة».

فلا يكاد يجمع للعبد بين لذائذ الدنيا المحرمة، ولذائذ الآخرة الدائمة، فلذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرم الله عليه من النساء والصبيان في الدنيا، خشي أن يحرم من متع الآخرة..

ومن تعلقت نفسه بالجنة وما أعد الله فيها من المتع هانت عليه متع الدنيا، وكذلك من اشتاقت نفسها إلىٰ الجنة وما فيها من زيادة حسن وجمال لها، لم تدنس عرضها في الدنيا، ويكمل الجمال ويزين للمؤمنات في الجنة، تكون المؤمنة في الجنة أكمل وأجمل.

نعم، إذا كان الله تعالىٰ قد وصف الحور العين بما وصف، وهن لم يقمن الليل، ولم يصمن النهار، فما بالك بجمالك أنت، وحسنك، وبهائك، وأنت التي طالما خلوت بربك في ظلمة الليل، يسمع نجواك، ويجيب دعاك، طالما تركت لأجله اللذات، وفارقت الشهوات، قال الله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧٢].

وروى ابن أبي الدنيا والخطيب في تاريخه عن يزيد الرقاشي قال: بلغني أن نورا سطع في الجنة لم يبق موضع في الجنة إلا دخل من ذلك النور فيه فقيل ما هذا؟ قيل: حوراء ضحكت في وجه زوجها.

هذا جمال ثغرها، وتلك حلاوة بسمتها.

ذكر ابن الجوزي في «المواعظ»: أن شابًا فقيرًا كان بائعًا يتجول في الطرقات، فمر ذات يوم ببيت، فأطلت امرأة وسألته عن بضاعته فأخبرها، فطلبت منه أن يدخل لترىٰ البضاعة، فلما دخل أغلقت الباب، ثم دعته إلىٰ الفاحشة، فصاح بها، فقالت: والله إن لم تفعل ما أريده منك صرخت، فيحضر الناس فأقول: هذا الشاب، اقتحم علي داري، فما ينتظرك بعدها إلا القتل أو السجن، فخوفها بالله فلم تنزجر، فلما رأىٰ ذلك، قال لها: أريد الخلاء، فلما دخل الخلاء: أقبل علىٰ الصندوق الذي يجمع فيه الغائط، وجعل يأخذ منه

ويلقي علىٰ ثيابه، ويديه، وجسده، ثم خرج إليها، فلما رأته صاحت، وألقت عليه بضاعته، وطردته من البيت، فمضىٰ، يمشي في الطريق والصبيان، يصيحون وراءه: مجنون، مجنون، حتىٰ وصل بيته، فأزال عنه النجاسة، واغتسل، فلم يزل يشم منه رائحة المسك، حتىٰ مات.

رحلة المشتاق

وانظر إلى ذاك الشاب النضر، الذي نشأ في بيت عز وسلطان، ومنعة ومكان، كان معظمًا عند قومه، مهيبًا في بلده، مقدمًا بين أقرانه، فريدًا في زمانه، انظر إلىٰ سلمان الفارسي ﷺ، كان مجوسيًّا، يعبد النار وكان أبوه سيد قومه، وكان يحبه حبًّا عظيمًا، وقد حبسه في بيته عند النار، ومع طول ملازمته للنار، اجتهد في المجوسية، حتىٰ صار قاطن النار الذي يوقدها، وكان لأبيه بستان عظيم، يذهب إليه كل يوم.

فشغل الأب في بنيان له يومًا في داره، فقال لسلمان: فانطلق إلىٰ ضيعتي فاصنع فيها كذا وكذا.. ففرح سلمان وخرج من حبسه، وتوجه إلىٰ البستان، فبينما هو في طريقه إذ مر بكنيسة للنصارىٰ، فسمع صلاتهم فيها، فدخل عليهم ينظر ماذا يصنعون، وأعجبه ما رأىٰ من صلاتهم، ورغب في اتباعهم، وقال في نفسه: هذا خير من ديننا الذي نحن عليه، فسألهم: عن دينهم، فقالوا: أصله بالشام، وأعلم الناس به هناك، فلم يزل عندهم، حتىٰ غابت الشمس.

فلما رجع إليه، قال أبوه: أي بني أين كنت؟ قال: إني مررت علىٰ ناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من أمرهم وصلاتهم، ورأيت أن دينهم خير من ديننا، ففزع أبوه، وقال: أي بني، دينك ودين آبائك خير من دينهم، قال: كلا والله، بلد دينهم خير من ديننا، فخاف أبوه أن يخرج من دين المجوس، فجعل في رجله قيدًا، ثم حبسه في البيت.

فلما رأى سلمان ذلك، بعث إلىٰ النصارىٰ رسولاً من عنده، يقول لهم: إني

قد رضيت دينكم ورغبت فيه، فإذا قدم عليكم ركب من الشام من النصارىٰ، فأخبروني بهم، فما مضىٰ زمن حتىٰ قدم عليهم ركب من الشام، تجار من النصارىٰ، فبعثوا إلىٰ سلمان فأخبروه.

فقال للرسول: إذا قضىٰ التجار حاجاتهم وأرادوا الرجوع إلىٰ الشام فآذنوني، فلما أراد التجار الرجوع أرسلوا إليه، وواعدوه في مكان، فتحيل حتىٰ فك القيد من قدميه، ثم خرج إليهم فانطلق معهم إلىٰ الشام، فلما دخل الشام، سألهم: من أفضل أهل هذا الدين علمًا؟

قالوا: الأسقف الذي في الكنيسة، فتوجه إلىٰ الكنيسة: فأخبر الأسقف خبره، وقال له: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحب أن أكون معك، أخدمك، وأصلي معك، وأتعلم منك، فقال له الأسقف: أقم معي، فمكث معه سلمان في الكنيسة، فكان سلمان يحرص علىٰ الخيرات، والتعبد والصلوات، أما الأسقف فكان رجل سوء في دينه، كان يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه الأموال، اكتنزها لنفسه، ولم يعطها المساكين، فأبغضه سلمان بغضًا شديدًا، لكنه لا يستطيع أن يخبر أحدًا بخبره، فالأسقف معظم عندهم، أما هو فغريب، قريب العهد بدينهم، فلم يلبث الأسقف أن مات، فحزن عليه قومه، واجتمعوا ليدفنوه، فلما سلمان حزنهم عليه قال: إن هذا كان رجل سوء، يأمرك بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا، قالوا: فما علامة ذلك؟ قال: أنا أدلكم علىٰ كنزه، فمضىٰ بهم حتىٰ دلهم علىٰ موضع المال، فحفروه، فأخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبًا وفضة، فقالوا: والله لا ندفنه أبدًا، ثم صلبوه علىٰ خشبة، ورجموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر، فجعلوه مكانه في الكنيسة.

قال سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس، كان خيرًا منه، أعظم رغبة في الآخرة، ولا أزهد في الدنيا، ولا أدأب ليلاً ولا نهارًا منه، فأحببته حبًّا ما علمت أني أحببته شيئًا كان قبله، فلم يزل سلمان يخدمه، حتىٰ كبر وحضرته

الوفاة.

فحزن على فراقه، وخاف أن لا يثبت على الدين بعده، فقال له: يا فلان، قد حضرك ما ترىٰ من أمر الله، فإلىٰ من توصي بي؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا علىٰ ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا، وتركوا كثيرًا مما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل وهو فلان، وهو علىٰ ما كنت عليه فالحق به، فلما توفي الرجل العابد، خرج سلمان من الشام إلىٰ العراق، فأتىٰ صاحب الموصل، فأقام عنده، حتىٰ حضرته الوفاة، فأوصىٰ سلمان لرجل بنصيبين، فشد رحاله إلىٰ الشام مرة أخرىٰ، حتىٰ أتىٰ نصيبين، فأقام عند صاحبه طويلاً، حتىٰ نزل به الموت، فأوصاه أن يصاحب رجلاً بعمورية بالشام، فذهب إلىٰ عمورية، وأقام عند صاحبه، واكتسب حتىٰ كانت عنده بقرات وغنيمة، ثم لم يلبث العابد أن مرض ونزل به الموت، فحزن سلمان عليه، وقال له مودعًا: يا فلان إلىٰ من توصي بي؟ فقال الرجل الصالح: يا سلمان، والله ما أعلم أصبح علىٰ مثل ما نحن فيه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، يعني لقد غير الناس وبدلوا، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلىٰ أرض بين حرتين (أي أرضين سوداوين) بينهما نخل، به علامات لا تخفىٰ: أنه يأكل الهداية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، إذا رأيته عرفته، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل، ثم مات ودفن فمكث سلمان بعمورية ما شاء الله أن يمكث، وهو يلتمس من يخرج به إلىٰ أرض النبوة، فما زال كذلك، حتىٰ مر به نفر من قبيلة كلب، تجار، فسألهم عن بلادهم، فأخبروه أنهم من أرض العرب.

فقال لهم: تحملوني إلىٰ أرضكم، وأعطيكم بقراتي وغنيمتي؟ قالوا: نعم، فأعطاهم إياها، وحملوه معهم.

حتىٰ إذا قدموا به وادي القرىٰ، طمعوا في المال، فظلموه وادعوا أنه عبد مملوك لهم، وباعوه لرجل من اليهود، فلم يستطع سلمان أن يدفع عن نفسه،

فصار عند هذا اليهودي يخدمه، حتىٰ قدم علىٰ اليهودي يومًا ابن عم له من المدينة من يهود بنىٰ قريظة، فاشترىٰ سلمان منه، فاحتمله إلىٰ المدينة، فلما رآها، ورأىٰ نخلها، وحجارتها، عرف أنها أرض النبوة التي وصفها له صاحبه، فأقام بها، وأخذ يترقب أخبار النبي المرسل، ومرت السنوات، وبعث الله رسوله ﷺ فأقام بمكة ما أقام، وسلمان لا يسمع له بذكر، لشدة ما هو فيه من الخدمة عند اليهودي، ثم هاجر ﷺ إلىٰ المدينة ومكث بها، وسلمان لا يدري عنه شيئًا، فبينما هو يومًا في رأس نخلة لسيده، يعمل فيها، وسيده جالس أسفل النخلة.

إذا أقبل رجل يهودي من بني عمه، حتىٰ وقف عليه، فقال: أي فلان، قاتل الله بني قيلة، يعني الأوس والخزرج، إنهم الآن لمجتمعون علىٰ رجل بقباء، قدم من مكة يزعمون أنه نبي، فلما سمع سلمان ذلك، انتفض جسده، وطار فؤاده، ورجفت النخلة، حتىٰ كاد أن يسقط علىٰ صاحبه، ثم نزل سريعًا وهو يصيح بالرجل: ماذا تقول؟ ما هذا الخبر؟

فغضب سيده، ورفع يديه فلطمه بها لطمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل علىٰ عملك، فسكت سلمان، وصعد نخلته يكمل عمله، وقلبه مشغول بخبر النبوة، ويريد أن يتيقن من صفات هذا النبي، التي وصفها صاحبه، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فلما أقبل الليل، جمع ما كان عنده من طعام، ثم خرج حتىٰ جاء إلىٰ رسول الله وهو جالس بقباء فدخل عليه، فإذا حوله نفر من أصحابه، فقال: إنه بلغني أنكم أهل حاجة وغربة، وقد كان عندي شيء وضعته للصدقة، فجئتكم به، ثم وضعه سلمان بين يدي النبي ﷺ، واعتزل ناحية ينظر إليه ماذا يفعل؟

فنظر النبي ﷺ إلىٰ الطعام، ثم التفت إلىٰ أصحابه، فقال: «كلوا». وأمسك هو ﷺ فلم يأكل، فلما رأىٰ سلمان ذلك قال في نفسه: هذه والله واحدة، لا يأكل الصدقة، وبقي اثنتان، ثم رجع إلىٰ سيده.

وبعدها بأيام، جمع طعامًا آخر، ثم أقبل علىٰ رسول الله ﷺ فسلم عليه، ثم قال له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أهديتها كرامة لك، ليست بصدقة، ثم وضعها بين يديه ﷺ، فمد يده إليها، فأكل وأكل أصحابه.

فلما رأىٰ سلمان ذلك قال في نفسه: هذه أخرىٰ، وبقي واحدة، أن ينظر إلىٰ خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ، ولكن أنىٰ له ذلك، رجع سلمان إلىٰ خدمة سيده، وقلبه مشغول بحال رسول الله ﷺ.

فمكث أيامًا، ثم مضىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ يبحث عنه، فإذا هو في بقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من الأنصار، فجاءه فإذا حوله أصحابه، وعليه شملتان مؤتزرًا بواحدة، مرتديًا بالأخرىٰ، كلباس الإحرام، فسلم عليه، ثم استدار ينظر إلىٰ ظهره، هل يرىٰ الخاتم الذي وصف له صاحبه!! فلما رأىٰ النبي ﷺ استدارته عرف أنه يستثبت في شيء وصف له، فحرك كتفيه، فألقىٰ رداءه عن ظهره، فنظر سلمان إلىٰ الخاتم، فعرفه، فانكب عليه يقبله ويبكي.

فقال له النبي ﷺ: «تحول». أي اجلس أمامي، فاستدار حتىٰ قابل وجه النبي ﷺ، فسأله ﷺ عن خبره، فقص عليه قصته، وأخبره أنه كان شابًّا مترفًا، ترك العز والسلطان، طلبًا للهداية والإيمان، حتىٰ تنقل بين الرهبان، يخدمهم ويتعلم منهم، واستقر به المقام عبدًا مملوكًا ليهودي في المدينة..

ثم أخذ سلمان ينظر إلىٰ رسول الله ﷺ، ودموعه تجري علىٰ خديه، فرحًا وبشرًا، ثم أسلم، ونطق الشهادتين، ومضىٰ إلىٰ سيده اليهودي، فزاده اليهودي شغلاً وخدمة، فكان الصحابة يجالسون النبي ﷺ، أما هو فقد شغله الرق، عن مجالسته، حتىٰ فاتته معركة بدر ثم أحد.

فلما رأىٰ رسول الله ﷺ ذلك قال له: «كاتب يا سلمان». أي اشتر نفسك من سيدك بمال تؤديه إليه، فسأل سلمان صاحبه أن يكاتبه، فشدد عليه اليهودي، وأبىٰ عليه إلا بأربعين أوقية من فضة، وثلاثمائة نخلة، يجمعها فسائل صغار، ثم يغرسها، واشترط عليه أن تحيا كلها، فلما أخبر سلمان رسول الله ﷺ بما

اشترط عليه اليهودي، قال ﷺ لأصحابه: «أعينوا أخاكم بالنخل». فأعانه المسلمون، وجعل الرجل يمضي إلىٰ بستانه فيأتيه بما يستطيع من فسيلة نخل، فلما جمع النخل.

فقال ﷺ: «يا سلمان، اذهب ففقر لها - أي احفر لها - لغرسها، فإذا أنت أردت أن تضعها فلا تضعها حتىٰ تأتيني فتؤذنني». فبدأ سلمان يحفر لها، وأعانه أصحابه، حتىٰ حفر ثلاثمائة حفرة، ثم جاء فأخبر النبي ﷺ، فخرج ﷺ معه إليها، فجعل الصحابة يقربون له فسيلة النخل، ويضعه ﷺ بيده في الحفر.

قال سلمان: فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها نخلة واحدة، فلما أدىٰ النخل إلىٰ اليهودي، بقي عليه المال، فأتي النبي ﷺ يومًا بذهب من بعض المغازي، فالتفت إلىٰ أصحابه وقال: «ما فعل الفارسي المكاتب؟». فدعوه له، فقال ﷺ: «خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان». فأخذها سلمان، فأدىٰ منها المال إلىٰ اليهودي، وعتق، ثم لازم النبي ﷺ حتىٰ مات.

هذا خبر سلمان الفارسي، الذي ترك العيش الهني، والوطن الرضي، وأنواع الشهوات، وسافر في البلاد، وتنقل بين ذل الخدمة، ورق العبودية، طلبًا للهداية الأبدية، عظم الخالق في نفسه، واستأنس بذكره وقربه، وتنعم بمناجاته وحبه، فصغر ما دونه في عينه، تعب أيامًا قليلة، أعقبته راحة طويلة، إذا ذكرت له الجنات، طارت نفسه شوقًا إليها، وتخيل لو أنه فيها ينعم، ومن أشجارها يأكل، وإلىٰ خالقها ينظر، فينسىٰ عند ذلك شدة العذاب، وجليل المصاب..

مسيلمة الكذاب

في السنة العاشرة من الهجرة، خرج مسيلمة الكذاب في اليمامة، في نجد من الجزيرة العربية، فادعىٰ النبوة، وأنه رسول أنزل عليه قرآن..

ومن قرآنه أنه كان يقول: والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا. ويهذي هذيانًا، يسميه

قرآنًا، فاستخف قومه فأطاعوه، فاتبعه سفهاء رعاع، حتىٰ صار له جند وأتباع، فاغتر بقوته، وتطاول بسطوته، فأرسل بكتاب إلىٰ النبي يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون..

فلما قرئ الكتاب علىٰ النبي ﷺ، عجب من جرأة مسيلمة علىٰ الملك ـلام، فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلىٰ مسيلمة الكذاب، السلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»..

ثم تلفت رسول الله حوله، ينظر في وجوه أصحابه، يلتمس منهم رجلاً فطنًا جريئًا يحمل هذا الكتاب، إلىٰ مسيلمة الكذاب، فابتدر حبيب بن زيد ﷺ، شاب ما أسرته عن خدمة الدين شهوة، ولا انشغل عن ربه بلذة، امتلأ قلبه تصديقًا وإيمانًا، وقطع الليل تسبيحًا وقرآنًا..

أخذ الكتاب من يد النبي الأواب، ومضىٰ به، من المدينة إلىٰ اليمامة، فسار أكثر من ألف ميل، حتىٰ وصل إلىٰ مسيلمة، فلما دخل علىٰ مسيلمة الكذاب، ناوله الكتاب، فنظر مسيلمة في الكتاب، فغضب وأزبد وأرعد، ثم جمع قومه حوله، وأوقف حبيب ابن زيد بين يديه، وسأله عن هذا الكتاب..

فقال حبيب: هو من رسول الله ﷺ..

فقال مسيلمة: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

قال حبيب: نعم، أشهد أن محمدًا رسول الله..

قال: وتشهد أني رسول الله؟

فقال له حبيب مستهزئًا: إن في أذني صممًا عما تقول، يعني أنت أقل وأذل، من أن يسمع كلامك..

فأعاد عليه مسيلمة: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

قال حبيب: نعم، أشهد أن محمدًا رسول الله..

قال: وتشهد أني رسول الله؟ فقال حبيب: إني لا أسمع شيئًا!!

فأعاد عليه السؤال، فكرر حبيب الجواب..

فغضب مسيلمة، ودعا السياف، وأمره أن يطعن بالسيف في جسد هذا الفتىٰ، وهو يكرر عليه السؤال، ولا يسمع إلا جوابًا واحدًا، لا يزيده إلا غيظًا وحقدًا..

فأمر مسيلمة السياف أن يفتح فم حبيب ويقطع لسانه، فأمسك به الجنود وفتحوا فمه، حتىٰ قطع السياف لسانه الذاكر، ثم أوقفوه بين يدي مسيلمة الفاجر، والدماء تسيل من فمه الطاهر..

فصاح به مسيلمة: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

فأشار حبيب برأسه: نعم، قال: وتشهد أني رسول الله؟

فأشار برأسه: لا، فأمر مسيلمة سيافه، فقطع يده، ثم قطع رجله، وجدع أنفه، واحتز أذنه، وراح يقطع جسده قطعة قطعة، ولحمه يتساقط، ودماؤه تسيل، وهو ينتفض علىٰ الأرض، ويئن من الألم، حتىٰ مات ﷺ..

نعم، قطع لسانه، ومزق جسده، وكسرت عظامه، في سبيل رضا الرحمن جل جلاله..

حتىٰ إذا أوقف بين يديه يوم القيامة، فسأله ربه: يا عبدي لم قطع لسانك، وجدع أنفك، وبترت يدك، وسفك دمك، قال: في رضاك يا رب العالمين، وما لجرح إذا أرضاكم ألم..

نعم، من أجلكم يا رب، تنقلب الآلام إلىٰ غرام، والأنات إلىٰ لذات، والبكاء إلىٰ حداء، والدماء إلىٰ مسك وفيحاء..

ولئن عذبت يا رب في الأرض، فبيض وجهي يوم العرض..

عندها يفرح ربه بلقائه، ويبدل بألمه نعمائه، يرفع درجته، ويغفر زلته، ولعله

يناجيه ربه فيقول: يا عبدي تقلب في النعيم كما تشاء، فاليوم أنعمك نعيمًا لا شقاء معه أبدًا، وأعطيك ملكًا لا تشارك فيه أحدًا، الملائكة يدخلون عليك من كل باب، والنعيم بين يديك يأخذ بالألباب، ولدينا مزيد وزيادة، وفرحة وسعادة..

فآه، ما أحسن تلك المحاضرة، مع ملك الدنيا والآخرة..

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٥-٥٨]..

نعم هو رب رحيم، حياة القلوب في محبته، وأنس النفوس في معرفته، وراحة الأبدان في طاعته، ولذة الأرواح في خدمته، وكمال الألسن بالثناء عليه وذكره، وعزها بالتعبد له وشكره.

أحد ملوك غسان

كان جبلة بن الأيهم، ملكًا من ملوك غسان، دخل إلىٰ قلبه الإيمان، فكتب إلىٰ الخليفة عمر رضي الله عنه، يستأذنه في القدوم عليه، فسر عمر والمسلمون لذلك سرورًا عظيمًا..

وكتب إليه عمر: أن أقدم إلينا، ولك ما لنا وعليك ما علينا..

فأقبل جبلة في خمسمائة فارس من قومه، فلما دنا من المدينة لبس ثيابًا منسوجة بالذهب، ووضع علىٰ رأسه تاجًا مرصعًا بالجوهر، وألبس جنوده ثيابًا فاخرة، ثم دخل المدينة، فلم يبق أحد إلا خرج ينظر إليه حتىٰ النساء والصبيان، فلما دخل علىٰ عمر رحب به وأدنىٰ مجلسه!!

فلما دخل موسم الحج حج عمر، وخرج معه جبلة، فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطئ علىٰ إزاره رجل فقير من بني فزارة، فالتفت إليه جبلة مغضبًا، فلطمه فهشم أنفه، فغضب الفزاري، واشتكاه إلىٰ عمر بن الخطاب..

فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جبلة إلىٰ أن لطمت أخاك في الطواف، فهشمت أنفه!

فقال: إنه وطئ إزاري؟ ولولا حرمة البيت لضربت عنقه..

فقال له عمر: أما الآن فقد أقررت، فإما أن ترضيه، وإلا اقتص منك، ولطمك علىٰ وجهك..

قال: يقتص مني وأنا ملك وهو سوقة!

قال عمر: يا جبلة، إن الإسلام قد ساوىٰ بينك وبينه، فما تفضله بشيء إلا بالتقوىٰ..

قال جبلة: إذن أتنصر..

قال عمر: من بدل دينه فاقتلوه، فإن تنصرت ضربت عنقك..

فقال: أخرني إلىٰ غد يا أمير المؤمنين..

قال: لك ذلك، فلما كان الليل خرج جبلة وأصحابه من مكة، وسار إلىٰ القسطنطينية فتنصر، فلما مضىٰ عليه زمان هناك، ذهبت اللذات، وبقيت الحسرات، فتذكر أيام إسلامه، ولذة صلاته وصيامه.

فندم على ترك الدين، والشرك برب العالمين.. ثم ما زال علىٰ نصرانيته حتىٰ مات، نعم، مات علىٰ الكفر لأنه تكبر عن الذلة لشرع رب العالمين.

الأعشى بن قيس

وانظر إلى الأعشى بن قيس، فكان شيخًا كبيرًا شاعرًا، خرج من اليمامة، من نجد، يريد النبي عليه الصلاة والسلام، راغبًا في دخول الإسلام..

مضىٰ علىٰ راحلته، مشتاقًا للقاء رسول الله ﷺ، بل كان يسير وهو يردد في مدح النبي ﷺ وما زال يقطع الفيافي والقفاز يحمله الشوق والغرام، إلىٰ النبي ﷺ، راغبًا في الإسلام، ونبذ عبادة الأصنام..

فلما كان قريبًا من المدينة اعترضه بعض المشركين فسألوه عن أمره؟ فأخبرهم أنه جاء يريد لقاء رسول الله ﷺ ليسلم، فخافوا أن يسلم هذا الشاعر، فيقوىٰ شأن النبي ﷺ، فشاعر واحد وهو حسان بن ثابت قد فعل بهم الأفاعيل، فكيف لو أسلم شاعر العرب الأعشىٰ بن قيس..

فقالوا له: يا أعشىٰ دينك ودين آبائك خير لك..

قال: بل دينه خير وأقوم..

قالوا: يا أعشىٰ، إنه يحرم الزنا، قال: أنا شيخ كبير، وما لي في النساء حاجة..

فقالوا: إنه يحرم الخمر..

فقال: إنها مذهبة للعقل، مذلة للرجل، ولا حاجة لي بها..

فلما رأوا أنه عازم علىٰ الإسلام، قالوا: نعطيك مائة بعير وترجع إلىٰ أهلك، وتترك الإسلام..

قال: أما المال، فنعم، فجمعوها له، فارتد علىٰ عقبيه، وكر راجعًا إلىٰ قومه بكفره، واستاق الإبل أمامه، فرحًا بها مستبشرًا، فلما كاد أن يبلغ دياره، سقط من علىٰ ناقته فانكسرت رقبته ومات ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل:١٠٧-١٠٩].

عبيد الله بن جحش

وإذا أردت أن تتيقن، بعاقبة مخالطة الفساق وأهل الفساد، فانظر إلىٰ عبيد الله بن جحش، كان مجالسًا للنبي ﷺ، بل كان ممن أوذي في دينه وضيق عليه في مكة، فهاجر مع المسلمين إلىٰ الحبشة، ترك أهله وبلده، وماله وبيته، في سبيل الله، وكانت معه زوجته أم حبيبة..

فكثرت مخالطته للنصارىٰ، وابتعد عن المسلمين، فما زال حاله يتردىٰ، حتىٰ أصبح يومًا فقال لزوجته أم حبيبة: إني نظرت في الأديان فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية..

ففزعت، وقالت: والله ما هو خير لك، واتق الله، فلم يلتفت إليها، بل كفر بربه، وعلق الصليب علىٰ صدره، وأكب علىٰ الخمر يشربها، ويخالط النصارىٰ، حتىٰ مات..

نسأل الله الثبات على دينه حتى الممات..

ولعظيم أثر الصحبة في الثبات، أمر الله المؤمنين والمؤمنات، بلزوم الصالحين والصالحات، وحذرهم من حال غيرهم، فقال الله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٧، ٢٨].

ومما يزيد المؤمن صلابة في دينه، وثباتًا عليه، أن يحمل هم الدين، أن يكون مؤثرًا في العصاة لا متأثرًا بهم، ينصح هذا، ويعظ ذاك، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، يدعو بالشريط النافع، والكتاب المؤثر، والنصيحة الصادقة، ليزداد إيمانًا مع إيمانه، وقوة في استقامته..

الجبال الراسيات

وانظر إلى الجبال الراسيات، والخطى الثابتات، انظر إلى صحابة رسول الله ﷺ..

انظر إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه، وتأمل في حرصه علىٰ الدعوة إلىٰ الله، وأعجب من قوة ثباته علىٰ الدين..

أخرج ابن سعد في الطبقات، والطبري في الرياض النضرة: أن النبي ﷺ في

أول بعثته كان يدعو إلىٰ الإسلام في مكة سرًّا، وكان المسلمون يختفون بدينهم، فلما تكامل عددهم ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر ﷺ علىٰ رسول الله ﷺ في الظهور..

فقال ﷺ: «يا أبا بكر، إنا قليل».

فلم يزل أبو بكر يلح عليه حتىٰ خرج ﷺ إلىٰ المسجد، وخرج المسلمون معه وتفرقوا في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا، فكان أول خطيب دعا إلىٰ الله..

فلما رأىٰ المشركون من يسفه آلهتهم، وينتقص دينهم، ثاروا علىٰ أبي بكر وعلىٰ المسلمين، فجعلوا يضربونهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، وأبو بكر يجهر بالدين، فأحاط به جمع منهم، فضربوه، حتىٰ وقع علىٰ الأرض، وهو كهل قد قارب عمره الخمسين سنة، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، وجعل يطأ علىٰ بطنه وصدره، ويضربه بنعلين مخصوفين، ويحرفهما علىٰ وجهه، حتىٰ مزق لحم وجهه، وجعلت دماؤه تسيل، حتىٰ ما يعرف وجهه من أنفه، وأبو بكر مغمىٰ عليه، فجاءت قبيلته بنو تيم يتعادون، ودفعوا المشركين عنه، وحملوه في ثوب، ولا يشكون في موته، حتىٰ أدخلوه منزله، وقعد أبوه وقومه عند رأسه، يكلمونه فلا يجيب، حتىٰ إذا كان آخر النهار، أفاق، وفتح عينيه، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟؟

فغضب أبوه وسبه، ثم خرج من عنده، فقعدت أمه عند رأسه، تجتهد أن تطعمه أو تسقيه، وتلح عليه، وهو يردد: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت: والله ما لي علم بصاحبك..

فقال: اذهبي إلىٰ أم جميل بنت الخطاب، فسليها عنه، وكانت أم جميل مسلمة تكتم إسلامها..

فخرجت أمه حتىٰ جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن

عبد الله؟

فقالت أم جميل: ما أعرف أبا بكر، ولا محمدًا، ولكن إن أحببت مضيت معك إلىٰ ابنك..

قالت: نعم، فمضت معها، فلما دخلت علىٰ أبي بكر، وجدته صريعًا دنفًا، ممزق الوجه، ودماؤه تسيل.

فبكت وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لكِ منهم، فالتفت إليها أبو بكر، وما يكاد يطيق، فقال: يا أم جميل، ما فعل رسول الله ﷺ؟

قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها..

قالت: سالم صالح، قال: فأين هو؟

قالت: في دار أبي الأرقم..

فقالت أمه: قد عرفت خبر صاحبك، فكل واشرب الآن..

فقال: لا، إن لله علي أن لا أذوق طعامًا أو شرابًا، حتىٰ آتي رسول الله ﷺ، فأراه بعيني.

فأمهلتاه، حتىٰ إذا أظلم الليل، وهدأ الناس، حاول أن يقوم، فلم يستطع، فخرجت به أهه وأم جميل يتكئ عليهما، حتىٰ أدخلتاه علىٰ رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ، أكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة..

وأبو بكر يقول: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، ليس بي من بأس، إلا ما نال الفاسق من وجهي..

ثم قال: يا رسول الله، هذه أمي برة بولدها، وأنت رجل مبارك، فادعها إلىٰ الله ﷻ، وادع الله لها، عسىٰ الله أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم دعاها إلىٰ الله، فأسلمت..

فهذا الحرص العظيم، من أبي بكر، كان أول ثمراته أن ثبته الله على الدين..

فإنه لما مات رسول الله ﷺ، شكك بعض الناس في موته، وقام عمر رضي الله عنه بسيفه يتهدد من يقول بموته، فيرقىٰ أبو بكر المنبر بخطىٰ ثابتات، ويفصل النزاع بقوله: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم ترتد قبائل حول مكة، فيقف لهم أبو بكر، ثابتًا راسيًا، حتىٰ أعاد قوة الإسلام..

بل إن من ثمرات هذا الحرص أن أسلم علىٰ يديه أكثر من ثلاثين صحابيًا، ستة منهم من العشرة المبشرين بالجنة.

وينبغي على الفتى والفتاة، بل على المسلمين والمسلمات، إذا عرضت لأحدهم شهوة، أو شعر في قلبه بقسوة، أو أحس بفتور عن الطاعات، ورغبة في المحرمات، أن يشكو همه إلىٰ أخ ناصح أمين..

وقد كان بعض السلف يقول لبعض: تعال بنا نؤمن ساعة..

وروىٰ الترمذي والنسائي بسند حسن، أن مرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه، كان يخرج من المدينة، إلىٰ مكة مختفيًا، ويذهب إلىٰ البيوت التي يحبس فيها أسرىٰ المسلمين فيطلقهم من قيودهم، ويحملهم إلىٰ المدينة.

فدخل مكة ليلة من الليالي، وواعد أحد الأسرىٰ في موضع منها، فبينما هو يمشي إليه، إذ مر بامرأة بغي بمكة، يقال لها عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما رآها اختبأ في ظل جدَّار فرأته، فأقبلت إليه، فلما نظرت إلىٰ وجهه عرفته، فقالت: مرثد؟ قال: مرثد..

قالت: مرحبًا وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة..

فقال: يا عناق حرم الله الزنا..

فقالت: لتفعلن أو لأفضحن، قال: لا..

فصاحت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم..

ففزع مرثد، وهرب، فتبعه ثمانية منهم، فدخل حديقة، واختبأ في غار فيها، فدخلوا وراءه فأعماهم الله عنه، فرجعوا إلىٰ رحالهم..

فلبث في مخبئه يسيرًا، ثم خرج إلىٰ موضع صاحبه، فحمله معه حتىٰ خرج به من مكة، ففك عنه قيوده، حتىٰ أتيا المدينة..

نعم، وصلا المدينة، لكن قلبه لا زال يتذكر تلك المرأة، فلم يطق صبرًا..

فأتىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنكح عناقًا، أتزوجها؟

فأعرض عنه، فأعاد عليه: يا رسول الله، أنكح عناقًا..

فسكت عنه النبي ﷺ، حتىٰ أنزل الله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

فدعاه النبي عليه الصلاة والسلام، فقال له: «يا مرثد: الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها».

فرضي الله عن مرثد، تأمل كيف تدارك نفسه رضي الله عنه، بسؤال رسول الله ﷺ، حتىٰ ذهب ما وسوس به الشيطان له.

وذكر أبو نعيم في الحلية: عن عمرو بن ميمون بن مهران قال: بعدما كبر أبي وذهب بصره، قال لي: هلم بنا إلىٰ الحسن البصري، فخرجت به أقوده إلىٰ بيت الحسن البصري، فلما دخلنا علىٰ الحسن قال له أبي: يا أبا سعيد، قد أنست من قلبي غلظة، فاستلن لي منه.. فقرأ الحسن: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]، فبكىٰ أبي، حتىٰ سقط، وأخذ يضرب برجله الأرض، كما تضرب الشاة المذبوحة..

وأخذ الحسن البصري يبكي معه وينتحب، فجاءت الجارية، فقالت: قد أتعبتم الشيخ، قوموا تفرقوا، فأخذت بيد أبي فخرجت به، فلما صرنا في

الطريق، وكزني أبي في صدري وكزة، ثم قال: يا بني، لقد قرأ علينا آيات، لو فهمتها بقلبك لأبقت فيه كلومًا، أي جروحًا.

هل لك من خبيئة؟

كان الصالحون، يعجبهم أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح، بينه وبين ربه لا يعلمها أحد، من صدقة في السر، أو نصيحة لمقصر، أو كفالة يتيم، أو أرملة ومسكين، أو قيام في الأسحار، وصيام في النهار، ودعاء واستغفار، أو ختم للقرآن، وذكر دائم للرحمن، والله لا يضيع أجر المحسنين.

كان أبو بكر ﵁ إذا صلىٰ الفجر خرج إلىٰ الصحراء، فاحتبس فيها شيئًا يسيرًا، ثم عاد إلىٰ المدينة، فعجب عمر ﵁ من خروجه، فتبعه يومًا خفية بعدما صلىٰ الفجر، فإذا أبو بكر يخرج من المدينة ويأتي علىٰ خيمة قديمة في الصحراء، فاختبأ له عمر خلف صخرة، فلبث أبو بكر في الخيمة شيئًا يسيرًا، ثم خرج، فخرج عمر من وراء صخرته ودخل الخيمة، فإذا فيها امرأة ضعيفة عمياء، وعندها صبية صغار..

فسألها عمر: من هذا الذي يأتيكم..

فقالت: لا أعرفه، هذا رجل من المسلمين، يأتينا كل صباح، منذ كذا وكذا..

قال فماذا يفعل؟ قالت: يكنس بيتنا، ويعجن عجيننا، ويحلب داجننا، ثم يخرج..

فخرج عمر وهو ويقول: لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر، لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر.

ولم يكن عمر ﵁ بعيدًا في تعبده وإخلاصه عن أبي بكر، فقد خرج مرة ﵁ إلىٰ ضواحي المدينة، فإذا برجل عابر سبيل نازل وسط الطريق، وقد نصب خيمة قديمة، وقعد عند بابها، مضطرب الحال، فسأله عمر: من الرجل؟

قال: من أهل البادية، جئت إلىٰ أمير المؤمنين أصيب من فضله، فسمع عمر

أنين امرأة داخل الخيمة، فسأله عنها؟

فقال: انطلق رحمك الله لحاجتك..

قال عمر: هذا من حاجتي..

فقال: امرأتي في الطلق - يعني تلد - وليس عندي مال ولا طعام ولا أحد..

فرجع عمر إلىٰ بيته سريعًا، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي: هل لك في خير ساقه الله إليك؟

قالت: وما ذاك، فأخبرها بخبر الرجل، فحملت امرأته معها متاعًا، وحمل وهو جرابًا فيه طعام، وقدرًا وحطبًا، ومضىٰ إلىٰ الرجل..

ودخلت امرأة عمر علىٰ المرأة في خيمتها، وقعد هو عند الرجل، فأشعل النار وأخذ ينفخ الحطب، ويصنع الطعام، والدخان يتخلل لحيته، والرجل قاعد ينظر إليه..

فبينما هو علىٰ ذلك، إذ صاحت امرأته من داخل الخيمة، يا أمير المؤمنين: بشر صاحبك بغلام..

فلما سمع الرجل، أمير المؤمنين، فزع وقال: أنت عمر بن الخطاب، قال: نعم، فاضطرب الرجل، وجعل يتنحىٰ عن عمر. فقال له عمر: مكانك، ثم حمل عمر القدر، وقربه إلىٰ الخيمة وصاح بامرأته، أشبعيها..

فأكلت المرأة من الطعام، ثم أخرجت باقي الطعام خارج الخيمة، فقام عمر فأخذه فوضعه بين يدي الرجل، وقال له: كل، فإنك قد سهرت من الليل، ثم نادىٰ عمر امرأته فخرجت إليه..

فقال للرجل: إذا كان من الغد، فأتنا نأمر لك بما يصلحك.

وهكذا كان من بعدهم..

فكان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز علىٰ ظهره بالليل، فيتصدق بها ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب، فلما مات وجدوا في ظهره آثار

سواد، فقالوا: هذا ظهر حمال، وما علمناه اشتغل حمالاً، فانقطع الطعام عن مائة بيت في المدينة، من بيوت الأرامل والأيتام، كان يأتيهم طعامهم بالليل، لا يدرون من يحضره إليهم، فعلموا أنه الذي ينفق عليهم.

وصام أحد السلف عشرين سنة، يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأهله لا يدرون عنه، كان له دكان يخرج إليه إذا طلعت الشمس ويأخذ معه فطوره وغداءه، فإذا كان يوم صومه تصدق بالطعام، وإذا كان يوم فطره أكله، فإذا غربت الشمس، رجع إلىٰ أهله وتعشىٰ معهم..

نعم، كانوا يستشعرون العبودية لله في جميع أحوالهم، هم المتقون حقًّا، وأولياء الله صدقًا، والله يقول: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٦]..

فطوبىٰ لقلوب ملأتها خشيته، واستولت عليها محبته، أصبحت الطاعة لهم عادة، والحركات والسكنات لهم عبادة..

عيش السعداء

روىٰ البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأىٰ رؤيا قصها علىٰ رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرىٰ رؤيا فأقصها علىٰ رسول الله ﷺ، وكنت غلامًا شابًا، وكنت أنام في المسجد علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني، فذهبا بي إلىٰ النار فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا ملك آخر، فقال لي: لم ترع، فقصصتها علىٰ حفصة، فقصتها حفصة علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل». فكان عبد الله بعدها لا ينام من الليل إلا قليلاً.

قال عنه مولاه نافع: كبر سن عبد الله بن عمر، وضعف جسده، وكف بصره

في آخر عمره، فكان يغلبه النوم إذا صلىٰ، فكان إذا أراد أن يصلي جعل بجانبه إناءً فيه ماء، فكان يصلي ركعتين فإذا غلبه النوم، سلم منهما ثم غسل وجهه ثم قام يصلي، فإذا غلبه النوم سلم من ركعتين، ثم قام وغسل وجهه وأخذ يصلي فلا يزال هذا حاله حتىٰ يطلع عليه الفجر ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨] فالحرص أيها الإخوة والأخوات الحرص علىٰ صلاة الليل، ومداومة الوتر هو دأب الصالحين والسعداء.

وقد أمر النبي ﷺ بصلاة الوتر فقال فيما رواه الترمذي وأصله في الصحيحين: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن».

ويجمع الله لمن يصلي الوتر بين نعمتي الدنيا والآخرة، استمع إلىٰ هذا الحديث الحسن، الذي رواه الترمذي قال ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وإن قيام الليل قربة إلىٰ الله ومنهاة عن الإثم وتكفير للسيئات ومطردة للداء عن الجسد».

والعجب، أن صلاة الوتر هي أسهل العبادات، ومع ذلك يهملها كثير من الناس، لو أن إنسانًا صلىٰ المغرب فقلنا له: يا فلان لما لا تصلي سنة المغرب؟ فقال: كم ركعة سنة المغرب؟ قلنا له: سنة المغرب ركعتان. فقال لنا: ركعتان كثير أريد أن أصلي سنة المغرب ركعة واحدة. نقول له: لا يجوز إما أن تصليها ركعتين أو لا تصليها.

ولو أن إنسانًا حدثناه بفضل صلاة الضحىٰ فتأثر من هذا الحديث وقال: نعم سوف أصلي الضحىٰ فكم أصلي. قلنا له: أقلها ركعتان. فقال: كلا أريد أن أصلي الضحىٰ ركعة واحدة. فقلنا له: لا يجوز أقلها ركعتان ولا يجوز أن تصلي الضحىٰ ركعة واحدة.

صلاة الوتر أفضل من سنة المغرب وأفضل من صلاة الضحىٰ، بل قد ذكر بعض أهل العلم أن صلاة الوتر هي أفضل النوافل علىٰ الإطلاق.

ومع ذلك كان النبي ﷺ يصليها إحدىٰ عشرة ركعة، فإن ثقلت عليك فصلها

تسع ركعات فإن شقت فصلها سبعًا أو خمسًا أو صلها ثلاثًا، فإن تكاسلت نفسك عن ذلك فصلها ولو ركعة واحدة، الله أكبر ركعة وتكتب عند الله ممن صلوا الليل، وبعض الناس إذا قلنا صلاة الليل ظن بأنه لا بد أن يقوم قبل الفجر، فكن من هؤلاء السعداء، الذين أحسنوا علاقتهم بربهم، فإذا نزلت بك حاجة، فصف قدميك في المحراب، وعفر وجهك في التراب، واستعن بالملك الغلاب، واصدق في لجئك، وابك بين يدي ربك، فإذا رأىٰ الله منك الذل والانكسار، وصدق الحاجة والاعتذار، كشف عنك الضر، ومن عليك بانشراح الصدر، فعندها تذوق لذائذ الصالحين، وتحيا حياة المطمئنين، وفي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله والإقبال عليه، والإنابة إليه.

ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه: أن رجلاً فقيرًا كان له بغل يكاري عليه من دمشق إلىٰ الزبداني قال هذا الرجل: فركب معي ذات مرة رجل فمررنا علىٰ بعض الطريق علىٰ طريق غير مسلوكة فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب، فسلكناها فانتهينا إلىٰ مكان وعر وواد عميق وفيه قتلىٰ كثيرة فقال لي: أمسك رأس البغل حتىٰ أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكينًا معه وقصدني، ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال هو لي: وإنما أريد قتلك، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت: إن رأيت أن تتركني حتىٰ أصلي ركعتين فقال: عجل، فقمت أصلي فأرتج علي القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفًا متحيرًا وهو يقول: هيا افرغ، فأجرىٰ الله علىٰ لساني قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢] فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمىٰ بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعًا، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالمًا.

وقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر وضاق صدره، فزع إلىٰ الصلاة، وكان يقول: «أرحنا بالصلاة يا بلال». وقد قال ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة».

وكان للصالحين مع الصلاة شأن عجيب.

قال أبو صالح ابن أخت مالك بن دينار: كان خالي إذا جن عليه الليل، دخل إلىٰ غرفة ثم أقفل علىٰ نفسه، فلم يفتح لنا حتىٰ يؤذن للفجر فعجبت ماذا يفعل فيه هذه الغرفة حتىٰ تذكرت يومًا ثم دخلت إلىٰ تلك الغرفة، واختبأت في بعض زواياها قال: فدخل خالي ثم أغلق علىٰ نفسه الباب ولم يرني، ثم فرش سجادته ثم رفع يديه بعد العشاء يريد أن يكبر ليصلي فغلبه البكاء فبكىٰ، ثم لما سكت بكاؤه، رفع يديه ليصلي ثم غلبه البكاء فبكىٰ، فوالله ما زال هذا حاله يرفع يديه فلا يقوىٰ ويغلبه البكاء حتىٰ سمع أذان الفجر.

قال: فلما سمع أذان الفجر قبض علىٰ لحيته وهزها، وقال: اللهم إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك علىٰ النار.

وقال أبو سليمان الداراني: بينما أنا ساجد بالليل إذ غلبني النوم، فإذا أنا بحوراء، فركضتني برجلها وقالت: حبيبي أترقد عيناك، والملك يقظان ينظر إلىٰ المتهجدين؟ بؤسًا لعين آثرت لذة نوم علىٰ لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ، ولقي المحبون بعضهم بعضًا، فما هذا الرقاد؟ حبيبي وقرة عيني، أترقد عيناك؟؟ وأنا أربىٰ لك في الخدور منذ خمسمائة عام؟

روىٰ البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ خرجنا مع النبي ﷺ إلىٰ خيبر، فلما قفلنا راجعين من تلك الغزوة قام غلام رسول الله ﷺ ثم حمل رحل رسول الله ﷺ ليضعه علىٰ الدابة فما كاد ذلك الرحل يستقر علىٰ الدابة حتىٰ أطلق سهم علىٰ ذلك الغلام فوقع في صدره، فمات في ساعته، ما يدرون من أطلقه، فلما مات الغلام وتشحط في دمائه، ورأىٰ المسلمون حاله، علموا أن هذا قد قتل وهو راجع من جهاد وقد قتل وأهله وماله في المدينة، وهو يخدم رسول الله ﷺ لما رأوا حال هذا الغلام، كبروا وقالوا: الله أكبر هنيئًا له الجنة

هنيئًا له الشهادة فلما سمع النبي ﷺ ذلك، وهو الذي ينبئ من الوحي ما لا ينبئون فقال: «كلا، والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها يوم خيبر، من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا».

توبة ماعز بن مالك

ماعز بن مالك ؓ.. أصل قصته في الصحيحين وأسوقها لكم من مجموع رواياتها، كان ماعز شابًا من الصحابة، متزوجًا في المدينة، وسوس له الشيطان يومًا، وأغراه بجارية لرجل من الأنصار، فخلا بها عن أعين الناس، وكان الشيطان ثالثهما، فلم يزل يزين كلاً منهما لصاحبه حتىٰ زنيا، فلما فرغ ماعز من جرمه، تخلىٰ عنه الشيطان، فبكىٰ وحاسب نفسه، ولامها، وخاف من عذاب الله، وضاقت عليه حياته، وأحاطت به خطيئته، حتىٰ أحرق الذنب قلبه، فجاء إلىٰ طبيب القلوب، ووقف بين يديه وصاح من حَرِّ ما يجد وقال: يا رسول الله، إن الأبعد قد زنىٰ، فطهرني، فأعرض عنه النبي ﷺ، فجاء من شقه الآخر فقال: يا رسول الله، زنيت، فطهرني، فقال ﷺ: «ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه». فرجع غير بعيد، فلم يطق صبرًا، فعاد إلىٰ النبي ﷺ وقال: يا رسول الله طهرني، فقال رسول الله: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه». قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فصاح به النبي ﷺ وقال: «ويلك، وما يدريك ما الزنىٰ؟». ثم أمر به فطرد، وأخرج، ثم أتاه الثانية، فقال: يا رسول الله، زنيت، فطهرني، فقال: «ويلك، وما يدريك ما الزنىٰ؟». وأمر به، فطرد، وأخرج، ثم أتاه الثالثة، والرابعة كذلك، فلما أكثر عليه، سأل رسول الله ﷺ قومه: «أبه جنون؟». قالوا: يا رسول الله، ما علمنا به بأسًا، فقال: «أشرب خمرا؟». فقام رجل فاستنكهه وشمه فلم يجد منه ريح خمر، فقال ﷺ: «هل تدري ما الزنىٰ؟». قال: نعم، أتيت من امرأة حرامًا مثل ما يأتي الرجل من امرأته حلالا، فقال ﷺ: «فما تريد بهذا القول؟» قال: أريد أن تطهرني، قال ﷺ: «نعم»، فأمر به أن يرجم، فرجم حتىٰ مات.

فلما صلوا عليه ودفنوه مر النبي ﷺ علىٰ موضعه مع بعض أصحابه، فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصحابه: انظر إلىٰ هذا، الذي ستر الله عليه ولم تدعه نفسه حتىٰ رجم رجم الكلاب. فسكت النبي ﷺ ثم سار ساعة، حتىٰ مر بجيفة حمار، قد أحرقته الشمس حتىٰ انتفخ وارتفعت رجلاه، فقال ﷺ: «أين فلان وفلان؟». قالا: نحن ذان، يا رسول الله، قال: «انزلا، فكلا من جيفة هذا الحمار». قالا: يا نبي الله!! غفر الله لك، من يأكل من هذا؟ فقال ﷺ: «ما نلتما، من عرض أخيكما، آنفًا أشد من أكل الميتة، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

فطوبى لماعز بن مالك، نعم وقع في الزنىٰ، وهتك الستر الذي بينه وبين ربه، فلما فرغ من معصيته، ذهبت اللذات، وبقيت الحسرات، لكنه تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.

موتة سوء

ذكر ابن الجوزي في ذم الهوىٰ: أنه كان ببغداد رجل يطلق بصره في المحرمات، ويتتبع الشهوات، ذكر فلم يذكر، وزجر فلم ينزجر، فاجتاز يومًا بباب رجل نصراني، فاطلع داخل البيت فرأىٰ ابنة النصراني فتعلق بها قلبه، فقال لي: قد جاء الأجل، وحان الوقت، وما لقيت صاحبتي في الدنيا، وأنا أريد أن ألقاها في الآخرة، فقلت: ستلقىٰ خيرًا منها في الآخرة، فقال: لا أريد إلا هي، قلت: لا سبيل لك إلىٰ ذلك، وأنت مسلم وهي نصرانية، فشهق بأعلىٰ صوته وقال: فإن أرجع عن دين محمد، وأؤمن بعيسىٰ والصليب الأعظم، فصحت به اتق الله، ولا تكفر، ما عند الله خير وأبقىٰ، فبكىٰ وأخذ يشهق حتىٰ مات، فتولىٰ أهل المارستان أمره، ومضيت أنا إلىٰ تلك المرأة، فوجدتها مريضة، فدخلت عليها وجعلت أحدثها عنه، فلما علمت بموته صاحت وقالت: أنا ما لقيت

صاحبي في الدنيا، وأريد أن ألقاه في الآخرة، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأنا بريئة من دين النصرانية، فنهرها أبوها، فبكت، واشتد بكاها، فقال أبوها: خذها إليكم فلا أساكن من فارقت دينها، قال: فلم تلبث بعد ذلك إلا يسيرًا، وماتت.

نعوذ بالله من الخذلان، ووساوس الشيطان.

سعادة دائمة

حدثني أحد الدعاة أنه ذهب للعلاج في بريطانيا، قال: فأدخلت إلىٰ مستشفىٰ من أكبر المستشفيات هناك، لا يكاد يدخله إلا كبير أو وزير، فلما دخل علي الطبيب ورأىٰ مظهري قال: أنت مسلم؟ قلت: نعم، فقال: هناك مشكلة تحيرني منذ عرفت نفسي، هل يمكن أن تسمعها مني؟ قلت: نعم، فقال: أنا عندي أموال كثيرة، ووظيفة مرموقة، وشهادة عالية، وقد جربت جميع المتع، شربت الخمور المتنوعة، وواقعت الزنىٰ، وسافرت إلىٰ بلاد كثيرة، ومع ذلك، لا أزال أشعر بضيق دائم، وملل من هذه المتع، حتىٰ عرضت نفسي علىٰ عدة أطباء نفسيين، وفكرت في الانتحار عدة مرات لعلي أجد حياة أخرىٰ، ليس فيها ملل، ألا تشعر أنت بمثل هذا الملل والضيق؟! فقلت له: لا، بل أنا في سعادة دائمة، وسوف أدلك علىٰ حل المشكلة، ولكن أجبني، أنت إذا أردت أن تمتع عينيك فماذا تفعل؟ قال: أنظر إلىٰ امرأة حسناء أو منظر جميل، قلت: فإذا أردت أن تمتع أذنيك فماذا تفعل؟ قال: أستمع إلىٰ موسيقىٰ هادئة، قلت: فإذا أردت أن تمتع أنفك فماذا تفعل؟ قال: أشم عطرًا، أو أذهب إلىٰ حديقة، قلت له: حسنًا، إذا أردت أن تمتع عينك لماذا لا تستمع إلىٰ موسيقىٰ؟ فعجب مني وقال: لا يمكن لأن هذه متعة خاصة بالأذن، قلت: فإذا أردت أن تمتع أنفك لماذا لا تنظر إلىٰ منظر جميل؟ فعجب أكثر وقال: لا يمكن لأن هذه متعة خاصة بالعين، ولا يمكن أن يتمتع بها الأنف، قلت له: حسنًا، وصلت إلىٰ ما

أريده منك، أنت تحس بهذا الضيق والملل في عينك؟ قال: لا، قلت: تحس به في أذنك، في أنفك، فمك، فرجك، قال: لا، أحس به في قلبي، في صدري، قلت: أنت تحس بهذا الضيق في قلبك، والقلب له متعة خاصة به، لا يمكن أن يتمتع بغيرها، ولا بد أن تعرف الشيء الذي يمتع القلب، لأنك بسماعك للموسيقىٰ، وشربك للخمر، ونظرك وزناك، لست تمتع قلبك وإنما تمتع هذه الأعضاء، فعجب الرجل، وقال: صحيح، فكيف أمتع قلبي؟ قلت: بأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتسجد بين يدي خالقك، وتشكو بثك وهمك إلىٰ الله، فإنك بذلك تعيش في راحة واطمئنان وسعادة، فهز الرجل رأسه وقال: أعطني كتبًا عن الإسلام، وادع لي، وسوف أسلم، وصدق الله إذ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٧، ٥٨].

فعجبًا لأقوام يلتمسون الأنس والانشراح، ويبحثون عن السعادة في غير طريقها، والله يقول: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤].

ففرق الله بين عيش السعداء، وعيش الأشقياء، في المحيا والممات، بل إن المحسن كلما ازداد إحسانًا في الدنيا، عظمت لذته وسعادته، وأحسن الله إليه في رزقه، وولده، ووظيفته، ومسكنه، أحسن إليه في كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

قصة زواج جابر بن عبد الله

ذكر أصحاب السير وأصل القصة في صحيح مسلم: أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه الصحابي الجليل، قتل أبوه في معركة أحد، وخلف عنده سبع أخوات ليس لهن عائل غيره، وخلف دينًا كثيرًا علىٰ ظهر هذا الشاب الذي لا يزال في

أول شبابه، فكان جابر دائمًا ساهم الفكر، منشغل البال بأمر دينه وأخواته، والغرماء يطالبونه صباحًا ومساءً، خرج جابر مع النبي ﷺ في غزوة ذات الرقاع، وكان لشدة فقره علىٰ جمل كليل ضعيف ما يكاد يسير، ولم يجد جابر ما يشتري به جملاً، فسبقه الناس وصار هو في آخر القافلة، وكان النبي ﷺ يسير في آخر الجيش، فأدرك جابرًا يدب به جمله، والناس قد سبقوه، فقال النبي ﷺ: «ما لك يا جابر؟». قال: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا، فقال النبي ﷺ: «أنخه». فأناخه جابر وأناخ النبي ﷺ ناقته، ثم قال: «أعطني العصا من يدك أو اقطع لي عصا من شجرة»، فناوله جابر العصا، فنخسه بها نخسات ثم قال: «اركب يا جابر»، فركبت، فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة، وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال: «أتبيعني جملك هذا يا جابر» فقلت: بل أهبه لك يا رسول الله، فقال: «لا، ولكن بعنيه»، فقلت نعم إن شئت يا رسول الله، قال: «فبكم هو؟» فقلت: سمني، فقال: «قد أخذت بدرهم»، قلت: لا والله يا رسول الله. فما زالا يتزايدان حتىٰ بلغا به أربعين درهمًا (أوقية من ذهب). فقال جابر: نعم، ولكن أشترط عليك أن أبقىٰ عليه إلىٰ المدينة، قال ﷺ: «نعم».

فلما وصلوا إلىٰ المدينة، مضىٰ جابر إلىٰ منزله وأنزل متاعه من علىٰ الجمل ومضىٰ ليصلي مع النبي ﷺ وربط الجمل عند المسجد، فلما خرج النبي ﷺ قال جابر: يا رسول الله هذا جملك، فقال ﷺ: «يا بلال، أعط جابرًا أربعين درهمًا وزده، أتراني ماكستك لآخذ جملك». يعني: أنا لم أكن أطالبك بخفض السعر لأجل أن آخذ الجمل وإنما لأجل أن أقدر كم أعطيك من المال معونة لك علىٰ أمورك. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

توبة القعنبي

وذاك القعنبي الإمام المحدث، كان في شبابه النبيذ ويصحب الأحداث،

فدعا أصحابه يوما، وقعد علىٰ الباب ينتظرهم، فمر شعبة بن الحجاج الإمام المحدث عليه والناس خلفه يهرعون، فقال القعنبي: من هذا؟ قيل: شعبة، قال: وأيش شعبة؟ قالوا: محدث، فقام إليه وعليه إزار أحمر، فقال له: حدثني، يعني ما دمت محدثا فحدثني، فقال له: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك، فأشهر سكينه وقال: تحدثني أو أطعنك؟ فالتفت إليه شعبة وقال: حدثنا منصور، عن ربعي، عن أبي مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت». فلما سمع القعنبي هذا الحديث، وافق منه قلبًا صافيًا، وتذكر ما يحارب به ربه منذ سنين، ورمىٰ سكينه ورجع إلىٰ منزله، فقام إلىٰ جميع ما كان عنده من الشراب فهراقه، ثم استأذن أمه بالسفر إلىٰ المدينة لطلب العلم، ومضىٰ من وقته ولزم مالك بن أنس، حتىٰ حفظ عنه وأصبح من كبار العلماء المحدثين.

وسبب هدايته موعظة عابرة، لكنها صادفت قلبًا حيًّا.

وداعًا أيها البطل..

أول أولئك الأبطال هو غلام، لم يبلغ الحلم، عمره دون الخمس عشرة سنة، عاش في عصر ملك ظالم، كان يدعي الألوهية، وكان له ساحر يزين له باطله، وكان هذا الساحر يستعين بالجن، ويخبر الملك بأسرار الناس، فإذا حدثهم بها الملك ظنوا أنه يعلم الغيب، فازدادوا به فتنة، فلما كبر الساحر، قال للملك: إني قد كبرت، وإني أخاف أن أموت فيذهب عنكم هذا العلم، فابعث إلي غلامًا فطنًا لقنًا أعلمه السحر، فبحث الملك في الناس، حتىٰ وجد غلامًا فطنًا جريئًا، فبعث به إلىٰ الساحر، وبدأ هذا الغلام يأتي الساحر في الصباح ويتعلم منه السحر، ويعود لأهله في المساء، ومرت الأيام علىٰ ذلك، وفي يوم من الأيام، مر الغلام في طريقه براهب يصلي ويتعبد، ويركع ويسجد، فقعد إليه وسمع كلامه وقراءته، فأعجبه، وسأله: ما تعبد؟ قال: أعبد الله. قال الغلام:

الله، الملك، قال الراهب: لا، بل ربي وربك ورب الملك، ثم بين الراهب الدين للغلام ودعاه إليه، فآمن بالله وحده، وصار كلما ذهب إلىٰ الساحر أو رجع من عنده، جلس إلىٰ الراهب فتعلم منه، وأحيانًا يطول جلوسه عنده فيتأخر علىٰ الساحر فيضربه، وأحيانًا يضربه أهله، فلما كثر الأذىٰ عليه، شكا ذلك إلىٰ الراهب، فقال له الراهب: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، أي أخروني لحاجة لهم، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، ومرت الأيام علىٰ الغلام، وهو في كل يوم يتلقىٰ دروسًا في السحر، ودروسًا في الدين، هذا يقول: ربك الله، وذاك يقول: ربك الملك، فبينما هو كذلك، إذ مر يومًا في طريق، فإذا بدابة عظيمة قد جلست وسط الطريق، وحبست الناس عن المسير..

فلما رآها الغلام قال في نفسه: اليوم أعلم، الساحر أفضل؟! أم الراهب أفضل؟! ثم أخذ حجرًا من الأرض فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتىٰ يمضىٰ الناس، ثم رماها بالحجر، فقتلها، ففزع الناس واضطربوا، وتلفتوا وهم يتساءلون: من الذي قتل الدابة؟ من الذي قتل الدابة؟

فجعل بعضهم يشير إلىٰ الغلام، وبعضهم ينظر إليه مندهشًا، وصاروا بين مصدق ومكذب، فلما رأوا أنه قتلها بحجر صغير، تفرقوا وهم يقولون: لقد علم هذا الغلام علمًا لم يعلمه أحد، ثم انتشر أمر الغلام، وذاع صيته بين الأنام، وصارت قصته علىٰ كل لسان، يتحدث الناس بخبره، ويعجبون من أمره، فذهب الغلام إلىٰ الراهب فأخبره الخبر، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرىٰ، وإنك ستبتلىٰ، فإن ابتليت فلا تدل علي، فذهب من عنده الغلام، وكلمات الراهب تتردد في أذنه، إنك ستبتلىٰ، إنك ستبتلىٰ، ومضىٰ الغلام، وبدأ الناس إليه يتوافدون، ومنه يعجبون، ثم أكرمه الله تعالىٰ، فصار يبرئ الأكمه، والأبرص، ويداوي الناس من سائر

الأدواء، حتىٰ جعل الناس من كل مكان يقبلون إليه، ويجلسون بين يديه، وهو يدعوهم إلىٰ التوحيد، وعبادة العزيز المجيد، وبدأ المهتدون يتزايدون، والكفار يتناقصون، والمرضىٰ يقلون، وصار الناس بأخباره يتحدثون، وعن قدراته يتساءلون، حتىٰ مرت الأيام، والناس في أخبار الغلام، فسمع به جليس للملك، كان قد عمي، فذهب سريعًا إلىٰ دار الغلام، معه هدايا كثيرة، فلما دخل علىٰ الغلام، أقبل عليه، ووضع الهدايا والأموال بين يديه، ثم قال له بإغراء، ما ها هنا لك أجمع، إن أنت شفيتني، وجعل يشير بيده جهة الذهب والأموال، فلما رأىٰ الغلام هذا الوزير بين يديه، علم أنها فرصة عظيمة أقبلت إليه للدعوة إلىٰ الكريم المتعال، فما التفت إلىٰ الأموال، ولا هاب كثرة الرجال، وإنما أقبل علىٰ الرجال إقبال الابن الشفيق، والطبيب الرفيق، وقال له مبادرًا: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله تعالىٰ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فسكت جليس الملك قليلاً، ثم تفكر في دينه الذي عاش عليه، فإذا هو يعبد ملكًا بشرًا، لا يملك نفعًا ولا ضرًا، فدخل إلىٰ قلبه الإيمان، واشتاق التعبد للرحمن، فآمن بالله ووحد، فشفاه العظيم الأوحد، ورد عليه بصره، وشرح له صدره، وعظم له أجره، فخرج الوزير فرحًا مستبشرًا، يسمع الناس ويرىٰ، فلما أصبح، أتىٰ الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فلما رآه الملك مبصرًا، تعجب وقال له مبادرًا: من رد عليك بصرك؟!! فقال المؤمن الموحد: ربي، فقال الملك الغبي: أنا، قال: لا!! قال: أو لك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فغضب الملك وأربد، وصاح وتوعد، ثم أمر بالوزير، فشدد عليه العذاب، ولم يزل يضرب ويهان، حتىٰ دل علىٰ الغلام، فجيء بالغلام، فلما رآه الملك، عرفه، فهذا تلميذ الساحر، فتلطف معه وقال له: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل، وتفعل، فقال الغلام: إني لا أشفىٰ أحدًا، إنما يشفي الله تعالىٰ، فاضطرب الملك، وسأل الغلام من الذي علمك هذا الدين، فأبىٰ أن يخبره، خوفًا علىٰ الراهب، فأمر هذا الطاغية بالغلام، فلم

يزل يهان ويضرب، ويبتلىٰ ويعذب، وهو غلام صغير، ما رحموا صغر سنه، ولا ضعف جسده، ولا قلة احتماله، وهو يحاول التصبر فلا يستطيع، حتىٰ عظمت بلواه، وانهارت قواه، فدلهم علىٰ الراهب، فانطلق أعوان الطغيان، إلىٰ عابد الواحد المنان، فاقتحموا عليه صومعته، وقطعوا خشوعه وخشيته، ثم استاقوه أمامهم، إلىٰ رأس كفرهم، حتىٰ دخلوا به علىٰ الملك، فأوقفه بين يديه، ثم أقبل عليه، وقال: ارجع عن دينك، قال: لا، وأبىٰ، فعذبه وضربه، وهو ثابت علىٰ عبادة الرحمن، كافر بأعوان الشيطان، وهم وإن عذبوا جسده، فإن الله قد وعده، يتلقاه بالغفران، ويسكنه الجنان، فلما رأوا ثباته، اجتمع عليه الجنود، هذا يضربه بسوط، وذاك يطعنه بخنجر، والثالث يقيد يديه، والرابع يجلد قدميه، شيخ قد كبرت سنه، وانحنىٰ ظهره، ورق عظمه، وتراكم همه، وهم يزيدون في العذاب، وهو يتلذذ بعظيم الأجر والاحتساب، فلما رأىٰ الملك ذلك، أمر به فأوقف بين يديه، ثم دعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه نصفين حتىٰ وقع شقاه، فاضطرب الناس وفزعوا، وجليس الملك والغلام، ينظران إلىٰ الراهب، قد تمزق قطعًا وأشلاء، تسيل منه الدماء، وقد صعدت روحه إلىٰ السماء، ثم التفت الملك إلىٰ الوزير، وصاح به: ارجع عن دينك، فأبىٰ، فأمسكه الجنود، ووضع المنشار في مفرق رأسه، وهو ثابت ثبات الجبال، الجنة تلوح أمام ناظريه، والأنهار تجري بين يديه، فلم يزل المنشار يشق رأسه، ووجهه، وفمه وأنفه، ويقطع جسده، وهو يضطرب ويئن، حتىٰ سالت دماؤه، وتمزقت أشلاؤه، حتىٰ وقع شقاه، والغلام ينظر إليه، فلما رأىٰ الملك السفاح الدماء والأشلاء بين يديه، جر إليه الغلام، وصاح به: ارجع عن دينك، فأبىٰ، وهو ينتظر المنشار أن يشقه نصفين، لكن الملك، كان يرىٰ أن هذا الغلام صغير، يمكن أن يغرىٰ فيرجع عن دينه، فأراد أن يطول الطريق إلىٰ موته، فدفعه إلىٰ نفر من أصحابه فقال اذهبوا به إلىٰ جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، والملك يظن أن

الغلام سيتراجع أثناء الطريق، فذهبوا به، حتىٰ وصلوا إلىٰ الجبل، فأخذوا يدفعونه أمامهم، يصعدون به معهم، حتىٰ إذا وصلوا ذروته، قالوا له: ارجع عن دينك، وإلا طرحناك، فتلفت الغلام حوله، فإذا جبال سوداء، وصخور صماء، وإذا الموت يلوح بين عينيه، عندها رفع بصره إلىٰ السماء، وهز أبوابها بالدعاء، وقال: اللهم اكفينهم بما شئت، فما هو إلا أن دعا، وتضرع والتجا، حتىٰ سمعه من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف سوءه وبلواه، نعم، سمعه من كان نعم المجيب لنوح لما دعاه، وبرحمته كشف الضر عن يونس إذ ناداه، سمعه من كشف الضر عن أيوب، ورد يوسف بعد طول غياب إلىٰ يعقوب، فأمر الله حجارة الجبل فتحركت، وأمر الصخور فانتفضت، وارتجف الجبل بإذن الله، فسقط أولئك الجنود، من علىٰ ذروة الجبل، وثبت الله قدمي الغلام، وحفظه الملك العلام، حتىٰ نزل من علىٰ الجبل، وجاء يمشي إلىٰ الملك، فلما دخل عليه وقف بين يديه، فانتفض الملك، وتعجب أين الحرس والجنود، ثم صاح بالغلام، وقال: ما فعل أصحابك؟!! فقال الغلام: كفانيهم الله، فتطاول الملك بطغيانه، وصار عبدًا لشيطانه، وأمر بالغلام، فأمسكه جند آخرون، فقال لهم الملك: اذهبوا به، فاحملوه في قرقور، سفينة صغيرة، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به يسوقونه أمامهم، فلما وصلوا إلىٰ البحر، ركبوا في سفينتهم، والغلام الصغير بينهم، حتىٰ إذا توسطوا به لجة البحر، واشتدت الرياح، وتلاطمت الأمواج، قالوا له: ارجع عن دينك، وإلا قذفناك، فرفع الغلام بصره إلىٰ السماء، واستغاث بكاشف الضر والبلاء، الذي من لجأ إليه كفاه، ومن فر إليه قربه وأدناه، قال الغلام: اللهم اكفينهم بما شئت، فإذا بالدعاء يصل إلىٰ الذي لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا منازع في ملكه، أزمة الأمور بيده، والكون تحت قضائه وقدره، يسمع دعاء الداعين، ويجيب دعوة المضطرين، فأمر الله السفينة فانكفأت فوق الماء، وبدأ الصياح والبلاء، فغرق الجنود، ونجا الغلام، وجاء يمشي إلىٰ الملك، فلما رآه الملك،

اشتد فزعه، واضطرب أمره، وأخذ ينتفض ويقول: ما فعل أصحابك؟!! فقال: كفانيهم الله، فأسقط في يد الملك وأحاط به البلاد، وعلم أنه لا طاقة له بغلام ينصر بجند الأرض والسماء، وبقي الملك متحيرًا، فقال له الغلام: إنك لست بقاتلي حتىٰ تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟! قال: تجمع الناس في صعيد واحد، أرض واحدة، وتربطني علىٰ جذع نخلة، ثم خذ سهمًا من كنانتي، من سهامي لا من سهامك، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فوافق ذلك الملك الأحمق، وجمع الناس في صعيد واحد، وربط الغلام أمامهم علىٰ جذع نخلة، فلما رآه الناس مربوطًا عرفوه، فهو الذي يشفي بإذن الله أسقامهم، ويداوي مرضاهم، ويعين ضعفاءهم، ويرحم جوعاهم، ثم التفتوا إلىٰ الملك الطاغية، فإذا هو قد جمع حوله جنده، واغتر بقوته، وتطاول بسطوته، ثم أقبل الملك علىٰ سهام الغلام، فأخذ منها سهمًا، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم صاح قائلاً: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغ الغلام، بين عينه وأذنه، فوضع الغلام يده في صدغه، في موضع السهم ومات، ففرح الملك، وظن أنه قد انتهىٰ من أمره، وذهب إلىٰ قصره وكفره، أما الناس، فإنهم لما رأوا موت الغلام، علموا أن الله وحده هو الضار النافع، والخافض الرافع، وأن الملك بشر من البشر، لا يملك النفع والضر، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فتسابق أعوان الملك إليه، وتزاحموا بين يديه، وقالوا: أرأيت ما كنتْ تحذر؟! قد والله نزل بك حذرك، أجزعت أن آمن ثلاثة، فقد آمن الناس، فغضب الملك، وأمر بالأخاديد والحفر العظيمة، فحفرت في الطرقات، ثم أشعلت فيها النيران، وجمع الناس حولها، وقيل لهم: من لم يرجع عن دينه أقحمناه فيها، فجعل المؤمنون يتساقطون في النار، رجالاً ونساءً كبارًا وصغارًا، شيبًا وشبانًا، حتىٰ جاءت امرأة، ومعها صبي لها صغير، ترضعه، فقيل لها: ارجعي عن دينك وإلا قذفناك في النار، فنظرت إلىٰ حفر النيران، فرأت النار

تذوب فيها أجسادهم، وتتفجر رءوسهم، وتسيل دماؤهم، فخفضت رأسها تنظر إلىٰ صغيرها، فإذا فمه علىٰ ثديها، يرضع من لبنها، فتقاعست أن تقع في النار، وكادت أن تطاوع الكفار، فأنطق الله ولدها، فقال لها، يا أماه، اصبري فإنك علىٰ الحق، فقذفت نفسها في النار، ومات المؤمنون، والملك وأعوانه ينظرون، لكن الله فوقهم يرقب، والملائكة تشهد وتكتب، والله يخبر بسخطه ويغضب ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج:٤-١١].

موت سعد بن معاذ

يصاب سعد بن معاذ في الخندق، فيموت، فينزل سبعون ألف ملك من السماء، يتقدمهم جبريل إلىٰ خاتم الأنبياء، فيسرع جبريل إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، فيقول: يا محمد، من هذا من أصحابك الذي مات فاهتز لموته عرش الرحمن، وفتحت له أبواب السماء، فيقوم النبي عليه الصلاة والسلام مسرعًا، ينظر من الذي مات، يتفقد أصحابه، أين أبو بكر؟ عمر؟ عثمان، علي، طلحة، فلما خرج فإذا سعد بن معاذ قد مات، رجل قد خدم الدين، وجاهد لرب العالمين، فلما مات، ما فقدته زوجة وولد ودابة، وإنما اهتز لموته عرش الرحمن، وفقده مسجده ومحرابه، وسيفه وحرابه، بل بكت لموته الأرض والسماء، وعم الناس البكاء، لأنه ما عاش لنفسه، ولا لبيته وفلسه، وإنما عاش لينصر هذا الدين، أنفق لأجله ماله، وفارق داره وعياله، حتىٰ مات، فاستبشر أهل السماء بقدومه.

نعم سعد يموت، فيهتز لموته عرش الرحمن، وحنظلة يموت، فتغسله

ملائكة المنان، وعاصم بن ثابت يموت، فيرسل الله إليه جندًا تحمي جسده، أما عبد الله أبو جابر فيموت، في معركة أحد، ويترك سبع بنيات أيتام، فيقبل إليه ولده جابر، وقد غطوه بثوب، فجعل يكشف عن وجهه ويبكي، فالتفت إليه ﷺ، فقال: تبكيه أولا تبكيه، ما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتىٰ رفعتموه، ثم قال ﷺ: «يا جابر، ألا أخبرك، إن الله كلم أباك كفاحًا، فقال: يا عبدي سلني أعطك، قال: أسألك أن تردني إلىٰ الدنيا فأقتل فيك ثانيًا، فقال: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]».

موت أنس بن النضر

أنس بن النضر، في معركة أحد لما قتل المسلمون، وظهر الكافرون، وأشيع أن النبي عليه الصلاة والسلام قتل، واضطرب الناس، مر أنس بن النضر، بعمر وطلحة ونفر من الصحابة، قد تجنبوا ساحة القتال، وألقوا بسلاحهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، فصاح بهم وقال: فما تضنون بالحياة بعد؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم رفع بصره إلىٰ السماء، وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما فعل هؤلاء، وأبرأ إليك مما يفعل أولئك، ثم استقبل القوم فقاتل حتىٰ قتل، فوجدوه بين القتلىٰ، في جسده أكثر من سبعين ضربة، قد مزق جسده، واغبر وجهه، وسالت دماؤه، وما عرفته إلا أخته، بعلامة في طرف أصبعه.

وكما أن في الرجال أبطالاً، يصبرون علىٰ القيد والأغلال، والرمي بالنبال، ففي النساء كذلك، صالحات قانتات، منيبات صابرات، علقن أنفسهن بالجنات، وأحبهن رب الأرض والسموات.

أم عمار بن ياسر، سمية بنت خياط

منهن أم عمار بن ياسر، سمية بنت خياط، لها خبر عجب، كانت أمة

مملوكة لأبي جهل، فلما جاء الله بالإسلام، أسلمت هي وزوجها وولدها، فجعل أبو جهل يفتنهم، ويعذبهم، ويربطهم في الشمس حتىٰ يشرفوا علىٰ الهلاك حرًّا وعطشًا، فكان ﷺ يمر بهم وهم يعذبون، ودماؤهم تسيل علىٰ أجسادهم، وقد تشققت من العطش شفاههم، وتقرحت من السياط جلودهم، وحر الشمس يصهرهم من فوقهم، فيتألم ﷺ لحالهم، ويقول: «صبرًا آل ياسر، صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».

فتلامس هذه الكلمات أسماعهم، فترقص أفئدتهم، وتطير قلوبهم فرحًا بهذه البشرىٰ، وفجأة، إذا بفرعون هذه الأمة، أبي جهل يأتيهم، فيزداد غيظه عليهم، فيسومهم عذابًا، ويقول: سبوا محمدًا وربه، فلا يزدادون إلا ثباتًا وصبرًا، عندها يندفع الخبيث إلىٰ سمية، ثم يستل حربته، ويطعن بها في فرجها، فتتفجر دماؤها، ويتناثر لحمها، فتصيح وتستغيث، وزوجها وولدها علىٰ جانبيها، مربوطان يلتفتان إليها، وأبو جهل يسب ويكفر، وهي تحتضر وتكبر، فلم يزل يقطع جسدها المتهالك بحربته، حتىٰ تقطعت أشلاء، وماتت رضي الله عنها.

نعم، ماتت، فلله درها ما أحسن مشهد موتها، ماتت، وقد أرضت ربها، وثبتت علىٰ دينها، ماتت، ولم تعبأ بجلد جلاد، ولا إغراء فساد.

أم شريك غزية الأنصارية

أم شريك غزية الأنصارية، أسلمت مع أول من أسلم في مكة البلد الأمين، فلما رأت تمكن الكافرين، وضعف المؤمنين، حملت هم الدعوة إلىٰ الدين، فقوي إيمانها، وارتفع شأن ربها عندها، ثم جعلت تدخل علىٰ نساء قريش فتدعوهن إلىٰ الإسلام، وتحذرهن من عبادة الأصنام، حتىٰ ظهر أمرها لكفار مكة، فاشتد غضبهم عليها، ولم تكن قرشية يمنعها قومها، فأخذها الكفار وقالوا: لو لا أن قومك حلفاء لنا لفعلنا بك وفعلنا، لكنا نخرجك من مكة إلىٰ قومك، فتلتلوها، ثم حملوها علىٰ بعير، ولم يجعلوا تحتها رحلاً، ولا كساء،

تعذيبًا لها، ثم ساروا بها ثلاثة أيام، لا يطعمونها ولا يسقونها، حتىٰ كادت أن تهلك ظمئًا وجوعًا، وكانوا من حقدهم عليها، إذا نزلوا منزلاً أوثقوها، ثم ألقوها تحت حر الشمس، واستظلوا هم تحت الشجر، فبينما هم في طريقهم، نزلوا منزلاً، وأنزلوها من علىٰ البعير، وأوثقوها في الشمس، فاستسقتهم فلم يسقوها، فبينما هي تتلمظ عطشًا، إذا بشيء بارد علىٰ صدرها، فتناولته بيدها فإذا هو دلو من ماء، فشربت منه قليلاً، ثم نزع منها فرفع، ثم عاد فتناولته فشربت منه ثم رفع، ثم عاد فتناولته ثم رفع مرارا، فشربت حتىٰ رويت، ثم أفاضت منه علىٰ جسدها وثيابها، فلما استيقظ الكفار، وأرادوا الارتحال، أقبلوا إليها، فإذا هم بأثر الماء علىٰ جسدها وثيابها، ورأوها في هيئة حسنة، فعجبوا، كيف وصلت إلىٰ الماء، وهي مقيدة، فقالوا لها: حللت قيودك، فأخذت سقاءنا فشربت منه؟ قلت: لا والله، ولكنه نزل علي دلو من السماء فشربت حتىٰ رويت، فنظر بعضهم إلىٰ بعض وقالوا: لئن كانت صادقة لدينها خير من ديننا، فتفقدوا قربهم وأسقيتهم، فوجدوها كما تركوها، فأسلموا عند ذلك، كلهم، وأطلقوها من عقالها وأحسنوا إليها، أسلموا كلهم بسبب صبرها وثباتها، وتأتي أم شريك يوم القيامة وفي صحيفتها، رجال ونساء، أسلموا علىٰ يدها.

نعم، أقوام هانت عليهم أنفسهم في سبيل الله، فلم يلتفتوا إلىٰ أجسادهم، وإنما اهتموا بأرواحهم.

مسيرة أبطال

وإن شئت أن تنظر إلىٰ البطولة في عزها، والعزة في بطولتها، فارجع إلىٰ خلافة عمر بن الخطاب، ثم اخرج مع الجيش الغازي إلىٰ الشام، سبعة آلاف بطل يتقدمهم سعد بن أبي وقاص ﷺ، مضوا يسيرون علىٰ الحصىٰ، منهم الراكب علىٰ فرس ومنهم الراكب علىٰ بعير، ومنهم من يمشي علىٰ قدميه،

فلما وصلوا إلىٰ ديار الفرس، فإذا الفرس ينتظرونهم بجيش أكثر من ثمانين ألفًا، معهم أحدث آلات القتال، فلما نزل سعد بجيشه، أرسل بعض أصحابه إلىٰ ملكهم العظيم كسرىٰ يدعونه إلىٰ الإسلام، فلما دخلوا عليه، أجلسهم بين يديه، وكان متكبرًا مغترًّا بملكه، فجعل ينظر إليهم بطرف عينه، ويشير إلىٰ ملابسهم، ويستهزئ بهم، ويقول: ما تسمون هذا؟ ويشير إلىٰ أحذيتهم، فيقولون: نعال، فيقول: وهذا؟ فيقولون: رداء، ثم جعل يشير إلىٰ عصيهم، ويقول: وهذا، فيقولون: سياط.

ثم اتكأ وقال: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا؟ إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقىٰ، ولا أقل عددًا، ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرىٰ الضواحي ليكفوناكم، فإن كان الجوع دعاكم، فرضنا لكم قوتًا وكسوناكم وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم، سكت القوم والتفت بعضهم إلىٰ بعض، عندها تكلم البطل، قام المغيرة بن شعبة، فقال: أيها الملك، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرىٰ ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه، حتىٰ بعث الله إلينا رجلاً فدعانا إلىٰ الله، فنشهد أنه جاء بالحق من عند الحق، فنحن ندعوك إلىٰ دينه، فاختر إن شئت: الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك، فغضب كسرىٰ، وقال: ارجعوا إلىٰ صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتىٰ يدفنه وجنده في خندق القادسية، فلما تواجه الجيشان بعث رستم إلىٰ سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم يسأله، فبعث إليه ربعي بن عامر، فلما وصل ربعي إلىٰ إيوان رستم، جلس رستم علىٰ سرير من ذهب، ولبس التاج، وأمر فزينوا مجلسه بالنمارق

المذهبة والزرابي الحرير، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، ثم أذن لربعي، فدخل ربعي بثياب صفيقة، وسيف قصير، وفرس قصير، ولم يزل راكبها حتىٰ داس بها علىٰ طرف البساط، ثم نزل فربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل يمشي إلىٰ رستم، وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته علىٰ رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ علىٰ رمحه فوق النمارق.

فقال رستم: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، فمن قبل رجعنا عنه، ومن أبىٰ قاتلناه أبدًا حتىٰ نفضي إلىٰ موعود الله.

قال: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات، والنصر لمن بقي.

فقال رستم: هل لكم أن تؤخرونا حتىٰ ننظر؟

قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يومًا أو يومين؟

قال: لا، بل حتىٰ نكاتب أهل رأينا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث.

ثم خرج ربعي، فالتفت رستم إلىٰ أصحابه، وقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تدع دينك إلىٰ هذا الكلب، أما ترىٰ ثيابه.

فقال: ويلكم لا تنظروا إلىٰ الثياب، وانظروا إلىٰ الرأي والكلام والسيرة، وتمضي الساعات، ثم يبتدئ القتال ويهزم الله رستم وأصحابه.

بل كان الأبطال، لا يكتفون بالاعتزاز بدينهم، ولا ببذل أموالهم

وأجسادهم، بل كانوا ينظرون إلىٰ كل ما يستطيعون تقديمه للدين فيقدمونه، من خبرة ومال، أو حنكة قتال، أو عقل راجح.

مقتل طاغية من الكفار يسب الرسول ﷺ

أول ما قدم النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة، كان أهلها أخلاطًا من يهود ومشركين، ومسلمين، فأراد ﷺ أن يستصلح المدينة، ويجمع أهلها علىٰ التوحيد، وكان كعب بن الأشرف رأسًا من رءوس اليهود يقف له في كل سبيل، ويصد عن سبيل الله من آمن، بل كان يحرض علىٰ قتال المسلمين، وينشد الأشعار، ويندب من قتل من المشركين يوم بدر، وكان شاعرًا يشبب بنساء المسلمين، ويهجو النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، بل مضىٰ إلىٰ مكة، يحرض قريشًا علىٰ قتال المسلمين، وإيذاء المستضعفين، فسأله كفار قريش لما رأوه يهوديًّا من أهل الكتاب، قالوا: يا كعب، أديننا أحب إلىٰ الله أم دين محمد وأصحابه؟ فإنا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن علىٰ الماء، ونطعم ما هبت الشمال، فقال لهم: أنتم أهدىٰ منهم سبيلاً، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾[النساء:٥١]. ثم لم يزل يحرضهم، حتىٰ ما خرج من مكة، إلا وقد أجمعوا أمرهم علىٰ غزو النبي عليه الصلاة والسلام.

فلما رأىٰ النبي ﷺ ذلك، قال لأصحابه يومًا: «من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذىٰ الله ورسوله».

فابتدر محمد بن مسلمة وقال: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله.

قال: «فافعل إن قدرت علىٰ ذلك».

فخرج محمد بن مسلمة، ثم احتبس عن رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، وجعل لا يأكل ولا يشرب، إلا ما يعلق نفسه، فذكر حاله لرسول الله ﷺ، فدعاه، فقال: لم تركت الطعام والشراب؟

فقال: يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري، هل أفي لك به أم لا؟

قال: إنما عليك الجهد.

قال: يا رسول الله، إنه لا بد لنا أن نقول له فيك شيئًا، ليطمئن إلينا.

قال: فقولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك، فاجتمع محمد بن مسلمة وأبو نائلة وكان أخا كعب من الرضاعة، وعزما علىٰ قتله، فذهب أبو نائلة إلىٰ كعب، فتحدث معه وتناشدا الشعر ثم قال: يا كعب، إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني.

قال: أفعل.

قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبيل، حتىٰ ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، وإنه قد سألنا صدقة وعنانًا، ونحن لا نجد ما نأكل ولا ما يأكل أولادنا، وإني قد أتيتك أستسلفك.

فقال كعب: أنا ابن الأشرف! أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلىٰ ما أقول، وأيضًا والله لتملنه.

قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتىٰ ننظر إلىٰ أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أو وسقين من تمر.

فقال كعب: ما دام ليس معكم مال، فأرهنوني شيئًا يكون عندي حتىٰ تؤفوني.

قال: أي شيء تريد؟

قال: أرهنوني نساءكم.

قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب!!

قال: فأرهنوني أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين،

هذا عار علينا، ولكنا نرهنك السلاح، وأراد أبو نائلة أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا به.

فقال: إن في السلاح لوفاء، ثم واعده أن يأتيه ليلاً مع نفر يحملون معه التمر، فلما كان الليل أقبل أبو نائلة مع محمد بن مسلمة، ورجلين، حتىٰ انتهوا إلىٰ حصنه، فهتف به أبو نائلة، يا أبا سعيد، فأجابه كعب، ثم قفز من سريره لينزل إليه.

فتعلقت به امرأته وقالت: أنت امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فيه هذه الساعة، قال: إنه أخي أبو نائلة.

فقالت: إني أسمع صوتًا يقطر منه الدم، قال: إن الكريم لو دعي إلىٰ طعنة لأجاب، ثم أقبل عليهم.

فقال محمد بن مسلمة لأصحابه: إذا ما جاء فإني قابض بشعره لأشمه، ثم أشمكم، ثم أشمه أخرىٰ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فلما وصل إليهم، فإذا هو ينفح من ريح الطيب.

فقال محمد بن مسلمة: ما رأيت كاليوم ريحًا.

فقال كعب: عندي أعطر نساء العرب، وأكمل العرب.

قال محمد: أتأذن لي أن أشم رأسك؟

قال: نعم، فشمه، ثم قال: تأذن لأصحابي أن يشموا؟

قال: نعم.

ثم مشىٰ معهم قليلاً يتحدثون، ثم قال محمد بن مسلمة: تأذن لي أن أشم أخرىٰ؟

قال: نعم، فأدخل كلتا يديه في شعره، وجر رأسه إليه كأنه يشم، فلما تمكن منه صاح بأصحابه: اضربوا عدو الله! فتسابقت إلىٰ رقبته سيوفهم، ومع شدة الظلام، وتعدد السيوف، وكثرة اضطرابه، مزقوا رقبته ولم يصيبوا منه مقتلاً،

وجعل يخور ويصيح.

قال محمد بن مسلمة: ثم صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، فذكرت رمحًا معي فأخذته، فوضعته عند سرته، ثم اتكأت عليه حتىٰ بلغت عانته، فوقع عدو الله ميتًا، فرجعنا حتىٰ وصلنا المدينة، فأقبلنا إلىٰ رسول الله فبشرناه.

فقال: «أفلحت الوجوه»، قلنا: ووجهك يا رسول الله أفلح.

فلله در أولئك من أبطال، تتفجر الشجاعة من عروقهم، والإيمان من قلوبهم، ألا فليعلم الجبناء الذين يتكاسلون عن نصرة الدين، أو يشكون إذا رأوا تسلط الكافرين، وليعلم الخورة والضعفاء، الذين يضطربون إذا رأوا سلاح المشركين، أو سمعوا عن جيش الملحدين، ليعلم هؤلاء وأولئك، أن القوة ليست دائمًا بدبابات وطائرات، ولا مدافع وغواصات، وإنما العقل قوة، والإيمان قوة، والحيلة قوة، بل والله يمد بقوة، فالملائكة الأشداء، والصخور الصماء، والرياح العاتية، والأمراض القاضية، والكيد بالكافرين، بإرعاب قلوبهم، واختلاف كلمتهم، وإبطال مكرهم، كلها قوىٰ تسقط الطائرات، وتغرق السفن والغواصات، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

جلسة مع مغترب

إنه مسلم أقام في بلاد الكفار، ألقىٰ فيها رحله، استقر في جنباتها، بعدما عصفت به الرياح، وضاقت به الأرض، ففارق الأهل والأوطان، وسكن في شاسع البلدان، وهو في شرق الأرض، وأخوه في غربها، وأخته في شمالها، وابنه في جنوبها، أما ابن عمه فقد انقطعت عنه أخباره فلا يدري إذا ذكره، هل يقول: حفظه الله! أم يقول: رحمه الله؟!!

حدثني الشيخ فقال: كنت في بلد أوربي يكثر فيه المغتربون من اللاجئين المسلمين الذين سكنوا في هذه البلاد طلبًا لحياة أفضل، وبعدما انتهيت من

صلاة التراويح وإلقاء المحاضرة بعدها، جاء إلي الإخوة الكرام وقال:

يا شيخ أحد الإخوة العرب سمع عن مجيئك إلىٰ هنا للدعوة فأحب أن تقابل ابنه!! فتعجبت وقلت: أقابل ابنه؟!! لماذا لا أقابله هو؟! ولماذا لا يأتي إلي ويطلب ذلك بنفسه؟ فقال: هو لا يصلي معنا، ولكن ولده يشكو من مشكلة، ويريدك أن تشارك في حلها، فركبت مع هذا الأخ في سيارته وذهبنا إلىٰ هناك، فلما دخلنا فإذا بشيخ قد ناهز الستين سنه من عمره، طرد فيها وشرد، وعذب وسجن، ثم استقر به المقام مع فلذات كبده في بلاد الكافرين، فعاش فيها آمنًا مطمئنًّا يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان، سلم علي بحرارة ثم أدخلني إلىٰ غرفة الجلوس، وبعدها حدثني بطرف من قصة حياته المؤلمة وكيف أنه أتىٰ إلىٰ هذه البلاد طلبًا لراحة البال في زمن الشيخوخة بعد شقاء الشباب وعذابه!! قلت له: وهل وجدت راحة البال؟ قال: فيما يظهر للناس: نعم بيت واسع، وسيارة فارهة، وراتب مجزي، ولا عمل ولا نصب، ولا كدح ولا تعب، ولا تشريد ولا خوف، كل من رآني ظن أنني مرتاح البال وتمنىٰ لو أنه في مكاني، ولكن الحقيقة هي أنني أتعس الناس!! لا أحكم أولادي ولا بناتي!!، ولا أحكم زوجتي!! بل لا أشعر أنني رجل له شخصيته ومسئوليته، حياتي رتيبة جدًّا! بل مملة جدًّا، أشعر كأنني آلة أو جهاز ينتظر صانعه أن تنتهي مدة صلاحيته ليستبدل به غيره، ثم تدارك هذا الشيخ الكبير نفسه وقال: عفوًا يا شيخ!! أنا لم أطلب مقابلتك لأجل أن أبث إليك هذه الهموم، فهي أكبر من أن يحويها مجلس واحد، وإنما أردت مقابلتك لأجل مشكلة لأصغر أولادي، أصغر أولادي - يا شيخ - عمره تسع عشرة سنة، وقد جاء إلىٰ هذه البلاد وعمره خمس سنوات، درس في مدارس هذه البلاد، وخالط أهلها في مدارسهم، وأسواقهم، وبيوتهم، وملاعبهم، ولم أكن أمنعه من شيء، بل لم أكن أتدخل في حياته!! لأن التربية الحديثة تقرر ذلك، وإن شئت فقل إنني لم أكن أستطع أن أمنعه من شيء!! سواء كان محرمًا، أو فاحشة، أو غير ذلك!! لأنه يستطيع أن

يتسبب في سجني أو معاقبتي لو أخبر الشرطة بذلك، لن أطيل عليك: ولدي منذ فترة طويلة لا يصلي، ولا يصوم، بل هو غير مقتنع بالدين أصلاً، كل الأديان يعتبرها ظلمًا للعباد!! وفي الفترة الأخيرة بدأ يتضايق كثيرًا، ويعتزل في غرفته، ولا يخالطنا، بل صار في كل صباح يحلق رأسه بالموسىٰ، وله تقليعات غريبة! هل يمكن أن أدعوه لك لتقابله؟ فلعل الله أن يصلح حاله علىٰ يدك، قلت: لا مانع من ذلك، فصاح الأب الشفيق: محمد، يا محمد، وبعد لحظات، دخل علينا محمد، شاب قد امتلأ حيوية ونشاطًا، لعبت به الشهوات كما لعب بها، مد يده إلي وقال السلام عليكم! وعليكم السلام، كيف حالك يا محمد؟ تدخل الأب وقال: يا محمد هذا الشيخ أتىٰ ليناقشك في الأفكار التي تثيرها دائمًا عندي، يا ولدي فقلت لمحمد: ذكر أبوك أن عندك بعض الأسئلة الدينية، هل يمكن أن أسمعها؟ ولكن - عفوًا - قبل أن تذكرها، هل تفهم اللغة العربية، فقال: أفهم كثيرًا منها، ولكن لا تتكلم معي بالفصحىٰ.

فقلت له: في البداية يا محمد: هل أنت مقتنع بأن الله موجود؟! فقال: شو يعني مقتنع؟!! فقلت له: يعني: هل أنت مؤمن أن الله موجود؟! فقال: شو يعني مؤمن؟!!

فقلت له: do you believe Allah.

فقال: أوه!! نعم، نعم، فقلت: إن الله خلقنا ورزقنا وأمرنا بعبادته، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وطال النقاش ولم يقتنع بأن الله تعالىٰ رب حكم عدل يستحق الطاعة والعبادة، فلما رأيت ذلك، قلت له: أريد أن أسمع منك سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فلما أراد أن يقرأها التبست عليه!! وإذا هو لا يحفظ قصار السور، فقلت له: اقترب واجلس بجانبي، فلما جلس بجانبي وضعت يدي علىٰ صدره وقرأت عليه الفاتحة ثلاث مرات، فبدأت الدموع تسيل من عينه، فأوقفت القراءة، وسألته: لماذا تبكي؟! فقال بصوت يقطعه البكاء: لا أدري، لا أدري، فوضعت يدي علىٰ

صدره وتلوت: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢١-٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩].

وغيرها من الآيات التي فيها تعظيم وإجلال لله تعالىٰ، وكان الشاب يبكي بحرارة مع سماعه لهذه الآيات، بل كان يتقطع بكاءً، حتىٰ إنني بعدما انتهيت من التلاوة حاولت إكمال النقاش معه فلم يستطع أن يتكلم بكلمة، فأمسكت يده وحاولت إيقافه علىٰ قدميه، وقلت: قم صلِّ ركعتين، وابدأ حياة جديدة، فقام ذليلاً بين يدي خالقه ومولاه، الذي سواه فعدله، الذي خلقه فهو يهديه، والذي هو يطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو يشفيه، والذي يميته ثم يحييه، قام بين يدي الملك جل جلاله، وبكىٰ، وبكىٰ، فالقطيعة بينه وبين ربه قد طالت سنوات، وبعد الصلاة وعدني أن لا يغيب عن صلاة التراويح مع الجماعة، وحضور المحاضرات، وكان ذلك ولله الحمد.

هذا هو الشاب الأول، أما الثاني:

فهو أخ لأحد المصلين المحافظين علىٰ الصلاة معنا في المركز الإسلامي، جاء إلي وطلب مني مقابلة أخيه الذي لا يصلي ولا يصوم ولا يتعبد لله تعالىٰ بشيء أبدًا، ذهبت مع هذا الأخ فلما دخلت البيت، أجلسني في غرفة الاستقبال، ثم صاح: محمد، يا محمد، هذا اسم أخيه، شاب عمره ثمان عشرة سنة، جاء محمد وصافحني بلطف ثم جلس، فقال أخوه: هذا يا محمد شيخ داعية زارنا في هذا البلد وأحب التعرف إليك!! رد محمد بلطف: أهلاً وسهلاً، بدأت الحديث معه عن الحياة وسبب خلقنا، وما يستحقه الله تعالىٰ من العبادة والطاعة، وأن هؤلاء الكفار في ضلال مبين، وأن السعادة الحقيقية في هذا الدين، ثم تكلمت - بصراحة - عن المخالفات المنتشرة بين شباب المسلمين في هذه البلاد، وعقوبة تارك الصلاة، وبدا الفتىٰ غير مكترث بكلامي ولا مبال به، رغم تكلفي التلطف وتزيين العبارات بالود والتبسم، لكنه بدا غير جاد في تفهم ما أقول، قلت له: يا محمد، أريد أن أسمع منك سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فابتدأ في قراءتها فأخطأ وصوبته، ثم أخطأ وصوبته، ثم أخطأ وصوبته، فسكت!! نعم لا يحفظ سورة الفاتحة!! قلت له: نحن نحبك، ونحب لك الخير، وأريدك أن تأتي معي لتصلي مع المسلمين، وتحضر المحاضرة بعد صلاة التراويح، وبعد تمنع شديد منه وافق علىٰ ذلك، وأتىٰ معنا، وصلىٰ التراويح وحضر الموعظة، ثم خرج ولم أره بعدها، فسألت عنه أخاه؟! فقال: يا شيخ!! أخي يقول إن الساعة التي قضاها في المسجد كأنها عشر سنوات، ملل، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم دعوت له بالهداية، وسكت.

أما الثالث: فقد كنت في (السويد) وهي بلد يكثر فيه اللاجئون وبعد صلاة التراويح والمحاضرة (وكانت باللغة العربية) جاء إلي أحد الإخوة العرب وقال: هنا بعض الشباب السويديين المسلمين يريدون الجلوس معك، وكانوا

متحلقين في المسجد ينتظرون، فاستدعيت أحد الإخوة ليترجم بيني وبينهم، وجلست وبدأت الحديث عن نعمة الهداية لهذا الدين وأهمية الثبات عليه، وهذا الأخ يترجم من العربية إلىٰ الإنجليزية.

وفجأة نادىٰ أحد المصلين باسم هذا المترجم فقام إليه وتركنا، فسكت أنتظر رجوع المترجم لأكمل الحديث، فطال تأخره وطال سكوتي وسكوتهم، وفجأة نطق أحد هؤلاء بلغة عربية مكسرة قائلاً: يا شيخ، أنا أستتبع أن أترشم كليلاً!!..

فعجبت منه وقلت: هل تفهم اللغة العربية؟! فقال: أنا عربي فلسطيني!! أمي وأبي فلسطينيان!! لكني مولود في هذا البلد، وجنسيتي سويدي، ومنذ ولادتي لم يحرص والداي علىٰ تعليمي اللغة العربية، لكني أفهم قليلاً، (قال هذا الكلام بلغة عربية مكسرة مخلوطة بعبارات إنجليزية).

هذا طرف من أحوال أبنائنا من شباب المسلمين في ديار الهجرة، هذا فضلاً عن أولئك الشباب الذين يجرون وراء شهواتهم ونزواتهم، ولم يوفقوا إلىٰ الهداية والتوبة، وكلامي هذا ليس فقط عن الشباب بل والفتيات أيضًا، هؤلاء أبناؤنا وبناتنا.

أما أحوال الآباء فهي أنكى وأشد.

قال الشيخ: جاء إلي منكسرًا ذليلاً، وقال: يا شيخ!! مللت من هذه الحياة!! كنت أسكن في بلد من بلاد المسلمين، أسمع الأذان، وأشهد الصلوات، وأذكر الله مع الذاكرين، وأرجع مع الراكعين، ولا أرىٰ صليبًا ولا كنيسة، نعم كنت في عيش قليل لا أملك الأرصدة والأموال، ولا شقة فاخرة، ولا يعالجني مستشفىٰ متطور، لكنني كنت ملكًا متمكنًا، أتربع علىٰ عرش منزلي الصغير، وأولادي وزوجتي حولي كأننا قمر حوله كواكب.

كنت أعلم أين يذهب ولدي، ومع من تجلس ابنتي، ومن تقابل زوجتي، ثم زين لي بعض الأقارب أن آتي إلىٰ هذا البلد المتطور الذي يعطيني الجنسية

والراحة، والأمن والرفاهية، والراتب والعلاج، فانخدعت بذلك وجئت إلىٰ السويد، قبلت الدولة لجوئي، أسكنوني في شقة فاخرة، درسوا أولادي في مدارس متطورة، عشت الأيام الأولىٰ وكأني في حلم جميل، نعم تبدل صوت الأذان، بجلجلة النواقيس والصلبان، الوجوه المتوضئة، المشرقة المؤمنة، تبدلت بوجوه عليها غبرة ترهقها قترة، لكن هذه الحياة الجديدة، والراحة والدعة جعلتني أغفل عن هذه الأمور، مضت أيامي في هذه البلاد، ومضت الشهور وبدأت أتنبه إلىٰ هذا الواقع الفاسد، أخاف علىٰ أولادي من حولي، صرت كالجبان المختبئ من عدوه الذي يمسك أولاده عن يمينه وشماله خوفًا عليهم من القتل، وفي يوم من الأيام: طرق باب المنزل طارق، فلما فتحت الباب فإذا بفتاة شقراء!! ما تريدين؟!! أنا صديقة (موهمد) في المدرسة، وأريد أن أدخل عنده في غرفته!! فزجرتها وطردتها، وعاتبت ولدي وناصحته، وبعد يومين، طرق باب المنزل طارق، فلما فتحت الباب فإذا بشاب أشقر!! ما تريد؟!! أنا صديق (سارا) في المدرسة، وأريد أن أدخل عندها!! في غرفتها!! فزجرته وطردته، وأعلنت حالة الطوارئ في البيت، وأصدرت المراسيم والأنظمة: ممنوع الاختلاط، ممنوع الذهاب إلىٰ أي مكان غير المدرسة، أو المسجد يوم الجمعة، ممنوع مقابلة الفتيات السويديات، أو الشباب السويديين، ممنوع، ممنوع، ممنوع، وأخذت أراقب تطبيق هذه الأنظمة بكل دقة، ومضت الأيام وأحسست بالراحة وأن الأزمة انقضت، حتىٰ كانت الكارثة الكبرىٰ!!

في يوم من الأيام خرجت لأشتري بعض الأغراض الخاصة للبيت، وبعد خروجي بدقائق خرجت زوجتي وابنتي إلىٰ مكتب الشرطة وقدمتا شكوىٰ ضدي!! بأنني أكبت حريتهم، ولا أحسن التعامل معهم، وأمنع البنت من أصدقائها!!، والولد من صديقاته!!، إلخ القائمة الطويلة، فثارت ثائرة العدالة علىٰ هذا الأب المتخلف، كيف يحول بين الحبيب وحبيبه؟! كيف يمنع

الشباب والفتيات عن ملذاتهم؟!، كيف يقع هذا في بلاد الحرية والتطور؟!، فلما عدت إلىٰ البيت، متعبًا، محملاً بالأرزاق والأطعمة، فإذا بالشرطة ينتظرونني!! فظننت أن البيت سرق في غيابي، أو أن أولادي وفلذات كبدي تعرضوا لخطر، ألقيت ما في يدي وهرعت إلىٰ البيت لأدخل فإذا برجال العدالة والشرف يوقفوني!! أنت فلان؟ نعم!! ماذا تريدون؟!! عندنا بلاغ ضدك!! تعال معنا، واقتادوني إلىٰ التحقيق، ثم المحكمة، وحكم علي بالسجن ثلاث سنوات، لأكون عبرة للمعتبرين، أما أولادي فقد أعطتهم العدالة منزلا في غير المدينة التي سجنت فيها، وصرفوا رواتب الأولاد باسم أمهم، ولم يخبروني بعنوانهم، ولم يسمحوا لي بالاتصال بهم، ولا تسأل عن حالي اليوم.

هذا الأب الأول، أما الثاني: فهي امرأة تسكن مع أولادها في شقتها في مدينة بالدانمرك، وفي يوم من الأيام وقع شجار بين ولديها الصغيرين (٤، ٦ سنوات) فضربتهما، فبكيا بصوت مرتفع، فلما سمع جارها الدانمركي (الرحيم الشفيق) بكاء الأطفال اتصل مباشرة بالشرطة!! فجاءوا سراعًا وهجموا علىٰ الأم وخلصوا الأطفال من الظلم والكبت، أفٍ لهم!! يظنون أنهم أرحم بالأبناء من أمهم!!، وخلال ساعات تم ترحيل أحد الطفلين إلىٰ مدينة في شمال الدانمرك ليتربىٰ في كنف عائلة دنمركية ليس لديها أولاد، أما الآخر فأرسل إلىٰ عائلة في النرويج!!، هذا خبر الطفلين.

أما الأم فبقيت تتجرع آلام الحسرة والفراق، في أرض العدالة والحرية والرفاهية..

محاضرة في إيطاليا

حدثني أحد المشايخ الدعاة يبلغ من العمر خمسين سنة أنه ألقىٰ محاضرة في إحدىٰ المراكز الإسلامية في إيطاليا وتكلم أثناء المحاضرة عن تربية الأولاد والمسئولية نحوهم، وكان أغلب الحاضرين من العرب المغتربين، قال الشيخ:

وفجأة قام شيخ كبير قد تجاوز الثمانين وقطع محاضرتي، وصاح بأعلىٰ صوته وقال: يا شيخ!! أريد أن أزوجك ابنتي!! تزوجها وخذها معك!! أرجوك!! يا شيخ!! يا شيخ!! ثم بكىٰ، وبكىٰ، فتعجبت منه لكنني لم أرد عليه، فلما انتهت المحاضرة دعوته إلي وشكرته علىٰ حسن ظنه بي، وبينت له أنني لا أرغب في الزواج، ثم سألته: ما سبب حماسك وبكائك؟ ومقاطعتك للمحاضرة؟؟ فقال: يا شيخ، نحن كنا أصدقاء أربعة أتينا إلىٰ هذه البلاد مع أولادنا طلبًا لحياة أفضل، وكبر أولادنا وبدءوا يتفلتون من أيدينا، ومضت السنون ومات أصحابي فتنصر جميع أولادهم وأنا أنظر، أما أنا فقد كبر الآن سني، ورق عظمي، واقتربت منيتي، أنا خائف علىٰ ابنتي، هي اليوم في المسجد، وغدًا لا أدري أين تكون ثم بكىٰ، وبكيت وبكىٰ من حولنا.

ثلاثون مغتربا

كنت في إحدىٰ البلاد الأوربية، وبعدما صليت التراويح وألقيت المحاضرة، دعاني أحد الإخوة إلىٰ منزله لتناول الشاي، وفي ذلك المجلس اجتمع معنا قرابة الثلاثين من الإخوة المغتربين، آثرت في البداية أن أستمع ولا أتكلم، بدأ الإخوة أحاديثهم، احتلال البلد الفلاني، وغزو البلد الآخر، وغلاء الأسعار، والضرائب، ثم اشتد النقاش، وارتفعت الأصوات، وضج الصياح، ثم تحول الأمر إلىٰ سب وتقذيع، هذا حالهم، أما حالي فهو أعجب وأغرب، لأنني أول الأمر ظننت نفسي انتقلت إلىٰ اجتماع هيئة الأمم المتحدة. لكني بعدما تلفت حولي تذكرت أني لا أزال بين هؤلاء الإخوة، فبقيت هادئًا، في البداية خجلت أن آمرهم بالسكوت، وانتظرت أن تنخفض أصواتهم، فلم يفعلوا، فلما طال الأمر التفت إلىٰ الذي بجانبي وقلت: هل سيطول الحال هكذا؟!! فقال: ما رأيت شيئا!! هم اليوم هادئووون!! إن موعدهم الصبح!! أليس الصبح بقريب؟!! ثم قال: هل تريد أن أسكتهم؟ قلت: هل تستطيع ذلك؟!! نعم أسكتهم. فصاح بأعلىٰ صوته: يا جماعة!! نريد أن نستفيد من الشيخ، يا

جماعة!! هدوووء، فخجلوا وبدأ بعضهم يسكت بعضًا، فقلت لهم: أسألكم سؤالاً: كلكم تحفظون سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؟ قالوا: نعم!! فقلت: ما معنىٰ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؟ فسكتوا!! قلت: كلكم تحفظون ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قالوا: نعم!! فقلت: ما معنىٰ ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؟ فسكتوا!! فقلت: أيها الإخوة الأخيار!! لو اشتغلتم في مجلسكم هذا بتفسير آية، أو قراءة حديث، أو النقاش حول تربية أولادكم، أو حل مشاكل بناتكم، لكان خيرًا لكم مما أنتم فيه، كم هي المجالس التي تجلسونها وينطبق عليها قوله ﷺ: «ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا علىٰ نبيهم، إلا كان عليهم ترة - يعني: حسرة وندامة - فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم». وقوله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة».

ثم قلت لهم: هذا تفسير ابن كثير موجود علىٰ الطاولة أمامكم، فلماذا لا تستفيدون منه؟!! كيف تريدون أن تنصروا هذا الدين، وأن تدعوا الناس إليه، وأنتم تجهلون المبادئ الأساسية من الدين، لو سألتكم في بعض أحكام الصلاة، أو الصيام لوجدت أكثرهم بها جاهلاً، ثم دعوت لهم وختمت المجلس.

لا تكن جبانًا

وحدثني أحد الدعاة فقال: كنت في أمريكا في شهر رمضان، وألقيت محاضرة باللغة العربية حول الأسرة وتربية الأولاد ووسائل الثبات علىٰ الدين، وما كادت المحاضرة تنتهي حتىٰ قام أحدهم وسأل: لماذا الحاكم الفلاني يفعل كذا وكذا؟!! فأجبته بلطف قائلاً أرجو أن تكون الأسئلة فيما يتعلق بموضوع المحاضرة، فقام آخر فقال: لماذا الدولة الفلانية تقاتل دولة كذا؟!! فاعتذرت عن الإجابة لأن الإجابة لا تفيدنا بشيء، فقام أحدهم متحمسًا وقد ظن أنني خائف من الإجابة، فقال: يا شيخ!! لا تكن جبانًا!! سيد

الشهداء هو الذي يجهر بكلمة الحق عند سلطان جائر، فيقتله، فاجهر بكلمة الحق وإن وصلت إلىٰ سلطان فقتلك!! أفلا تريد أن تكون سيد الشهداء؟!! فقلت له: إذن ما رأيك أيها الأخ الشجاع أن نجمع لك الآن ثمن تذكرة سفر، وتعود إلىٰ بلدك وتجهر بكلمة الحق عند الرئيس ليقتلك فتكون أول الشهداء!!! ونحن بعدك إن شاء الله، فضحك الجميع، وأغرقوا في الضحك، ثم ضج المسجد بالكلام والاعتراضات، فصحت بأعلىٰ صوتي قائلاً: يا جماعة!! أنا أحدثكم عن أمور تعيشونها يوميًا وتقاسون آلامها، وأنتم تشغلونا بأمور لو تكلمنا عنها عشر سنين لما استفدنا منها شيئًا، ثم رفعت صوتي أكثر، وقلت: من منكم يستطيع أن يمنع ابنته من الزنا؟؟ من منكم يستطيع أن يمنع امرأته من اتخاذ صديق أو عشيق؟؟ من منكم يستطيع أن يمنع ولده من شرب الخمر؟؟ أو ارتكاب الفواحش؟؟ من منكم يستطيع أن يلزم أولاده بالصلاة؟ أو بالصوم؟ أو بالعفة عن المحرمات؟ أو بعدم الاختلاط؟؟ فسكتوا جميعًا، فقام أحدهم وقال: بصراحة يا شيخ: لا أحد، والله يا شيخ!! لا أحد، لو منعت ابنتي أو لدي من شيء اشتكاني إلىٰ الشرطة، حتىٰ زوجتي. فقلت: أيها الإخوة الكرام: لن يسأل الله أحدًا منكم يوم القيامة عن الحاكم الفلاني أو الدولة الفلانية، ولا عن أسعار النفط، وأين تصرف عائداته، ماذا يفيدك الكلام في هذه الأمور ما دام أنه من باب معرفة الواقع المحيط بك، أما الاشتغال بها وإثارتها في المجالس والمحافل فهذا غير مناسب أبدًا، بل هو مجلبة للجدًال والخصومات وأنتم في غنىٰ عن ذلك، لن يضركم الجهل بها يوم القيامة، لكن والله ليسألن كل منكم يوم القيامة عن أولاده وتربيتهم، وبناته وصيانتهن، وزوجته وحفظها، قال النبي ﷺ: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه: أحفظ أو ضيع؟ حتىٰ يسأل الرجل عن أهل بيته». قال الشيخ: فلما سمعوا مني ذلك، أنصتوا، واستمعوا.

إياكم ومحقرات الذنوب

روىٰ البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ في غزوة من الغزوات، فلما قفلنا راجعين من هذه الغزوة، قام غلام النبي ﷺ ثم حمل الرحل ليضعه علىٰ دابة رسول الله ﷺ، فما كاد هذا الرحل يستقر علىٰ الدابة حتىٰ أطلق سهم علىٰ هذا الغلام من أحد المشركين كان مختبئًا، فوقع في صدر الغلام، فمات من ساعته، فلما وقع علىٰ الأرض صريعًا، ورآه الناس علىٰ هذا الحال، كبروا وقالوا: الله أكبر، هنيئًا له الجنة! هنيئًا له الشهادة، غلام خرج في سبيل الله، وترك أهله وماله، وخرج للقتال في سبيل الله، ثم يقتل وهو راجع من الجهاد!!

قالوا: الله أكبر هنيئًا له الجنة هنيئًا له الشهادة.

فلما سمع النبي ﷺ ذلك وهو الذي ينبأ من الوحي بما لا ينبئون، قال لهم: «كلا» أي الجنة! كلا. قالوا: لماذا يا رسول الله؟ فقال ﷺ:«إن الشملة التي غلها - يعني: الرداء الذي سرقه من الغنيمة قبل أن تقسم - لتلتهب عليه في قبره نارًا».

قال: «إن الشملة التي غلها» ولعلها ما تساوي عشرة دراهم.

ثم قال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، إياكم ومحقرات الذنوب».

الآن انتهيت من الحساب

ذكر الإمام ابن الجوزي ﷫ في كتابه «المنتظم في أخبار الملوك والأمم» عن أحد الصالحين، قال: مات أحد مشايخي فرأيته في المنام بعد موته بسنة كاملة، فلما رأيته قلت له: آه يا شيخ! ماذا فعل الله بك؟ في أي الدرجات رفعك؟ ما فعل الله بك؟ فقال الشيخ: الآن، انتهيت من الحساب علىٰ معصية من معاصي! قلت له: ما هذه المعصية؟ ما هذه المعصية العظيمة التي قد

قضيت في الحساب عليها سنة كاملة؟! فقال ذاك الشيخ: إنها والله أني كنت مرة سائرًا في الطريق، فمررت علىٰ حزمة تبن مربوطة علىٰ حمار، وقد دخل صاحبها في حاجة إلىٰ حانوت، فاستللت منها عودًا، أتخلل (أخلل به أسناني) به، فأنا الآن أسأل منذ سنة كاملة: لم أخذته بغير حقه؟! عود من تبن يسأل منذ سنة: لم أخذته بغير حقه؟!

حبسني عن الجنة إبرة

وذكر الإمام ابن الجوزي أنه مات بعض الصالحين فرئي في المنام بعد فترة من موته، فسأله سائل فقال: يا فلان، أنت كنت تفعل وتفعل من الصالحات والحسنات، فماذا فعل الله تعالىٰ بك؟ فقال ذاك الرجل الصالح: قد فعل الله بي خيرًا إن شاء الله، لكنني محبوس عن الجنة. قال: فما الذي حبسك عن الجنة؟ فقال: حبسني عن الجنة إبرة كنت استعرتها، ولم أردها حتىٰ مت!!

سيدنا أنس بن مالك ينصح كبار التابعين:

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه كما رواه البخاري في صحيحه، يقول - وهو يكلم التابعين وحسبك بهم علمًا وفضلاً، وحسبك بهم عبادة وشرفًا، وحسبك بهم خضوعًا وخشوعًا لله جل وعلا -: إنكم لتعملون أعمالاً - يعني: تقعون في شيء من المعاصي - هي أدق في أعينكم من الشعر - إذا فعلتموها رأيتموها صغيرة أدق من الشعر - كنا نعدها علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الموبقات؛ يعني المهلكات.

هكذا كانت حياة السلف الصالح - رحمة الله عليهم أجمعين - عبادة وإخلاصًا، وخوفًا ورجاء من الله تعالىٰ، فما أجمل أن نتمثل بهؤلاء الصالحين، ونتأسىٰ بهدي رسول رب العالمين - صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله والتابعين إلىٰ يوم الدين - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١].

قصة الفتى البكاء من خشية الله تعالى

ثعلبة بن عبد الرحمن، صحابي جليل، غلام لم يبلغ ست عشرة سنة من عمره، كان يكون عند النبي ﷺ فكان ﷺ يرسله في حاجاته، إذا أراد حاجة من أبي بكر، أو أخرىٰ من عمر، دعاه وقال: يا ثعلبة، اذهب إلىٰ أبي بكر، أو اذهب إلىٰ عمر، وأخبره بكذا وكذا، فأرسله النبي ﷺ يومًا في حاجة من الحاجات، فلما مضىٰ إلىٰ تلك الحاجة، مر ببيت من بيوت الأنصار، وكان باب البيت مفتوحًا، فالتفت إلىٰ داخل البيت، فإذا في البيت ستر مرخي علىٰ حمام - يعني ستارة قد ستر بها حمام - ولم يركب بعد باب الحمام وإنما وضعت هذه الستارة لتستر ما وراءها، فالتفت ينظر إلىٰ هذا الستر، فبينما هو ينظر إليه، إذ حركت الريح الهواء - حرك هذا الستر - فانكشف الستر، فإذا وراءه امرأة تغتسل، فكأنه نظر إليها نظرة أو نظرتين، ثم انتبه، وقال: أعوذ بالله! رسول الله ﷺ يرسلني في حاجة، وأنا أنظر إلىٰ عورات المسلمين!! والله لينزلن الله في آيات، وليذكرني مع المنافقين! ثم خاف أن يرجع إلىٰ النبي ﷺ فيحدثه بحاله، وأبىٰ أن يرجع إلىٰ منزله، فأرسل النبي ﷺ في طلبه (فهام علىٰ وجهه ومضىٰ علىٰ وجهه لا يدرون أين ذهب!) وذلك بعدما انتظره النبي ﷺ الساعة والساعتين والثلاث، والصلاة والصلاتين، فلم يأت ثعلبة، فسأل عنه، فقالوا: يا رسول الله، لعله يأتيك؛ فانتظره ﷺ فتأخر عنه.

فلما مضى يوم، يومان، قال ﷺ: «يا عمر، يا سلمان، اذهبا وابحثا عنه، في طرقات المدينة»، فذهبا يبحثان عنه، ثم عادا إلىٰ النبي ﷺ وقالا: يا رسول الله، قد بحثنا عنه في طرقات المدينة، وأسواقها، ومزارعها، وبساتينها، ولم نقف له علىٰ خبر، لكن لعله يأتيك، فانتظره أيامًا؛ فانتظره النبي ﷺ ما شاء الله أن ينتظر، ثم قال: «يا عمر، يا سلمان، اذهبا وابحثا في الفلوات - ابحثا عنه في الصحراء - وفي البر»، فذهبوا يبحثون عنه، فلما وصلوا إلىٰ جبال بين مكة والمدينة، فإذا بأعراب يرعون غنمًا لهم في أسفل هذه الجبال، فلما رأىٰ أولئك

الأعراب عمر وسلمان ومن معهما من الصحابة - رأوهم يبحثون وينظرون في الآثار - سأل أحدهم عمر فقال: يا عمر، عم تبحثون؟ فقال عمر: نبحث عن فتىً، من صفته كذا وكذا.

فقال ذاك الأعرابي: لعلكم تبحثون عن الفتىٰ البكاء، قال عمر: والله ما ندري عن بكائه، إنا نبحث عن فتىً من صفته كذا وكذا، لكن ما خبر هذا الفتىٰ البكاء؟ فقال ذاك الأعرابي: إن في سطح هذا الجبل شابًّا منذ أربعين يومًا، لا نسمع إلا بكاءه وعويله واستصراخه، قال عمر: ومتىٰ ينزل؟ قال: ينزل إذا غربت الشمس، فيأتي إلينا، فنحلب له مذقة لبن، فيشربها، يحفظ بها حياته عن الموت، ثم يخلطها بدمعه وبكائه، ثم يصعد - أي يصعد ثعلبة بعد ارتوائه من اللبن الحليب - في الجبل مرة أخرىٰ.

قال عمر: فكيف نستطيع أن نراه؟ قال: تراه إذا غربت الشمس، فكمن له عمر، واختبأ له سلمان وراء صخرة، فلما غربت الشمس، فإذا بثعلبة بن عبد الرحمن ﵁ - ذاك الفتىٰ الغلام البكاء، الذي عظم قدر ربه في قلبه - إذا به ينزل من الجبل، يجر خطاه، منكس الرأس، كثير الصراخ، ودموعه تجري علىٰ خديه!

مضىٰ يجر خطاه، كأنه فرخ منسوخ بال من شدة البكاء، فلم يزل يمشي إلىٰ أولئك الأعراب، حتىٰ وقف إليهم، ثم حلبوا له شيئًا من اللبن، فلما رفعه إلىٰ فيه بكىٰ بكاءً عظيمًا، ثم شرب ما استطاع أن يشرب منه، ثم وضعه علىٰ الأرض، ثم بينما حول وجهه إلىٰ الجبل يريد أن يصعد، خرج له عمر، وبدا له سلمان، ثم أمسكا به، فلما رآهما فزع فزعًا عظيمًا، وقال: ما تريدان مني؟! فقالا: إن رسول الله ﷺ يطلبك، قال: ما يريد مني؟ قالا: لا ندري، قال: أنزل الله في آيات؟ قالا: ما ندري، قال: ذكرني الله مع المنافقين؟ قالا: ما ندري! قال: يا قوم، دعوني أموت في سطح هذا الجبل!! ولا تفضحوني بين الناس، قالا: والله ما ندعك، فتمنع عليهم، فأمسكا به بالقوة، ثم أنزلوه معهم إلىٰ المدينة،

فما زالوا يحملونه، حتىٰ انتفض بين أيديهم لما وصلوا به إلىٰ المدينة، واشتد بكاؤه فمضوا به إلىٰ منزله، ثم أضجعوه علىٰ فراشه.

ومضىٰ عمر إلىٰ النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله، قد وجدنا ثعلبة بن عبد الرحمن، قال: «وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «أين وجدتموه؟» قالوا: يا رسول الله، وجدناه في سطح الجبل، بين مكة والمدينة! فقال ﷺ: «فأين هو الآن؟» قال عمر: هو الآن في بيته، إن شئت أن تأتيه فافعل، فمضىٰ النبي ﷺ، مضىٰ الرحيم الشفيق، حتىٰ وصل إلىٰ بيت ثعلبة، حتىٰ وصل إلىٰ منزله، فلما حرك الباب، وثعلبة كأنه ثوب مطروح علىٰ فراشه! ما يستطيع حراكًا، فلما حرك النبي ﷺ الباب، ودخل سمع ثعلبة صوته ﷺ، التفت إلىٰ جهة الباب، وما يستطيع أن يقوم من فراشه، ثم صرخ وقال: يا رسول الله! أنزل الله في آيات؟ قال: «كلا»، قال: ذكرني الله مع المنافقين؟ قال: «كلا»، فبكىٰ ثعلبة واشتد بكاؤه.

فأقبل النبي ﷺ حتىٰ توكأ جالسًا بجانب ثعلبة، ثم حمل ثعلبة ووضعه علىٰ فخذه الشريفة ﷺ فبكىٰ ثعلبة وقال: يا رسول الله، أنزل رأسًا قد امتلأ بالذنوب والمعاصي عن فخذك، أنا أقل وأحقر، أنزل رأسي من علىٰ فخذك يا رسول الله! قال له: «كلا!» فبكىٰ ثعلبة بكاءً عظيمًا، فقال ﷺ: «يا ثعلبة، ما ترجوه؟» فقال ثعلبة: أرجو رحمة ربي، قال: «وممَ تخاف؟» قال: أخاف من عذاب الله، قال: «وماذا تتمنىٰ؟» قال: أتمنىٰ مغفرة الله تعالىٰ.

فدعا له النبي ﷺ وثعلبة يبكي ويقول: يا رسول الله، استغفر لي! يا رسول الله، استغفر لي! يا رسول الله، استغفر لي!.. وما زال ﷺ يستغفر له ويستنزل له الرحمات من السماء، ثم انتفض ثعلبة، وقال: يا رسول الله، والله إني أشعر بدبيب كدبيب النمل يدب بين لحمي وعظمي! فقال ﷺ: «أو تجد ذلك يا ثعلبة؟» قال: نعم! فقال ﷺ: «ذاك الموت قد نزل بك فتشهد!! ذاك الموت قد نزل فيك، وخالط جلدك وعظمك، فتشهد!!» فلم يزل يتشهد ويذكر ربه ﷻ

والنبي ﷺ يلقنه الشهادة، حتىٰ شهق شهقتين، ثم فاضت روحه إلىٰ بارئها! فلما مات غسله النبي ﷺ ثم كفنه، وصلىٰ عليه، ثم حملوه علىٰ نعشه واتجهوا به إلىٰ قبره، فكان ﷺ يمشي وراء الجنازة، يمشي وراء النعش علىٰ أطراف قدميه والناس قد وسعوا له مكانًا!، فالتفت إليه عمر، وقال: يا رسول الله، تمشي علىٰ أطراف قدمك والناس قد أوسعوا لك؟! فقال ﷺ: «ويحك يا عمر! والله لا أجد لقدمي موضعًا من كثرة ما يزاحمني عليه من الملائكة».

نكبات في تاريخ الأمة الإسلامية (التتار):

ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله أنه في عام ستمائة وستة وخمسين، جاء المغول - التتار - فقضوا علىٰ بلاد الإسلام، وقفلوا دار الخلافة في بغداد، جاءوا بجيش كالسيل، يسير كالليل، حتىٰ نزلوا بغداد، فمكثوا فيها أربعين يومًا، يقتلون الناس بالسكاكين، وبالحجارة، وبالسيوف، والرماح، يستعلمون جميع أنواع القتل، وليس لهم شغل خلال هذه الأربعين يومًا إلا قتل هؤلاء المسلمين، فلما هرب الناس منهم، جعلوا يلحقونهم في كل مكان، حتىٰ اختبأ الناس في حفر المقابر، وفي حفر المجاري، وفي حفر الغائط، وغير ذلك، اختبأ الناس حتىٰ إنهم ليخرجون الرجل مع زوجته وبناته وأولاده، فيذهبون به إلىٰ المقبرة، فيحفرون حفرًا عظيمًا، فيقتلونهم جميعًا، ثم يلقونهم في هذه الحفرة!

قال ابن كثير: فلما انتهت الأربعون يومًا، أحصي من قتل من المسلمين، فإذا هم قد قتلوا خلاله ألف ألف وثمانمائة ألف!! يعني: قتلوا مليونًا وثمانمائة ألف مسلم! (كلهم قتلوا علىٰ أيدي التتار!!) قال ابن كثير: لما انقضت الأربعون يومًا، وخرج التتار من بغداد، ونودي في بغداد بالأمان، خرج الذين كانوا يختبئون في المقابر، وفي المطامير، وفي حفر الغائط وغيرها، خرجوا وكأنهم موتىٰ نشروا من قبورهم، حتىٰ قال: فلم يلبث أن خرج الوباء بسبب الجثث التي ألقيت في كل مكان، وأصابها المطر والشمس فخرج الوباء

فلم يلبث هؤلاء الذين نجوا - لم يلبثوا - حتىٰ ماتوا، فلحق الآخر بالأول! واجتمعوا تحت الثرىٰ ولا يعلم بحالهم إلا الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٧، ٨].

ثم بعدها نصر الله تعالىٰ المسلمين، ونسي المسلمون تلك المصيبة، وجعلوا الإسلام عزهم، وتمكينهم، لماذا؟ لما عاتب المسلمون أنفسهم، عاد إليهم عزهم وتمكينهم.

وما يقع في البلاد اليوم من انتهاك لمقدسات المسلمين، أو حرق لمساجدهم، أو هتك لأعراض المسلمات، كلها أمور والله يعلمها الله ﷻ وينظر إليها؛ إذًا لماذا لا ينصرنا؟ أليس الله يرانا؟ يرىٰ المسلمة التي ينتهك عرضها، ويرىٰ القبر الذي يمثل فيه بجسدها!! ويرىٰ المسجد يهدم هدمًا! ويرىٰ الدماء وهي تسفك! ويرىٰ البلاد وهي تخرب! هل الله ﷻ غافل عن ذلك؟ كلا، فهو لا يغفل ولا ينام، هل الله تعالىٰ عاجز عن نصرتهم؟ كلا! هو سبحانه القوي العزيز، من هؤلاء الكفار؟ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]. هل اليهود أحب إلىٰ الله تعالىٰ من المسلمين؟ كلا، بل اليهود شر خلقه - جل وعلا - والمسلمون أحب إلىٰ الله الجبار منهم.

القرار الشجاع

أول ما بدأ النبي عليه الصلاة والسلام ينشر دعوته انقسم الناس أمامه أقسامًا؛ منهم من أسلم وصدق، ومنهم من أعرض وكذب، ومنهم من صدق بالإسلام وعرف ضلال عباد الأصنام، لكنه مع ذلك لم يستطع التغلب علىٰ شيطانه، وجبن عن مخالفة قومه.

انظر إلىٰ أبي طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام، كان يحوطه ويحميه، ويمنع قريشًا من إيذائه، بل قال النبي عليه الصلاة والسلام بكل صراحة: «لم

تنل مني قريش ما تريد إلا بعد وفاة أبي طالب».

حاولت قريش التفريق بين أبي طالب وبين النبي عليه الصلاة والسلام بكل سبيل؛ تأتيه قريش يومًا فيعرضون عليه الأموال ليخلي بينهم وبين محمد فيأبىٰ، ثم يأتونه ويدفعون إليه أحسن شبابهم، ويقولون: خذ هذا لك ولدًا وأعطنا محمدًا فيأبىٰ، بل يصيح بهم ويقول: تعطوني ولدكم أربيه، وأعطيكم ولدي تقتلونه.

حتىٰ وصل به الأمر أن قريشًا - وهو السيد المطاع فيهم - هددته بالطرد من مكة، وأخذ سادة قريش يستعدون العرب والقبائل عليه، وهو صابر لا يتراجع عن نصرة النبي عليه الصلاة والسلام، ومضت الأيام، ثم اشتد أذىٰ قريش علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، فحبسته مع المؤمنين في شعب بني عامر، ومنعت الناس من معاملتهم أبدًا، لا في بيع ولا شراء، ولا نكاح، ولا نصرة حرب، ولا غير ذلك أبدًا.

ويحبس النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه في الشعب، فيأتي أبو طالب بأبنائه العشرة فيدخل معهم؛ محبة لرسول الله ﷺ، لا يصبر علىٰ فراقه.

وكان أبو طالب إذا جن عليهم الليل ونام الناس، قام من علىٰ فراشه ومضىٰ إلىٰ فراش النبي عليه الصلاة والسلام، ثم قال: يا بن أخي! يا بن أخي! فيفتح النبي عليه الصلاة والسلام عينيه فإذا عمه عند رأسه، فيقول: «لبيك يا عم». فيقول: قم واذهب إلىٰ فراشي، ودعني أنام علىٰ فراشك؛ خوفًا من أن يأتي أحد لقتل النبي عليه الصلاة والسلام في ظلمة الليل، فيريد أبو طالب أن يقع القتل فيه، لا في رسول الله ﷺ، يفديه بروحه.

ويذهب النبي عليه الصلاة والسلام فينام علىٰ فراش أبي طالب، ويضطجع أبو طالب علىٰ فراش النبي عليه الصلاة والسلام، يلتحف بلحافه.

وتمر ثلاث سنوات وأبو طالب محبوس مع النبي عليه الصلاة والسلام في الشعب، يجوع لجوعه، ويبرد لبرده، ويحزن لحزنه، ويتعب لتعبه، ويخرجون

بعدها من الشعب وأبو طالب لا يزال محبًّا للنبي عليه الصلاة والسلام.

وقد كان أبو طالب في داخل نفسه مصدقًا بهذا الدين، راغبًا في الدخول فيه، ويمضي عمر أبي طالب وهو يعرف الحق، لكنه لم يجرؤ علىٰ اتخاذ قرار الهداية، كان متخوفًا من مسبة قومه واستهزائهم، حتىٰ كبرت سنه، ورق عظمه، واقتربت منيته، وهو يعرف الحق ويتخوف من اتباعه.

فلما حضرته الوفاة أقبل رسول الله ﷺ إليه مسرعًا حتىٰ دخل عليه، فإذا عنده جبال الكفر؛ أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فوقف النبي عليه الصلاة والسلام عند رأسه ينظر إلىٰ هذا الشيخ الكبير، الذي طالما منعه من قريش، وتحمل ضيق العيش؛ يؤذي ويقاطع فيحتمل ما دام ذلك لأجل محمد.

جعل ﷺ ينظر إلىٰ أبي طالب علىٰ فراش الموت وروحه تقعقع في حلقه، وهو ينتفض للموت، فإذا هو ﷺ يدافع عبرته، ويتذكر حياة عمه، يتذكر جوعه في الشعب ونصبه وحبه له وتعبه، فيستجمع النبي عليه الصلاة والسلام قواه ويقول برفق ولين: «يا عماه! قل: لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله».

فنظر إليه أبو طالب وتفكر في حاله، فإذا هو بداخله مصدق بصحة دين الإسلام، وضلال عباد الأوثان، لكنه لم يستطع أن يتخذ القرار الشجاع بالدخول في الإسلام، فجعل النبي عليه الصلاة والسلام يردد عليه: «قل: لا إله إلا الله».

فقال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش ويقولون: ما حمله عليها إلا فزع الموت لأقررت بها عينك.

عندها صاح صناديد قريش: يا أبا طالب!! أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فسكت، فأعاد عليه النبي ﷺ: «يا عماه! قل: لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، وأبو جهل عنده يردد: يا أبا طالب!! أترغب عن ملة عبد المطلب؟! والنبي عليه الصلاة والسلام يعيد

عليه تارة، ويرجوه تارة، وهما يردان ويصدان.

والرجل يشتد نزعه، ويعلو شهيقه، ويضيق صدره، ويعظم كربه، وملك الموت ينتزع روحه، ولسانه يثقل، وفمه يزيد، وأطرافه تبرد، حتىٰ استجمع قواه وقال آخر كلمة في حياته: إنه علىٰ ملة عبد المطلب، ويعجز أبو طالب عن اتخاذ القرار، ويموت ويمضي إلىٰ النار.

فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام مات كافرًا، وصار جثة هامدة بين يديه، قال وهو يدافع عبراته: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣].

وعند مسلم: أن العباس بن عبد المطلب ﷺ سأل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله، إن عمك أبا طالب كان يحميك وينصرك، فهل أغنيت عنه شيئًا؟ قال ﷺ: «نعم، كان في غمرات من النار فأخرجته منها إلىٰ ضحضاح النار، وضع تحت قدميه جرتين من نار يغلي منهما دماغه».

نعم، يموت أبو طالب ويمضي إلىٰ النار، وما نفعته محبته للصالحين، بل ولا عمومته لخاتم النبيين، ولا أنجته نصرته للمؤمنين، ما دام أنه عرف الحق فلم يتبعه.

قصة الخندق

انظر إلى الأحزاب وقد تجمعوا حول المدينة يريدون قتال النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، فلما أقبلوا إلىٰ المدينة فتحير النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ماذا يفعلون؟!

فنظروا فإذا المدينة يحيط بها الجبال من ثلاث جهات، فعلم المسلمون أن جيش الكفار لا يمكن أن يهاجم المدينة إلا من جهة واحدة وهي السهل، فحفروا خندقًا عند مدخل المدينة يمنع الكفار من دخولها، فلما وصل جيش

الكافرين ورأوا الخندق تحيروا، كيف يهزمون المسلمين؟!

فعسكروا من وراء الخندق، لا يستطيعون دخول المدينة، وكان في المدينة قبيلة من قبائل اليهود في حصن لهم، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد جعل بينه وبينهم عهدًا ألا يقاتلوه ولا ينصروا أحدًا عليه، ولكن اليهود كعادتهم خونة، لما رأوا تألب الأحزاب، وتتابع الكربات علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، شعروا أن هذه نهاية المسلمين، فنقضوا العهد وأرسلوا إلىٰ الكفار ما يعينهم.

ولم يكتفوا بذلك لما رأوا المسلمين مرابطين عند الخندق والنبي ﷺ وأصحابه منشغلون في القتال، دخلوا المدينة وأقبلوا علىٰ بيوت المسلمين يروعون من فيها من النساء والصبيان، حتىٰ وصلوا إلىٰ حصن لحسان بن ثابت كان النبي عليه الصلاة والسلام قد جعل فيه نساءه وبعض نساء المؤمنين وصبيانهم، فكادوا أن يهتكوا الأعراض، ويقتلوا الأرواح، لولا أن الله دحر كيدهم، فبقوا في حصونهم، وجعلوا يمدون الكفار من بعيد.

ومضت أيام عصيبة علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه حتىٰ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، حتىٰ أنجز الله وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وفر كفار قريش بجيشهم، فأسقط في يد اليهود، وتخلت عنهم قريش، فأغلقوا عليهم حصنهم.

فرجع النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ بني قريظة فحاصرهم، وكان من بينهم شيخ كبير أعمىٰ اسمه: الزبير بن باطا، وكان لم يقاتل بجسده، لكنه كان يمدهم بالسلاح والرأي والمال وكان يتمنىٰ أن لو كان مبصرًا ليقاتل معهم، فبينما هو ينتظر القتل، إذ مر به ثابت بن قيس بن شماس، فلما رآه ثابت تذكر أن هذا اليهودي قد أحسن إليه في الجاهلية، فأراد أن يكافئه، فأقبل إليه فقال: هل تعرفني يا زبير؟

فقلب الأعمىٰ رأسه يتذكر هذا الصوت، ثم قال: وهل يجهل مثلي مثلك،

أنت ثابت بن قيس؟

فقال ثابت: نعم، أريد أن أكافئك بإحسانك إلي في الجاهلية.

فابتهج الزبير وقال: إن الكريم يجزي الكريم.

فذهب ثابت إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله، هذا شيخ كبير بينهم، كان قد أحسن إلي في الجاهلية، وأنا أشفع فيه يا رسول الله أن تطلقه، فأطلقه النبي عليه الصلاة والسلام، وعفا عن قتله.

ففرح ثابت ومضىٰ سريعًا إلىٰ الزبير وقال: أبشر يا زبير، قد عفا النبي ﷺ قم، فقام معه الزبير لا تكاد تحمله الأرض من الفرح، فلما مشىٰ خطوات وقف، قال ثابت: ما بالك وقفت؟!

قال: وما يفعل شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، ما يصنع بالحياة؟!

قال ثابت: انتظر هنا، فرجع ثابت إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله، الزبير يريد زوجه وأولاده، ويقول: شيخ كبير أعمىٰ به حاجة إليهم.

فأمر النبي ﷺ امرأته وأولاده، فمضىٰ بهم ثابت إليه، فلما رأوه تعلقوا به وبكوا وبكىٰ، وهم يدعون لثابت.

ثم ما كاد الزبير يمشي خطوات حتىٰ وقف وقال: وما يفعل شيخ كبير مع زوجته وأولاده في الحجاز من غير مال!! كيف يعيشون؟!

فقال ثابت: انتظر هنا ثم رجع ثابت إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الزبير يقول: وما يفعل شيخ كبير مع زوجته وأولاده في الحجاز من غير مال!! كيف يعيشون؟!

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أطلقوا ماله»، فأخذه ثابت ومضىٰ إلىٰ الزبير، قال: يا زبير، وما تريد أكثر، هذه زوجتك، وهؤلاء أولادك، وهذا مالك، وهذه نفسك أنقذناها من القتل، قم امض معي، فقام الزبير شاكرًا داعيًا، فلما مشىٰ خطوات - معه أولاده وزوجه وماله - تذكر قومه وأصحابه، وقد كان قبل

قليل معهم لكنه أعمىٰ يسمع صوت صراخ وقتل، ويشم رائحة الدم، لكنه لا يدري من عاش ومن قتل.

فالتفت إلىٰ ثابت وقال: يا ثابت، ما فعل سيدنا الذي كأن وجهه مرآة صينية، تتراءىٰ فيها عذارىٰ، حي؟ قال ثابت: من تعني؟

قال: أعني كعب بن أسد سيدنا؟ قال: قتل، فسكت ثم مشىٰ قليلاً ثم التفت، وقال: فما فعل سيدنا الآخر، سيد الحضر والبادي؟

قال ثابت: من تعني؟

قال: أعني حيي بن أخطب؟ قال: قتل، فسكت ثم مشىٰ قليلاً ثم التفت إلىٰ ثابت، وقال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا؟ قال ثابت: من تعني؟

قال: أعني عزال بن شمول؟ قال: قتل.

قال: فما فعل سادة المجلسين، اللذين يجتمع إليهما الناس؟ قال: من تعني؟

قال: بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة..

قال ثابت: ذهبوا، قتلوا. عندها وقف الزبير، هو الآن في مرحلة اتخاذ قرار، يسلم أو لا يسلم.

أتدري ما مثله؟! مثله مثل رجل أتىٰ ليصلي الجمعة، فإذا الخطيب يتكلم عن التدخين وحرمته.

هذا حال الزبير، أما الحق فقد تبين له، وعلم أن هذا النبي صادق، فهل يتبع النبي عليه الصلاة والسلام ويترك دين آبائه وأجدّاده؟!

الأمر يحتاج إلى شجاعة، بل يحتاج إلىٰ رجل بطل، تهون عليه الدنيا كلها في سبيل أن يتبع الهدىٰ، ما يضره لو قال: لا إله إلا الله، فربح الدنيا والآخرة.

أخذ الزبير يفكر ثم التفت إلىٰ ثابت، وقال: يا ثابت، تريد أن تحسن إلي؟

قال: نعم. قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر حتىٰ ألقىٰ الأحبة.

فعاد به ثابت يقوده حتىٰ أوقفه بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام وهو يسير إلىٰ الموت مختارًا أن يموت علىٰ الكفر، ثم قدمه ثابت فضربت عنقه، وهو يردد: أن ألقىٰ الأحبة.

فقال أبو بكر ﷺ: يلقاهم والله في نار جهنم خالدًا فيها مخلدًا!

ويمضي الزبير بن باطا وأصحابه إلىٰ النار، نعم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢] ما لهم من أنصار؛ لأنهم لم يكونوا شجعانًا، بل كانوا جبناء لم يستطيعوا أن يطئوا علىٰ أنف الشيطان، فاستحقوا أن يختلفوا عن ركب البطولة.

أبو أحمد بن جحش

وانظر إلى أبي أحمد بن جحش ﷺ ، كان شيخًا كبيرًا أعمىٰ، فلما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة، لم يبق أحد من أصحابه إلا هاجر معه إلا بعض الضعفاء والمماليك، وكان من بينهم أبو أحمد بن جحش، فلم يزل يسعىٰ للهجرة، فجمع متاعه ليهاجر، وجهز زوجته وولده.

فقالت زوجته: إلىٰ أين يا أبا أحمد؟

قال: إلىٰ المدينة. فلما رأت أنها ستترك أهلها وبلادها، قالت: هلا مكانًا أقرب منها نهاجر إليه، فزجرها، ثم ارتحل ومضىٰ أبو أحمد إلىٰ المدينة طائعًا مهاجرًا.

وبعض الناس قد يتوجس من الهداية ويتخوف منها؛ لما يسمع عن المهتدين، أو لما يرىٰ من تصرفات خاطئة لبعض المتنسبين للدين، فينفر من الاستقامة؛ تأثرًا بما حوله من إشاعات.

وإذا اتخذت القرار الشجاع بالهداية، والاستقامة علىٰ الدين؛ فانطق ولا

تلتفت وراءك. نعم، لا تلتفت، وليكن همك رضا من في السماء، واضرب بمن يخالفه عُرض الحائط.

نعم، علق نفسك بالحي الذي لا يموت، ولا تلتف إلىٰ تخذيل المبطلين: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠].

عياش بن أبي ربيعة

هاجر مع عمر بن الخطاب إلىٰ المدينة، وذلك قبل أن يهاجر النبي عليه الصلاة والسلام إليها، فلما قدما المدينة ونزلا فيها، أرادت قريش ردهما فلم تقدر علىٰ عمر.

ففكروا كيف يكيدون لعياش، فأرسلوا إليه أبا جهل وأخاه الحارث لرد عياش إلىٰ مكة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، فلما قدما المدينة سألا عن موضعه فدلا عليه، فلما التقيا به، أراداه علىٰ الرجوع معهما فأبىٰ، فاحتالا عليه وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتىٰ تراك، ولا تستظل من شمس حتىٰ تراك، فرق قلبه لها.

فقال له عمر: يا عياش، والله إن يريدون إلا أن يفتنوك عن دينك فاحذرهم. قال: وأمي!!

قال عمر: والله لو قد آذىٰ أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت! فأقم هنا، ولا تلتفت إليهما.

فقال: أذهب معهما، فأبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه.

فتعلق به عمر وقال: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. فأبىٰ عياش إلا أن يخرج معهما.

فلما رأىٰ عمر ذلك قال: أما إذا فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة سريعة ذلول فالزم ظهرها، ولا تنزل من عليها أبدًا، فإن وجدت منهم ريبة، فاصرف وجهها إلىٰ المدينة وانج عليها.

فركب عياش الناقة وخرج معهما، فأخذا يحدثانه أثناء الطريق، فلما توسطوا الطريق قال له أبو جهل: يا عياش، لقد عسر علي بعيري هذا، أفلا تعقبني ناقتك قليلاً؟

قال عياش: بلىٰ، فأناخ أبو جهل بعيره، وأناخ عياش ناقته، ثم ما كاد عياش يقف بقدميه علىٰ الأرض، حتىٰ وثبوا عليه فأوثقوه، ثم دخلوا به مكة مربوطًا، وجعلوا يفتنونه عن دينه، فافتتن ووافقهم علىٰ بعض ما يريدون.

ومرت به الأيام وهو على ذلك، حتىٰ هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة، فأنزل الله عليه قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥].

قال عمر: فكتبتها وبعثت بها إلىٰ مكة، فلما قرءوها أقبلوا وفيهم عياش رضي الله عنه.

وإن شئت فقارن بين حال عياش رضي الله عنه وبين حال سعد بن أبي وقاص؛ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان من أول من أسلم في مكة، وكان له أم تحبه حبًّا عظيمًا، وكان بارًّا بها أشد البر، فلما أسلم اشتد عليه أذىٰ الكفار، وتتابع عليه أذىٰ أمه، وهو صابر، حتىٰ قالت له أمه يومًا: يا سعد، ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟! لتدعن دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتىٰ أموت، فيعيرك الناس ويقولون: يا قاتل أمه.

فنظر سعد إليها، فإذا عجوز قد رق عظمها، ودب ظهرها، واشتد حزنها، وإذا هي التي ربته في صغره، وعطفت عليه في كبره، فقال: لا تفعلي يا أماه، لا تفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فلما رأت أمه ذلك، مكثت يومًا كاملاً لا تأكل ولا تشرب، وهو يمر بها ويراها تتلمظ عطشًا ويتصبر. نعم هي حبيبة إليه،

ولكن الدين إليه أحب.

ثم مرت ليلة كاملة بها وهي لا تأكل ولا تشرب، فلما أصبحت فإذا هي قد جهدت وكادت أن تهلك، فلما رأىٰ ذلك أقبل إليها يجر خطاه، يتنازع في قلبه حبها وحب الدين، فإذا الدين في قلبه أعظم، فنظر إليها ثم انتزع الكلمات من صدره انتزاعًا، وقال لها: يا أماه، والله لو كان لك مائة نفس فرأيتها تخرج أمامي نفسًا نفسًا، ما تركت ديني أبدًا، فإن شئت فكلي أو لا تأكلي.

وقد يزيد الغي من بعض المفسدين خاصة من جلسائك السابقين فيذكرونك بماضيك؛ فهذا رافقك في سفرٍ، وذاك عنده صور، والثالث جالسك في استراحة، فإذا رأوك استقمت بدءوا يذكرونك بماضيك.

عبد الله بن سلام

وانظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم المدينة اجتمع الناس ينظرون إليه، وكانت المدينة خليطًا من المسلمين واليهود، وكان فيها عبد الله بن سلام، وكان حبرًا عالمًا من كبار اليهود، وكان قد قرأ في كتبهم صفة النبي عليه الصلاة والسلام، وعرف اسمه وهيئته، فلما رأىٰ الناس مجتمعين أقبل ينظر معهم، فرأىٰ النبي عليه الصلاة والسلام.

قال عبد الله: فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب. ثم ترك عبد الله النبي عليه الصلاة والسلام، حتىٰ سكن عنه الناس فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الوليد ينزع إلىٰ أبيه أو إلىٰ أمه؟

فسكت النبي ﷺ قليلاً ثم قال: «أخبرني بهن جبريل آنفًا، أما أول أشراط الساعة فنار تخرج علىٰ الناس من المشرق تسوقهم إلىٰ المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد».

فلما سمع عبد الله ذلك، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول

الله، وأنك جئت بحق، ثم قال: يا رسول الله، قد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم، فاجعلني خلف ستر عندك، وادع اليهود فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في.

فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ اليهود فدخلوا عليه، فقال لهم: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًا وأني جئتكم بحق فأسلموا».

قالوا: ما نعلم أنك رسول.

فأعاد عليهم: «يا معشر يهود، أسلموا» فقالوا: ما نعلم أنك رسول الله.

فأعاد عليهم، وهم يرددون: ما نعلم أنك رسول.

فقال ﷺ: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟!».

قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعملنا وابن أعملنا، وأخذوا يثنون عليه ويمدحونه.

قال: «أفرأيتم إن أسلم؟». قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم.

فالتفت النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ الستر وقال: «يا بن سلام، اخرج عليهم».

فخرج عبد الله فقال: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق.

فتصايحوا: كذبت، بل أنت شرنا وابن شرنا، ثم خرجوا، فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله، هذا الذي كنت أخاف.

فانظر كيف تنكروا له لما صار بطلاً، واتخذ القرار الشجاع، فاستقام علىٰ الدين، وتعبد لرب العالمين.

انظر كيف انقلبوا أعداء بعد صداقتهم، مبغضين بعد ودهم، ودوا لو يكفر كما كفروا فيكونون سواء.

وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم

اعلم أن كثيرًا من المستهزئين يودون لو استطاعوا أن ينتصروا علىٰ شهواتهم، فيستقيموا علىٰ الدين كما استقمت، ولكنهم تتغلب عليهم الموانع، كما قال أحد العلماء لرجل: يا فلان أسلم. فقال الرجل: الله ما يريدني أن أسلم ولو أراد لهداني.

فقال العالم: بل الله يريد، ولكن شيطانك لا يريد، وأنت قد أطعت شيطانك.

كان أبو جهل يعلم صدق النبي عليه الصلاة والسلام، لكنه يتكبر عن الاتباع، وانظر إليه لما خرج في ليلة من الليالي ليسمع قراءة النبي عليه الصلاة والسلام وهو يصلي في بيته، فجلس عند جدًّار بيت النبي عليه الصلاة والسلام، وأخذ يستمع طوال الليل، فلما طلع الفجر وأصبح خاف أن يراه الناس، فذهب مسرعًا إلىٰ بيته فلقي أثناء الطريق أبا سفيان، ثم لقي الأخنس بن شريق، فسألهما عن خبرهما، فإذا هما قد باتا يستمعان قراءة النبي عليه الصلاة والسلام، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض الناس لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلىٰ مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثالثة لم يصبروا، فأقبلوا إلىٰ بيت النبي عليه الصلاة والسلام، وأخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، وكل واحد منهم لا يدري عن الآخر، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا ثم قالوا: لا نبرح حتىٰ نتعاهد ونقسم ألا نعود، فتعاهدوا علىٰ ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ يفكر في هذا الدين، وفي صدق من جاء

به، وما يمنعهم من اتباعه، فأخذ عصاه، ثم خرج حتىٰ أتىٰ أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وأشياء لا أعرفها ولا أعرف ما يراد بها.

فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فسكت أبو جهل قليلاً ثم قال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تجاثينا علىٰ الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فإن صدقناهم صرنا تبعًا لهم، لا والله لا نسمع به أبدًا ولا نصدقه.

ويستمر أبو جهل علىٰ كبره وغيه، ويقتل سمية.

أمية بن خلف: تطيب.

هل أخزاك..

نعم، يموت أبو جهل ويمضي بنتنه إلىٰ النار؛ لأنه لم يستطع أن ينتصر علىٰ كبره وغيه، لم تطاوعه نفسه علىٰ أن يدس أنفه في التراب سجودًا للملك الوهاب - جل جلاله - ومثل أبي جهل كثير ممن عرفوا الحق، ودوا لو يهتدون، لكنهم ضعفوا عن مقاومة العوائق، فظلوا ينظرون إليها من بعيد؛ فكن أنت بطلاً، وكوني، وأقدم علىٰ الخير، وإن شعرت بأحد يجرك من ورائك، فكن شجاعًا ولا تلتفت إليه فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، ستقف بين يدي الله وحدك، وستحاسب وحدك، وتسأل عن عملك وحدك.

السعادة الزوجية

من اللطائف، أذكر أن أحد زملائنا وهو ساكن في الدمام، وأهل زوجته في الرياض وعادة كل شهرين أو ثلاثة يذهب بزوجته إلىٰ أهلها لزيارتهم ويتعب في الذهاب وتعمل له مشكلة، يعني حتىٰ يذهب بها لبعد المسافة، يعني بين (٤٥٠كم)، المهم يوم من الأيام اتصل عليه واحد من أصهاره أخو زوجته يوم الاثنين نصف الأسبوع. قال: يا فلان والدي توفي اليوم صباحًا، بودي لو تحضر أختي عندنا تحضر العزاء وتأتي نطمئن عليها.

قال: الله يغفر له ويرحمه، ورجع قبل الظهر البيت دخل علىٰ زوجته هيا أنا أحضرت الأولاد من المدرسة تجهزوا سنذهب للرياض.

قالت: لماذا؟ ماذا حدث؟ نحن ذهبنا عن قريب قبل أسبوعين والموعد بعد شهرين وبعد ذلك اليوم الاثنين غدًا وبعده مدارس.

قال: اليوم اذهبي هناك ظروف، قالت ماذا حدث؟ قال: اذهبي، ركبت السيارة خاف الزوج أن يقول لها منذ البداية والدك مات فيكون النواح والصراخ فلا يستطيع أربع ساعات أن يهديها، فأراد أن يخبرها الأمر بلطف.

فلما أكثرت من الكلام: لماذا نذهب اليوم؟ ماذا حدث، أهلي ماذا حدث لهم؟ قال: بصراحة يا فلانة، تعرفين أن الله ﷻ أحل أن الزوج يتزوج أربع نساء، أنا بصراحة تزوجت واحدة ثانية وغدًا أدخل بها وأضعك عند أهلك أسبوعًا ثم آتي وآخذكم.

قالت: لماذا وأنا ماذا بي؟ وحرام عليك، وأنا أحلىٰ امرأة في العالم ولا يمكن أن تجد مثلي، ولا يمكن تجد مثل دلالي، آه، ويلي ويلي، وتضرب بيدها علىٰ التبلوه، وتدفع الأولاد، يا بنت الناس.... لا، حرام عليك آه.. ويلي ويلي.. كيف أعيش معك، أنا التي صبرت عليك، أنا أنا.... يا بنت الناس هدوء، كل الناس بتتزوج، آه إلا أنا.

المهم المرأة الرجل أخذ يهدئ من روعها، المهم لما وصلوا للرياض أراد أن ينزلها عند أهلها والمرأة ما تقدر أن تنزل من شدة البكاء.

قال: اسمعي الآن. قالت: نعم.

قال: بصراحة أنا ما تزوجت لكن ترئ والدك مات اليوم صباحًا.

قالت: يموت ما يموت الله يرحمه، أهم شيء أنك ما تزوجت.

قال لها: ما تزوجت، قالت: الله يرحمه، لذلك أخذت الأولاد وراحت تصلي عليه، فانظر سبحان الله، طبعًا يعني انظر إلىٰ تلطفه في بعض الأخبار التي يكون فيها مشقة، انظر كيف كان يستطيع أن يتلطف معها في ذلك.

تلطفه ﷺ مع نسائه:

كان النبي ﷺ في تعامله مع زوجاته يتعامل بمثل هذه الرفعة في التعامل، وكان ﷺ يلاطف عائشة، يقول لها يومًا: «يا عائش».

قالت: نعم.

قال: «إني أعلم إذا كنت غاضبة علي وإذا كنت راضية».

قالت: كيف؟

قال: «إذا كنت راضية عني وحلفت قلت: لا ورب محمد ﷺ، وإذا كنت غاضبة علي قلت: لا ورب إبراهيم ﷺ».

قالت: نعم!! والله إني ما أهجر إلا اسمك. تقول: ما أستطيع أن أغضب عليك، لكن اسمك لأني غاضبة ما أريد أن أقوله علىٰ لساني.

انظر كيف فهم ﷺ حتىٰ نفسية زوجته، كيف استطاع ﷺ أن يتلطف معها وأن يحتويها.

حق الرجل على زوجته:

طبعًا نحن نعلم كما أن الرجل لزوجته عليه حق كذلك هو له علىٰ زوجته حق.

النبي ﷺ يقول كما في المسند: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحصنت فرجها وأطاعت بعلها قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت».

وقال ﷺ: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وفي المسند: أن امرأة أتت إليه ﷺ فقال لها: «أذات زوج أنت؟» أأنت متزوجة؟ قالت: نعم.

قال: «كيف أنت له؟» - كيف تعاملك معه؟ - قالت: والله ما آلوه جهدًا؛ يعني: أنا أتعب وأحاول أن أفعل كل شيء يرضيه.

فقال ﷺ: «انظري كيف أنت له، فإنه جنتك ونارك».

يقول: قد تعاملينه بسوء فتدخلين النار، ولو تعاملينه معاملة حسنة تدخلين الجنة. نعم، هذه توصي المرأة بزوجها، لكن أيضًا لا ننسىٰ الأحاديث التي توصي الزوج بزوجته.

مرة من المرات كان عمر بن الخطاب في بيته فأقبل رجل من الناس، وبينه وبين زوجته مشكلة، ويريدها أن تعقل.

المهم: المرأة ما هي محتملة، فقال الرجل: أذهب لعمر بن الخطاب أشتكيها، وصل الرجل إلىٰ عمر بن الخطاب لما طرق الباب، سمع صوت زوجة عمر بن الخطاب تصرخ عليه: يا عمر أنا.. أنا.. وصراخ.

وعمر أصلاً كان إذا مشى في طريق سلك الشيطان طريقًا آخر؛ لأنه يخاف من عمر، عمر كان إذا مشىٰ مع قوم ثلاثة أو أربعة يقع بعضهم علىٰ بعض من هيبة عمر، وسمع زوجة عمر تتكلم عليه، الرجل لما سمع صار كالمستجير من الماء بالنار حين جاء إلىٰ عمر وجد زوجته تصرخ عليه طرق الباب ومضىٰ.

عمر شعر أن عند الباب أحدًا فخرج عمر فرأىٰ الرجل موليًا قال: تعال.

أقبل إليه.

قال عمر: ما بالك، أنت الآن جئت إلىٰ الباب ثم رجعت؟

فقال له ذلك الرجل: يا عمر، إني جئت أشتكي إليك زوجتي فتفاجأت أن بينك وبين زوجتك مشكلة.

فقال له عمر: يا رجل، إنها زوجتي، صانعة طعامي، وأم أولادي، وموضع شهوتي، وغاسلة ثوبي، ومدبرة شأني، أفلا أصبر منها علىٰ شيء يسير من أجل هذا، دعها تصرخ مرة مرتين في الشهر ليست قضية.

هذا لا يعني أن الواحد يكون كالحمل الوديع وزوجته تضربه وتهينه، ويقول: يا زوجتي الحبيبة يا كذا، لا لا. الرجل يكون رجلاً، ما يرضىٰ بهذا، وذكرنا هذا عن عمر لا يعني أن الواحد يجلس ولا يفعل شيئًا.

يعني: إذا كان واحد من زمان امرأة تصرخ فيه يقول: أنا مثل عمر، لا، ما أنت مثل عمر، عمر مرة من المرات زوجته صرخت عليه، ما هو دائمًا، لكن مع ذلك ينبغي أن توزن الأمور بموازينها.

النبي ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله».

ويقول ﷺ: «لقد طاف بأهل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن». ثم قال: «والله أولئك بخياركم».

إذًا ليس من خيار المؤمنين الرجل الذي يضرب زوجته دائمًا.

مسئولية الرجل في أسرته

ذكر أبو نعيم رحمه الله في «الحلية»: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوتي له بزيت من الشام حتىٰ يقسمه بين المسلمين ويبيعه عليهم، ثم يجعل ما ينتج منه من مال في بيت مال المسلمين حتىٰ يصرف ذلك في منافع المسلمين، فقد أوتي له بهذا الزيت في قرب.

وكان عمر ﷺ كلما فرغت قربة من هذه القرب قلبها ثم عصرها حتىٰ انتهىٰ كل ما فيها من زيت ثم يطرحها عن يمينه، ثم يأخذ قربة أخرىٰ فلا يزال يفرغ في هذه الجفان ويبيعها عليهم حتىٰ إذا فرغت هذه القربة وعصرها ألقاها عن يمينه أو شماله.

وما انتبه إليه عمر حتىٰ فعل ذلك بأربع قرب أو خمسٍ أو ست.

فالتفت إليه عمر ﷺ، فإذا شعره قد ادهن وصار لامعًا، وقد ذهبت عنه غبرته.

فالتفت إليه وقال له: يا بني، إني والله لأرىٰ شعرك قد أخذ من زيت المسلمين بغير عوض، والله لتدفعن ثمنه.

قال الغلام: يا أبت، من أين أدفع ثمنه؟

قال: والله لتفعلن.

قال: من أين يا أبت؟

قال: والله لا يردك إلا الحجام، أي الحلاق.

قال: يا أبت، ما ضر هذا المسلمين.

قال: والله ما يردك إلا الحجام، يحاسبني الله تعالىٰ علىٰ قطرة أو قطرتين من الزيت قد أخذتها بغير عوض أئن كنت ولد الخليفة.

أي أن عمر ﷺ يقول لابنه: لأنك ولد الخليفة لماذا هؤلاء الأيتام ينظرون لا يفعلون كفعلك، ولا جرءوا كما جرئت، والله ما يردك إلا الحجام.

ثم مضىٰ بولده إلىٰ الحجام - الحلاق - ثم حلق رأسه كله خشية من أن يحاسبه الله تعالىٰ علىٰ قطرة أو قطرتين.

تعليم الإمام أحمد لولده

الإمام أحمد بن حنبل ﷺ لما انتهت الفتنة أرسلْ إليه المتوكل ببعض الهدايا؛ أرسل إليه شيئًا من الملابس، وشيئًا من الزيت، وشيئًا من الشراب والطعام وغير ذلك، والكساء مما تتمتع به الناس.

فلما أرسله إليه وأدخله إليه الرسل قالوا: الذي أرسله هو الخليفة.

قال: أو قد جاءكم مني كتاب - أي جاءكم مني أحد يطلب أني أريد كساء أو ملابسًا أو طعامًا أو شرابًا -؟

قالوا: كلا والله ما وصلنا منك كتاب، لكن الخليفة أرسلها إليك ابتداءً؛ يعني هدية إليك.

فقال: سبحان الله! قالوا له: جزاك الله خيرًا، ثم ردوها إليه.

فكان من الموجودين ابنه عبد الله قال: يا أبت أما ترىٰ حال إخواني، أما ترىٰ حاجتنا؟ أما ترىٰ مسكنتنا؟

قال: والله ما يبقىٰ في البيت منها شيء.

قال: يا أبت أما ترىٰ حالنا؟

فزجره أبوه ونهره حتىٰ سكت عنه ثم قال لهم: احملوها وقولوا له: جزاك الله خيرًا.

فأخذوها، فما زال عبد الله يلوم أباه علىٰ ردها.

فلما مضت سنة كاملة وانتهت..

قال الإمام أحمد: يا عبد الله!، تعال يا ولدي، فجاء إليه.

قال: يا بني! تذكر تلك الألبسة وذلك الطعام وذاك الشراب الذي كان أرسله الخليفة قبل سنة؟

قال: نعم أذكره يا أبت.

قال: أرأيت إن كنا أخذناه أكان يبقىٰ إلىٰ الآن؟

أي: فالطعام يبقىٰ سنة كاملة أم ينتهي، وذاك اللباس يبقىٰ سنة كاملة أم يبلىٰ؟

قال: يا أبت، يفنىٰ الطعام والشراب واللباس.

قال: يا بني! فطوال هذه السنة هل جعت فما وجدت طعامًا تأكله؟

قال: لا، كنت أجد أي شيء، كنت أجد مرة تمرًا أو خبزًا فأكله.

قال: فطول هذه السنة أعطشت ما وجدت شرابًا تشربه؟

قال: لا يا أبت.

قال: فطوال هذه السنة هل مشيت عاريًا في الطريق ما وجدت لباسًا تلبسه؟

قال: لا يا أبت، والله لقد كنت كاسيًا.

فقال: يا بني، إنما هو طعام دون طعام، وشراب دون شراب، ولباس دون لباس.

هذا يتعشىٰ علىٰ بطة، وهذا يتعشىٰ علىٰ فول، هذا يدفع ثلاثة ريالات، وهذا سبعمائة ريال، هذا يتغدىٰ بخمسمائة ريال، وهذا يشرب عصيرًا بخمسة أو عشرة ريالات، وهذا يقف عند براد المسجد يملأ الكأس ويملأ بطنه ماء، وهذا يلبس ثوبًا بمائتين، وهذا يلبس ثوبًا بعشرة ريالات أو عشرين.

ثم قال أحمد – رضي الله عنه ورحمه -: يا بني، إنما هو طعام دون طعام، وشراب دون شراب، ولباس دون لباس، وإنما هي أيام قلائل - عشرين سنة أو ثلاثين سنة أو مائة سنة - نتبلغ بها حتىٰ نلقىٰ الله تعالىٰ.

فاستقر ذلك في قلب عبد الله بن أحمد، فألف السنة وهي حجة في الرد علىٰ أهل البدع، وكان ممن جمع مسند أبيه «مسند الإمام أحمد»، وكان له في طلب العلم وتعليمه للناس أمر عظيم، وذلك لأن الذي رباه هو أحمد بن حنبل رضي الله عنه ورحمه.

حرص الوالد على الرضاعة من حلال:

ذكر الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» لما ترجم للإمام الجويني - أبي المعالي الجويني - إمام الحرمين قال: كان إمام الحرمين إذا ناظر أو حدث ترتج عليه أحيانًا؛ يعني يلتبس عليه الكلام أحيانًا فإذا خطب تلتبس عليه بعض الكلمات ويبدأ يتأتأ أو يثأثأ ونحو ذلك، بحيث إن الكلام يحتبس في فمه علىٰ لسانه وما يستطيع أن يبلغه للناس.

فكان يقول للناس إذا احتبس الكلام علىٰ لسانه: والله إني أعلم سبب هذا الاحتباس. أي: إني لأعلم سبب أن الكلام يرتج علي أحيانًا.

قيل له: وما سببه؟

قال: قد كان أبي رجلاً صالحًا - كان أبوه من العلماء لكن ليس في مثل شهرته - فكان يعلم الناس، وكان يحرص علىٰ المال الحلال، لا يدخل منزله إلا الحلال، فكان أبي ﷺ يمنع أمي أن يرضعني غيرها.

فيقول: لا يرضع الولد إلا أنت.

أي: لأنك تأكلين حلالاً وتشربين حلالاً وتلبسين حلالاً، أما غيرك فلا أدري ما يطعمها زوجها أو أولادها أو نحو ذلك، فكان يقول لأمي: انتبهي لا يطعم الولد ولا يسقي الولد ولا يرضع الولد غيرك.

قال: ففي يوم من الأيام دخلت أمي إلىٰ داخل البيت وكنت أنا في فناء البيت فبكيت بكاءً شديدًا، ولم يكن عندي أحد.

قال: فدخلت جارية لجيراننا - أمة يملكها جارنا - فلما دخلت رأتني أبكي، فحملتني وقد كانت والدًا - يعني: كانت مرضعًا - ثم قربتني إلىٰ صدرها فالتقمت ثديها، فما زلت أرضع حتىٰ سكن بكائي، وهذا قد حدثه به أبوه.

قال: فلما دخل أبي ورآها فزع وجذبني منها، وأدخل أصبعه في حلقي انظر إلىٰ الفرق - حتىٰ قئت ما في بطني.

ثم قال: أنت جارية لجيراننا، وكلك ملك لهم، وما استأذناهم في لبن ثديك.

أي: إننا لم نستأذن جيراننا في لبن ثدي جارتنا، فما يجوز أن نأخذه بغير إذن.

ثم جعلني أبي علىٰ هذا الحال عند أمي، فوالله حدثني أبي بذلك، ووالله ما أرىٰ هذا الذي يصيبني من التأتأة في الكلام أو من أن يرتج علي ويغلق علي الكلام أحيانًا إلا بسبب تلك الرضعة.

الإمام أبو حنيفة والرضاعة:

وروي ذلك أيضًا ذكره في «الأشباه والنظائر» لما ترجم للإمام أبي حنيفة ﵀.

ذكر أيضًا بأنه كان يرتج عليه أحيانًا - أي يغلق عليه في الكلام - فكان يرجع هذا إلىٰ رضعة أرضعته إياها امرأة جيرانه، فكان كلما أغلق عليه قال: إيه، هذه من تلك الرضعة المشئومة.

تلقين الأم التوحيد لولدها

ذكروا أن أم أنس بن مالك ﵄ كانت تهز ولدها في حضنها وترضعه، فكانت تلقنه أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ذكرها ابن حجر وغيره.

فكانت الأم تلقن ولدها ذلك، فكان أبوه لم يسلم بعد، يقول: لا تفسدي علينا ولدنا، ويكرر عليها ذلك.

فكانت الأم تقول: إني والله أعد ولدي لأمر لا تعلمه.

فلما كبر أنس وأصبح صبيًا، ذهبت به أمه إلىٰ الرسول ﷺ، ثم أصبح خادمًا، ثم أصبح من علماء الأمة، وأصبح راوية الإسلام، بل ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» لما ترجم له، قال: قد بلغ أولاده أكثر من مائة، وعمر هو

أكثر من مائة، وذكر مما أعطاه الله تعالىٰ؛ لأن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك له في ماله، وكثر ولده» أو كما قال ﷺ.

فتأملوا أيها الإخوة الكرام، كيف كان أولئك يحرصون على مثل هذا.

عقوق الآباء للأبناء:

لذا لما جاء رجل إلىٰ عمر بن الخطاب ؓ يشكو إليه عقوق ولده، فقال عمر: ما يفعل ولدك معك؟

قال: يا أمير المؤمنين يصرح بي إذا رآني، وقد يطأ علي بقدمه أحيانًا أو قد يضربني أو قد يفعل ويفعل.

فقال عمر: ادع إلي الولد.

فلما حضر هذا الولد، قال له عمر: يا غلام، أو تفعل كذا بأبيك؟ أما سمعت الله تعالىٰ يقول كذا وكذا؟

فقال الغلام: يا أمير المؤمنين! لا تعجل واسمع مني.

قال: ها، حدث ما تريد؟

قال: يا أمير المؤمنين! إني لأعلم أن للأب حقًّا علىٰ ولده، أفليس للولد حق علىٰ أبيه؟

قال: بلىٰ.

قال: فما حق الولد علىٰ أبيه؟

قال عمر: ثلاث؛ حق الولد علىٰ أبيه: أن يحسن اختيار أمه - فلا تكون ممن عرفت بالفسق والفجور - وأن يسميه اسمًا حسنًا، وأن يحفظه القرآن.

قال: والله يا أمير المؤمنين، إن أبي ما فعل ذلك.

قال: ولماذا؟

قال: أما أمي فهي سوداء قد اشتراها بدرهمين، فوقع عليها ليلة فحملت في،

وقد سماني جعلاً، والله ما حفظني من القرآن آية؛ أي: قد ولدت من هذه الأمة وهو ما ود أنها حملت، ويوم ولدتني سماني جعلاً، ما سماني اسمًا حسنًا مثل أحمد أو عبد الله، وما حفظني القرآن.

فقال عمر للأب: اذهب ولا أراك، فوالله لقد سبقت ولدك إلىٰ العقوق.

أي: الخطأ الأول أصلاً ما هو من هذا الولد الذي نلومه الآن، إن الخطأ الأول أصلاً منك، فأنت لم تحسن معاملة ولدك منذ كان صغيرًا ولم تفكر فيما يقع لولدك بعد ذلك.

تأثير الأصحاب في تربية الأولاد

يحدثني أحد الإخوة قبل فترة بسيطة وهو من حفظة كتاب الله ﷻ، زارني في المنزل فثار بيني وبينه موضوع تربية الأولاد وبر الوالدين.

فقال: اسمع هذه الحكاية التي وقفت عليها بنفسي.

فقال: كان في مدينتي رجل عنده أولاد، أكبر أولاده في الثانوية، فكان الأب مهملاً ولده، وهمه أن الولد ينجح في الدراسة، فيذهب في الصباح إلىٰ المدرسة ويأتي الظهر فيسأله: ماذا أخذت في المدرسة؟

فهذه هي التربية عند هذا الأب، ولكن الولد لا يصلي الفجر مع المسلمين، فيقول: يهديه الله.

إن ابنك لا يصلي العصر، فيقول: يهديه الله.

إن ابنك يلعب ولا يصلي المغرب، فيقول: يهديه الله.

لكن لو قيل: إن ابنك لم يذهب إلىٰ المدرسة يومين، فإنه يهتم ويغتم ويقول: لماذا لم يذهب؟

الشاهد: هذا الولد من شدة إهمال أبيه تعرف صحبة سيئة، ثم وقع في الدخان، ثم شيئًا فشيئًا وقع الولد فيما هو أعظم من ذلك شرب المخدرات،

وصارت الأمور علىٰ ذلك.

والولد يأخذ من أبيه في الشهر خمسين ريالاً، ستين ريالاً وتكفيه طوال الشهر كمصروف، ولكن هذا الولد لم يكفه هذا المبلغ فبدأ يأخذ من أمه خمسين ريالاً، ويأخذ من أخته خمسين، ويسرق من أبيه مائة، وما أصبح يكفيه ألف ريال في الشهر.

فشعر الأب بذلك وبدأ يضيق عليه في إعطائه المال وفي تصرفاته وخروجه وهكذا.

وفي يوم جلس هذا الولد مع أصحابه الذين يدفعونه إلىٰ الشر دفعًا، فقال له قائل منهم: يا فلان، أنت تعبتنا، كل يوم تتسلف منا، سلفوني سلفوني، ثم ما عدنا نسلفك.

قال: فماذا أفعل، أنا أبي ما يعطيني مالاً، ووالله إني أسرق أحيانًا من أمي ومن أخواتي ومن كذا.

فقال له أشقاهم: يا فلان، أبوك عنده مال كثيرة جدًّا، فإذا مات!!

قال: ماذا تعني أأقتله؟ فلو قتلته قبض علي وقتلت.

قال: لا تكن غبيًا، لا تطعنه بسكين ولا بمسدس، ولكن اقتله بطريقة ذكية ضع له سمًّا في طعام أو شراب أو أي شيء بحيث إن والدك يموت ولا يعلم أحد بذلك.

فوقع الأمر في نفس الولد، وقد نزعت من نفسه خشية الله تعالىٰ، لكنه بدأ يترقب متي الوقت المناسب لذلك.

في يوم تعطلت الكهرباء في المنزل، فجاء الأب وأطفأ عداد الكهرباء لكي يصلح العطل، فأمسك الأسلاك بيده وحاول معرفة سبب العطل.

فاستغل الولد الفرصة وذهب فرفع مفتاح الكهرباء بسرعة، فأمسكت الكهرباء بالوالد فوقع في الأرض فما مات، ولكن أصيب بجلطة وبشلل نصفي

وأصيب بمرض في العينين ومشاكل كثيرة، فحملوه وذهبوا به إلىٰ المستشفىٰ، ووضع في الإنعاش شهرًا أو شهرًا ونصف، ثم خرج.

فأصبح الذي يذهب به إلىٰ المستشفىٰ ويرافقه هذا الولد لأجل العلاج الطبيعي ومتابعة الطبيب، فتعب الولد من ذلك، فكل يوم عنده موعد، وفي الليل عنده موعد، وغدًا الصباح عنده موعد.

فقال الولد في نفسه: الآن أنا قد تعبت من هذا الرجل الشايب، وما زال فيه العافية، فوقع في نفسه أن ينهي هذا الأمر بقتل والده.

ففي يوم ذهب بأبيه إلىٰ المستشفىٰ ثم بعدما كشف عليه الطبيب أعطاه الروشتة لإحضار قطرة للعينين.

فقال له الطبيب: هذه القطرة اشترها من الصيدلية وضع في عين والدك قبل أن تأتوني بربع ساعة حتىٰ تتوسع حدقة العين ونستطيع أن نفحصها فحصًا جيدًا، فأخذ الولد الروشتة ووضعها في جيبه، ثم ذهب بوالده إلىٰ المنزل، وذهب إلىٰ الصيدلية واشترىٰ هذه القطرة في قارورة زجاج ثم فرغ الذي فيها ووضع مكانه «أسيد».

والأسيد هو سائل لو وضعته علىٰ أصبعك لتقطع وما بقي فيه شيء خاصة إذا كان مركزًا غير مخفف، فما يتقطع اللحم فقط بل يتقطع العظم؛ أي ينتهي الإصبع، وهو مادة تستعمل - أكرمكم الله - في الحمامات والمجاري.

ووضع هذا الأسيد مكان القطرة في كيس الصيدلية ثم حملها معه وأخذ والده في السيارة وقال: قد تأخرنا علىٰ المستشفىٰ.

وبسرعة أركب والده معه وعند الإشارة وقفوا: قال الولد لأبيه: يا والدي، الطبيب أعطاني قطرة لكي أقطرها في عينك لكي تتسع الحدقة، وذلك قبل الموعد بعشر دقائق، وقد نسيت أن أفعل ذلك في البيت.

فقال والده: افعل قبل أن تفتح الإشارة بالمرور.

فخفض الوالد رأسه وقربها إلىٰ ولده وفتح عينه، ففتح الولد الزجاجة ثم صب نصفها في هذه العين والنصف الآخر في العين الأخرىٰ، غير الذي تناثر علىٰ وجه الوالد.

المهم: بدأ الوالد بعد ذلك يشعر بسكرات الموت، وبدأ يضرب يمينًا ويسارًا ويتألم بشدة، وعند ذلك فتحت الإشارة وتحرك الولد بالسيارة بسرعة وأخذ الوالد يعاني من شدة الألم ويضطرب اضطرابًا شديدًا في السيارة حتىٰ وقعت يده علىٰ مقبض الباب ففتحه وسقط من السيارة وهي مسرعة فصدمته سيارة أخرىٰ مسرعة فإذا هو تحت السيارة وقد مات.

فأوقف الولد السيارة وكأنه لم يشعر بأي شيء وما يدري ماذا حدث لأبيه إلا أنها حالة هيستيرية،وأخذ يبحث عن مخرج من هذا الموقف، لكن بعدما تم القبض عليه والتحقيق معه وضيق عليه اعترف بكل شيء، وحكم عليه بالقصاص.

ولا أدري نفذ فيه الحكم أم لا؟!!!!

نتيجة إهمال التربية في الصغر:

قبل فترة كنت في مغسلة الراجحي قبل الصلاة، فكنت أتكلم مع الأخ المسئول عن المغسلة، فقال لي: قبل أيام جاءنا مجموعة جنائز أربع أو خمس جنائز، فصلينا عليها فخرج كل أهل جنازة بجنازتهم يحملونها ويركبونها السيارة «الجمس» الخاص بالمغسلة.

وكان بالمغسلة أربع أو خمس سيارات، وكلها خرجت ولم يبق منها شيء، فوجدت خمسة شباب كل واحد منهم معه سيارة حديثة، فحملوا جنازتهم ووضعوها في الخارج، فظلوا يبحثون عن سيارة فما وجدوا، فكل السيارات ذهبت بالجنائز إلىٰ المقابر إلا جنازة هؤلاء الشباب.

قلنا لهم: الله يهديكم، لماذا لم تأتوا معكم بسيارة تحملون فيها جنازتكم؟

قالوا: والله ما انتبهنا لذلك.

قلنا: وماذا تفعلون الآن، وجنازة والدتكم في الشمس؟

فثار أحدهم وقال: كيف تجس جنازة أمي هكذا، ولكن ماذا نفعل؟ كيف نحملها، فالسيارات التي معنا لا تصلح لحملها إلىٰ المقابر؟

وكان يتابع الموقف رجل - جزاه الله خيرًا - فقال: ما المشكلة؟

قالوا: نحن نحتاج سيارة «جمس» ولا نجد.

قال: إن معي سيارة جمس وعندي عمل، وسوف أجلس في المسجد أراجع القرآن، وأنتم اذهبوا بوالدتكم لكي تدفنوها، وعندما تنتهون من دفنها أعيدوا لي السيارة.

فقال أكبرهم: يا أحمد، بعد الدفن أعد السيارة.

فقال أحمد: لا، أنا مشغول بعد الدفن عندي موعد.

فقالوا: يا خالد، أنت بعد الدفن أعد السيارة للشيخ.

قال: لا، أنا عندي موعد مع أحد الناس بعد الدفن.

قالوا: يا عبد الله، فأنت تقوم بذلك.

قال: والله أنا مشغول بعد الدفن.

فالتفتوا إليه جميعًا وقالوا: بصراحة كلنا مشغولون، ولكن سوف نأخذ منك السيارة وبعد الدفن نتركها لك عند المقبرة ولن نستطيع أن نعيد لك السيارة.

فمن الذي مات؟ هل هي جارتهم أم شغالة عندهم أم سواق عندهم أم هي عجوز لا يعرفونها؟ التي ماتت هي والدتهم التي طالما وضعتهم في حضنها، وطالما سقتهم من ثديها، وطالما سهرت لسهرهم، وبكت لبكائهم، ومرضت لمرضهم، وطالما قامت تعتني بهم وغير ذلك، ومع ذلك انظر إلىٰ هذه النتيجة التي وجدتها في أولادها وهي ميتة، ومع ذلك يتكاسل الواحد منهم أن يحملها في سيارة ويذهب بها نصف ساعة من الوقت.

لكن الأمر الأعظم من هذا، لو تسأل كل واحد من هؤلاء الأولاد: كيف نشأت؟

لقال: والله منذ نحن صغار وعندنا دش، وعندنا فيديو، وعندنا أفلام، والمجلات لا تخلو من بيتنا، وما أحد حدثنا عن الصلاة في المسجد.

كم تحفظ من القرآن؟

والله أحفظ الفاتحة، وقل هو الله أحد.

كم تحفظ من أحاديث النبي ﷺ؟

قال: أخذنا في الابتدائي «إنما الأعمال بالنيات»، وتحفظه حتىٰ الآن.

فماذا قرأت من كتب؟ وكم حضرت من محاضرات؟ ماذا فعلت؟

تجد أنه ليس في صدره شيء من ذلك أبدًا.

والسبب في هذا يا إخوة: أمه وأبوه، لو كانت الأم حريصة وكان الأب حريصًا علىٰ هذا الولد لحصلا من ذلك خيرًا في حياتهما وبعد مماتهما، لكن لما فرطا بناءً علىٰ أن أهم شيء أن الولد يرضىٰ ويفرح ولا يغضب.

فلما كان الحال على هذا، انظر إلىٰ هذه النتيجة - التي أعوذ بالله منها - عوجلوا بها في دنياهم قبل أن تأتيهم آخرتهم.

والعجب: أن الأمهات هن أكثر تأثيرًا من الآباء، وذلك لكثرة ملاصقتهن لأولادهن.

نعم، الأب يكون أقدر في بعض الأحيان، وقد يكون له القوامة كما هو في الشريعة، والأب هو الذي يصرف الأموال وهو الذي يفعل ويفعل.

لكن اعلم أنك إذا اهتممت بالأم فإن ذلك طريق لصلاح الأولاد.

صلاح الأبناء بصلاح الأمهات

يحدثني أحد الإخوة الكرام - قبل فترة - يقول: كنت راكبًا مع شخص في سيارته وهو غير ملتزم، ومعنا اثنان من أولاده، فصعدنا أحد الكباري فبدأ الأولاد يقولون: الله أكبر الله أكبر.

يقول: فنظرت إليهم، وأنا أعلم أن الرسول ﷺ إذا كان في سفر فكان إذا علا شرفًا كبر، وإذا نزل واديًا سبح.

يقول: فالأولاد فاهمون أن هذا دائمًا إذا كان في سفر أو في المدينة، إذا ارتفعنا علىٰ شيء نكبر، فبدءوا يكبرون.

فالتفت إلىٰ أبيهم فقلت: يا فلان، أنت الله يوفقك، ما عندك طلب علم، وما أنت في الالتزام، وأولادك ما شاء الله يطبقون مثل هذه السنن، ما شاء الله عليك، وجزاك الله خيرًا علىٰ حرصك علىٰ هذا.

فقال له: والله يا شيخ ما أنا، إنما هي والدتهم، فأنا عندي زوجة تساوي قبيلة كاملة.

فقال له: وكيف ذلك؟

قال: إنها تحفظهم ماذا يقولون قبل النوم، وماذا يقولون بعد النوم، وماذا يقولون قبل الطعام، وماذا يقولون بعد الطعام، وماذا يقولون قبل دخول الخلاء، وماذا يقولون بعد الخروج منه، وهكذا بقية الأذكار.

وإن زوجتي لها طريقة عجيبة في تربيتهم.

فقال له: ما هذه الطريقة؟

قال: إذا كانوا في البيت، ووقع بين الأولاد خصومة وخلاف فتلفظ أحدهم علىٰ الآخر بلفظ قبيح أو سيئ، فإنها تنادي - الأم - علىٰ ولدها وتقول له: تعال.

فيقول الولد: هل ستضربينني؟

فتقول الأم: لا، لن أضربك، ولكن من تحب أكثر، هل تحب الله أم إبليس؟

فيقول الولد: لا، بل أحب ربي.

فتقول الأم: أنت الآن حبيب إبليس وليس حبيب الله.

فيقول: لماذا أنا حبيب إبليس؟

فتقول له: لأنك تقول كلامًا قبيحًا، ومن فعل ذلك يكون صديق وحبيب إبليس، وإبليس الآن يجلس علىٰ ظهره يضحك علىٰ هذا الكلام الذي قلته.

فيقول: وماذا أفعل لكي يبكي إبليس ويغتاظ، وأكون حبيب الله؟

فتقول: استقبل القبلة واستغفر الله مائة مرة.

فيقول: إذا فعلت ذلك يبكي إبليس؟

فتقول له الأم: نعم، إذا فعلت ذلك يبكي إبليس.

فيذهب الولد يستقبل القبلة ويستغفر الله، ويقول: يا أمي انتهيت؟

فتقول الأم: لا، بقي خمسون.

فيستغفر الله ويقول: يا أمي انتهيت؟

فتقول: لا، الآن بقي ثلاث عشرة.

فيستغفر الله ويقول: يا أمي انتهيت؟

تقول الأم: الآن بلغت المائة.

فيقول الولد: ماذا يفعل إبليس الآن؟

فتقول له: الآن إبليس ينام علىٰ بطنه ويبكي.

فيقول الولد: والله لأزيده بكاء، فيجلس يستغفر الله.

فإذا نشأ الولد علىٰ مثل هذه النشأة؛ علىٰ أن يقدم مرضاة الله تعالىٰ وما يريده الله - جل جلاله - وما يأمر به، ويترك ما ينهىٰ الله عنه ويترك جميع

المخالفات الشرعية، ويعلم أنه يقدم رضا الله علىٰ رضا نفسه، بل من باب أولىٰ علىٰ رضا الشيطان وحزبه، علمنا أن هذا الولد بعدما يكبر لن تسمع منه أمه لفظة سيئة، ولا يمكن أن يرفع صوته علىٰ والده، ولا يمكن أن يسب والده، بل لو أقسمت عليه أمه بقسم لبر بقسمها، بل لو بكت أمه بين يديه لأسرع هو وتقطع بين يديها ويسارعها إلىٰ البكاء.

لماذا؟ لأن هذا الولد قد غرس في صدره منذ أن كان صغيرًا محبة والديه؛ لأن محبة والديه من محبة الله ﷻ؛ إذ إن الله ﷻ هو الذي أمر بذلك.

فهذه المسائل - أيها الإخوة الكرام - إذا انتبهنا إليها؛ علمنا أن حرص السلف - رحمهم الله تعالىٰ - علىٰ ما يفعلونه بأولادهم لم يأت من فراغ، بل بما كانوا يغرسونه في أولادهم ويحفظونهم حتىٰ إنك إذا قرأت في سيرهم وجدت:

أن فلانًا حفظ القرآن وعمره سبع سنوات، وفلانًا حفظ القرآن وعمره تسع، وفلانًا كان عمره أربع عشرة سنة وكان يفتي الناس، كما جاء عن الشافعي ؒ، وفلانًا عمره اثنتا عشرة سنة ويحضر اثني عشر درسًا في اليوم والليلة، كالإمام أبي زكريا النووي.

وذلك لأن وراءه أمًّا كانت تعينه على ذلك.

الحرص على الكسب الحلال

كان أحد السلف إذا خرج في الصباح يمتار لأهله - يعني: يكتسب لهم طعامًا يطعمهم به طوال يومهم - فتقف له ابنته عند الباب - فانظر إلىٰ هذه البنت التي تربت تربية إسلامية حسنة صحيحة - فتقول له: يا أبت، اتق الله فينا - يعني: اتق الله فيما تكتسب وتطعمنا - فإنا نصبر علىٰ الجوع ولا نصبر علىٰ أكل الحرام - فليست مشكلة أن اليوم لا نفطر ولا نتعشىٰ - فكان يخرج يكتسب لأهله بذلك.

وقال النبي ﷺ كما في الحديث الصحيح: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥١]»، ثم ذكر النبي ﷺ أمرًا عجبًا.

فن التعامل مع الناس

أذكر أني مرة كنت في إحدىٰ البلدان في الخارج وكان معي ورد طائفي؛ يعني: يساوي أربعة آلاف ريال فأتطيب به أحيانًا، فطيبت أحد الإخوة معي، فلما وضعت له الطيب ماذا قال: يا شيخ، الله يهديك مش ها الطيب، وقام يمسح المسحة في المرتبة، فكان معي في الجهة الأخرىٰ طيب بريالين، طبعًا تعرفون أطياب الفواكه والريحان القوية جدًّا هذي التي جملتها بريالين، وقد تأخذها ببلاش، فقلت له: أيش رأيك في هذا الطيب، وطلعت له الطيب الثاني ووضعت له فقال: الله، فقلت: سبحان الله، طيب بأربعة آلاف ريال ما أعجبك، وطيب بريالين أعجبك.

أيقنت عندها أن الناس يتفاوتون فيما يتعلق بالروائح، فيما يتعلق بالمطعومات، بالمشروبات، بالمسكونات... إلىٰ غير ذلك.

وأذكر أني ألقيت دورة في الرياض، ألقيتها في مركز تدريبي لمدة ثلاثة أيام ففوجئت بالدورة التي بعدها، نفس الدورة ألقيتها بعدها بشهر... فوجئت ببعض الإخوة وهو أخ، قد تخرج في كلية الطب، هذا الأخ حضر الدورة الأولىٰ وحضر الدورة الثانية ومعه نفس المذكرة التي وزعناها في المرة الأولىٰ وجلس يسمع نفس الكلام، فناديته وقلت له: يا زيد تعال، أنت ما حضرت عندي الدورة الأولىٰ؟ قال: بلىٰ، قلت: ما الذي جاء بك في الدورة الثانية مع أنك تدري أنني سأكرر نفس الكلام بدليل أننا وزعنا عليكم نفس المذكرة التي نشرحها؟ فقال: والله يا شيخ بعد الدورة الأولىٰ كل من أعرف من زملائي، إخواني، جيراني، كل من أعرف قالوا لي: يا زيد أنت تعاملك معنا متغير إلىٰ

الأحسن، يقول: فقلت: ما داموا قد لاحظوا علي هذا التغير للأحسن فينبغي أن أحسن أكثر، فجئت لأجل أن أثبت معك هذه الأمور.

وفعلاً كنت ألاحظ منه الاهتمام جدًّا، يكتب كل صغيرة وكبيرة حتىٰ الأمثلة الواقعية يحاول أن يشير لها حتىٰ يتذكرها لو أراد أن يحكيها لأحد.

إذًا - أيها الإخوة والأخوات - ينبغي لنا عندما نستمع إلىٰ شيء يكون فيه نوع من التنبيه علىٰ أخطاء عندنا ينبغي أن يكون عندنا الشجاعة لأجل تطوير أنفسنا.

فبعض الناس الآن قد يحضر خطبة جمعة حول بر الولدين، ورغم ذلك يبقىٰ عاقًّا لوالديه، ليس لأنه يجهل حكم عقوق الوالدين، كلا بل إنه يعلم أن عقوق الوالدين محرم، ويعرف الطريقة التي يتوب بها من عقوق الوالدين، لكنه مع ذلك ما عنده عزيمة ليكسر الحواجز بينه وبين بر الوالدين ويدخل إليه.

النعيم يغير الطباع:

ذكروا أن علي بن الجهم كان شاعرًا في البر - يعني بدوي ما يعرف إلا الغنم والكلب الذي يرعىٰ الغنم، والذئاب، هذا شغله - أقبل علي بن الجهم يومًا ودخل علىٰ أبي جعفر المنصور، وأبو جعفر هو أبو جعفر لا يحتاج إلىٰ تعريف، كان يقتل الرجل لقوله: السلام عليكم، حتىٰ في مرة من المرات يحكي واحد عنه قصة يقول: كنا عند أبي جعفر فجاءه فلان، فقال: كذا وكذا، ذكر كلامًا لم يعجب الخليفة.

يقول: فجمعنا علينا ثيابنا، لماذا جمعوا ثيابهم؟

تأكدوا بأنه سيضرب عنقه، فقاموا حتىٰ لا يصيبهم الدم. فهذا رجل يقتل مثل من قال: السلام عليكم.

فدخل علي بن الجهم علىٰ أبي جعفر المنصور، فنظر أبو جعفر إلىٰ علي بن الجهم وقال: يا علي أعطني قصيدة، يريد المدح بها.

علي بن الجهم رجل آتٍ قادم من البر، فقال علي لأبي جعفر:

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالسيف في صراع الخطوب

فنظر أبو جعفر متعجبًا، ماذا تقول؟ كالكلب!! من عنده جمعوا ثيابهم، فلقد تعودوا ذلك، لكن أبا جعفر تروىٰ وصار أحكم من ذي قبل، قال لمن حوله: أسكنوه في القصر الفلاني، ولا تخرجوه منه حتىٰ أدعوه أنا إلىٰ هنا.

فظل علي بن الجهم في القصر، وهو لأول مرة يرىٰ جدرانًا مدهونة (مطلية) وستائر معلقة، وفرشًا، وأشكالاً حلوة تحضر له الأكل والطعام والشراب، فجلس في هذا القصر ستة أشهر يأكل زبدًا، وحلاوة، وبسبوسة وكريمة، ثم ناداه أبو جعفر بعد ستة أشهر، وقال له: يا علي أنشدني أبياتًا، فجعل علي يقول له علىٰ الفور:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ومن حيث لا أدري

وبدأ يعطيه من هذا الكلام كأنها قصة عاطفية، فانظر كيف استطاع أبو جعفر أن يغير من طباعه.

تواضع المصطفى ﷺ:

وهذا هو النبي ﷺ كان يمشي في الطريق فتأتي الجارية المسكينة فتقول: يا رسول الله، لي عندك حاجة، فيقول لها النبي ﷺ: «ما حاجتك؟» وهذا أمر ما ينبغي لرسول الله حتىٰ أن ينشغل به، يا رسول الله، أهلي عندهم أشغال كثيرة ويتعبونني في الأشغال، فأريد منك يا رسول الله أن تتوسط لي عندهم لكي يخففوا عني، والنبي ﷺ يقول: «هذه يدي في يدك، اذهبي بها حيث شئت»، حتىٰ يقضي لها حاجتها.

وهذه خولة بنت ثعلبة يظاهرها زوجها؛ أي يقول لها: أنت علي كظهر أمي، وكان الأمر عندهم في الجاهلية أن قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، معناه: أنت طالق.

لكن المرأة الآن في ظل الإسلام، يقول: أنت علي كظهر أمي معناها: أنت طالق أم له معنىٰ آخر، فذهبت لتسأل رسول الله ﷺ هل هو طلاق أم غير طلاق، والنبي يقول: «لا أدري، ما جاءني الوحي»، ويأمرها أن تأتي في وقت آخر، فتذهب المرأة وتأتي إلىٰ رسول الله عدة مرات وتشتكي نفس الشكوىٰ، يا رسول الله نثر بطني وأخذ شبابي و.... والرسول يستمع إلىٰ شكواها مرة ومرتين وثلاثة، ما ضجر منها ولا تأفف، والواحد منا الآن لو اتصل به مسلم يقص عليه قصته سواء في طلاق أو غيره تجده قد اضجر وتضايق ولا يتحمل، لكن رسول الله يتحمل المرأة ويتحمل سؤالها وشكواها لأكثر من مرة.

كذلك كان يتعامل الرسول ﷺ هذا التعامل الحسن الجميل مع الأطفال الصغار، فيتلطف معهم.

خيانات الشيعة الروافض

ففي عام ستمائة وستة وخمسين للهجرة (سنة ٦٥٦هـ)، الموافق لألف ومائتين وثمان وخمسين (سنة ١٢٥٨م)، دخلت العجم المغول إلىٰ بغداد، وكذلك جالوا يسقطون ويقتلون، وكذلك في عام ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرين للهجرة (سنة ١٤٢٣هـ)، الموافق لألفين وثلاثة للميلاد (سنة ٢٠٠٣م) دخلت الأعاجم الأمريكان إلىٰ بغداد، ولازالوا يفعلون ما يفعلون.

إذا نظرت إلىٰ بغداد في تلك السنين، وجدت أن الأعاجم المغول أسقطوها في السابع من صفر، وكذلك فعل العجم الأمريكان، أسقطوها في السابع من صفر.

دخل المغول إلىٰ بغداد من الجهة الشرقية، ودخل الأمريكان من الجهة الشرقية، ولقد خلف المغول السلب والنهب والقتل والترويع والجثث في الشوارع، وكذلك فعل الأمريكان لما دخلوا، توجه المغول بعد بغداد إلىٰ دمشق، وكذلك لايزال الأمريكان يخططون لأجل ذلك، فيا لله العجب!

ما الذي حدث في بغداد في تلك السنين، في تلك السنة في عام ستمائة وستة وخمسين؟ وما الذي حصل فيها منذ ثلاث سنوات؟ تجد أن الأمر يكاد أن يكون متطابقًا في غاية التطابق.

أحداث مؤلمة:

إننا اليوم ونحن ننظر الأحداث في بغداد، خاصة خلال العشرة أيام الأخيرة، لنستعيد الذكرىٰ المؤلمة للوزير ابن العلقمي الرافضي، ثم ننظر اليوم إلىٰ أحفاد ابن العلقمي الجدد، من جلادي بغداد، من قتلة أهل السنة والجماعة، من أصحاب الفتنة الطائفية، الذين يقتلون الناس في العراق علىٰ الهوية، فما يرون رجلاً أو طفلاً أو امرأة أسماءهم تتعلق بأسماء الصحابة الكرام، كأبي بكر وعمر وعثمان وزينب أو عائشة، إلا وجدت السيف يسبق إلىٰ رقابهم، تجد أن الشيعة أولئك؛ أعني الذين كانوا مع ابن العلقمي هم الذين قتلوا حاكم بغداد، واغتالوه وكادوا له، واستعانوا بالعجم في سبيل تحقيق ذلك، وكذلك هو اليوم من أحفاد ابن العلقمي يفعلون مثل ذلك، ويستعينون بالعجم لأجل إسقاط حاكم بغداد.

فمن ابن العلقمي الذي فعل ما فعل؟ ومن أحفاده الذين هم اليوم؟

تعالوا نبدأ بابن العلقمي هو رمز تاريخي من رموز الغدر والخيانة، ارتبط اسمه بسقوط الدولة العباسية، وسقوط بغداد في يد التتار الغزاة، ذلك أنه كان وزيرًا للخليفة العباسي المستعصم، وهو آخر الخلفاء العباسيين، كان ابن العلقمي كما يصفه الإمام شمس الدين الذهبي: كان شيعيًّا رافضيًّا، في قلبه غل علىٰ الإسلام وأهله، وكان يحلم بزوال دولة الخلافة الإسلامية ليقيم مكانها دولة الشيعة الباطنيين الذين أزال صلاح الدين دولتهم، وأن يزيل السنة بالكلية.

قال الحافظ ابن كثير: كان الوزير ابن العلقمي يريد أن يظهر البدعة الرافضية، وأن يعطل المساجد والمدارس، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة

ينشرون بها مذهبهم، فماذا فعل ابن العلقمي لأجل ذلك؟ اتخذ ابن العلقمي خطوات لأجل أن يسقط راية أهل السنة والجماعة في العراق، ولو نظرت في الخطوات المنتنة التي فعلها ذلك الفاجر الزنديق، لتجدنها تتطابق اليوم مع هذه الأسماء التي تسمع عنها من أحفاد ابن العلقمي في العراق.

الخطوات الآثمة:

جعل ابن العلقمي يكاتب التتار ويكاتب هولاكو، ويزين له أن يغزو بغداد، فكان التتار وكان هولاكو رئيسهم يخافون من قوة المسلمين، وكان عدد جيش المسلمين يزيد علىٰ مائة ألف مقاتل، معهم السلاح ومعهم العدد، وكان كثير من الأمراء، وهم الأمراء وهم القادة لهذا الجيش، فأخبر هولاكو بأن الجيش عندكم قوي، فلازال الوزير ابن العلقمي يزين للخليفة أن يقلل من الجيش، ولازال يشغله ببعض الشهوات الشخصية الخاصة، حتىٰ بدأ الخليفة يسرح الجيش، فسرح عشرة آلاف، فلم يكتف ابن العلقمي، فسرح عشرة آلاف أخرىٰ، فلم يكتف ابن العلقمي حتىٰ سرح الخليفة تسعين ألفًا من الجيش، ولم يبق من الجيش إلا عشرة آلاف، هم الحرس الذين يمشون في حاشية الخليفة، وفي حاشية ابن العلقمي، وفي حاشية الوزراء، لكنهم لا يستطيعون شهود المعارك، ولا القتال ولا الرمي ولا تحمل ما يقع في المعارك من قتل وتقتيل وسحق للجماجم، أما الأبطال فسرحوا.

قال الإمام ابن كثير في تاريخه: حتىٰ لقد رأىٰ أولئك الناس الجنود الذين سرحوا يستطعمون الناس في الأسواق، ليس عنده وظيفة ولا يتقن عملاً إلا القتال والجهاد في سبيل الله، فلما سرحهم ابن العلقمي بإشارته إلىٰ الخليفة، افتقرا حتىٰ كادوا أن يهلكوا جوعًا وحاجة، وجعلوا يستطعمون الناس في الأسواق - يعني: يشحذون - من الناس أولئك الذين كانوا يجاهدون، ويبذلون رقابهم في سبيل الله، كاد لهم ابن العلقمي حتىٰ سرحهم ولم يبق إلا العشرة آلاف، والتسعون ألفًا جعلوا يهيمون علىٰ وجوههم في الأسواق وبعضهم خرج

من البلد.

فلما تحقق هذا أولاً لابن العلقمي جعل يحاول في الخليفة، حتىٰ سرح الأسلحة التي عنده، منها ما بيع، ومنها ما عطل، من المجانيق والسيوف وغير ذلك من الأسلحة حتىٰ صارت بغداد عرضة للنهب لكل من أراد أن يسطو عليها، حتىٰ إذا وصل العلقمي إلىٰ ذلك، كاتب عند ذلك التتار، وقال لهم: هيأت الأمر لكم فأقبلوا.

التتـــــار:

عندها أقبل التتار يقودهم هولاكو، أقبلوا بجيش مثل الليل يسير كالسيل، لا يكاد يترك زاجة ولا عاجة في طريقه إلا أهلكها، حتىٰ وقفوا علىٰ حدود بغداد، تحير الخليفة، وجعل يجمع ما عنده من الجنود، فإذا جنود مسرحون، فجعل يستعين بهؤلاء العشرة آلاف، فإذا بهم لا يكاد يقاتل منهم إلا القليل.

قال ابن كثير: ودخلت سنة ست وخمسين وستمائة فيها أخذت التتار بغداد. قال: فنصب الخليفة المجانيق - أي مجانيق سينصبها - وابن العلقمي ذلك الرافضي قد زين له أن يسرح الجند والسلاح، قال: قد نصبوا المجانيق والعراضات ونصبوا غيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله تعالىٰ شيئًا كما قيل: لا يغني حذر من قدر. وكما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قال: فجعل التتار يقتربون، اقترب التتار حتىٰ نزلوا بنواحي العراق، ثم جعلوا يقتربون حتىٰ نزلوا بنواحي بغداد، فتحير الخليفة، ثم نظر إلىٰ هذا الفاجر الذي أوتي منطقًا ولسانًا وقدرة علىٰ الوصف، ونفاقًا كبيرًا عقديًّا متمكنًا من قلبه، من بغض أهل السنة والجماعة وبغض صحابة رسول الله، ومن رغبة في إسقاط هذه الخلافة السنية، فجعل الخليفة ينظر إلىٰ الوزير ابن العلقمي ويستشيره ما رأيك؟

قال: إني خارج إلىٰ هولاكو وسأنظر في الشأن، فخرج الخبيث بأهله وحشمه

وخاصته الذين يخاف عليهم من القتل في بغداد، وأخذ ما يحتاجه من متاعه وأمواله، خرج إلىٰ هولاكو، وأقبل علىٰ التتار وجعل يبين لهولاكو كيف يدخل إلىٰ بغداد، وكيف يقاتل، ثم قال له: وأنا سأحضر الخليفة لك في مكانك واقتله.

ثم جعل أهله وحشمه ومن اهتم بهم، جعلهم في مكان آمن، ثم رجع إلىٰ الخليفة فقال له: إن هولاكو يريد أن يقابلك، فخذ ما تستطيع من الخزنة من مصاغ وذهب وفضة وهدايا وعطر ومسك، فجعل الخليفة يجمع ما يستطيع في موكب عظيم.

وقال له الوزير ابن العلقمي: لا تخرج إليه إلا في حاشية عظيمة، معك الوزراء والأمراء وأهلك وأئمة المساجد والخطباء، وجعل الخليفة يجمع كل ما يستطيع، قال ابن كثير: فخرج الخليفة إليه في سبعمائة راكب، من القضاة والفقهاء والصليبية - يعني العباد - ورءوس الأمراء والدولة والأعيان.

قال: فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو، حجبوا عن الخليفة - يعني فصلوا عن الخليفة - إلا سبعة عشر نفسًا؛ يعني بقي ستمائة وثلاثة وثمانون بالخارج.

قال ابن كثير: فلما خلوا بهؤلاء الستمائة والثلاثة والثمانين نحروهم جميعًا، فسلبوا ثيابهم، أول شيء نزعوا ثيابهم وإذا نظرت في هذه الصورة من تعرية الفقهاء والقضاة والعباد والأمراء والقادة، ارجع بذاكرتك إلىٰ الصور التي رؤيت في سجن أبو غريب من تعرية إخواننا هناك.

قال ابن كثير: عروهم من ثيابهم ثم نحروهم نحرًا، قال: ثم دخل الخليفة، فلم يلبث أن قتل من معه، وبقي الخليفة وحده، لاحظ أن الذين كانوا مع الخليفة ليسوا من عامة الناس بل هم متميزون، من قضاة وفقهاء وأمراء؛ يعني كل من يستطيع أن يقود الناس في بغداد، لذلك لما سقطت بغداد، وحدث ما حدث فيها من التقتيل وخرج هولاكو لبثت بغداد - يعني: أهل بغداد - قرابة

سنة ليس لهم قائد؛ لأن الناس في بغداد كانوا إما قتلىٰ وإما أناسًا ليس عندهم أي قدرات، وهذا هو الذي قصده الوزير ابن العلقمي الرافضي، وبقي الخليفة بعد قتل من كان معه وأراد أن يقتله هولاكو وابن العلقمي ملصوق بجانبه.

عجب عجاب:

والعجيب أن أحد وزراء هولاكو، هو نصير الدين الطوسي، وهو رجل رافضي زنديق، وله مؤلفات عند الرافضة، لا تزال إلىٰ اليوم يعمل بها ومعتبرة وسنذكر كلامًا للخميني وغيره من نصير الدين الطوسي.

فقيل لهولاكو: إن هذا - يعني: الخليفة - له نسب بمحمد ﷺ، وقد قيل: إن من يسفك دمًا لهم علىٰ الأرض فإنه يموت جوعًا، فقال هولاكو: إذًا كيف نقتله، قالوا له: ضعه في جولق - يعني: كيس كبير من قماش - فوضعوه في كيس كبير، ثم جعلوا يركلونه بأقدامهم حتىٰ يموت دون أن يسيل الدم. ولك أن تستعيد صورة حاكم العراق التي صورت له بعدما شنق، وفيه كدمات في وجهه من الرفث بالأقدام.

نرجع إلىٰ حاكم بغداد والذي ظل المجرمون يرفثونه بأقدامهم، وقيل: إنهم أغرقوه حتىٰ مات، وهنا دخل هولاكو بجيشه التتري إلىٰ بغداد، فلبث فيها أربعين يومًا يقتل الناس.

يقول ابن كثير رحمه الله وهو يصف حال هذا الفاجر: لما دخل بغداد ومعه ابن العلقمي، قال واصفًا لأحوالهم: دخل هولاكو إلىٰ بغداد، وقتل هو وجيشه من قدروا عليه من النساء والرجال والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش وقني الوسخ - أماكن الوسخ - وكمن كثير من الناس أيامًا لا يظهرون، وكانت الجماعة من الناس يجتمعون إلىٰ الخانات، وإلىٰ المحلات والدكاكين، ويغلقون عليهم الأبواب فيفتحها التتار؛ إما بكسر الباب أو بالنار فيدخلون عليهم، فيهربون منهم إلىٰ أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتىٰ تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا

لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك كان القتل في المساجد والجوامع، ولم ينج منهم أحد سوىٰ أهل الذمة واليهود، ومن التجأ إلىٰ أهل الذمة، ومن التجأ إلىٰ دار الوزير ابن العلقمي الرافضي هؤلاء هم الذين نجوا، وطائفة من التجار، أخذوا لهم أمانًا قد بذلوا عليه أموالاً جزيلة، حتىٰ سلموا وسلمت أموالهم.

قال ابن كثير وهو يتحدث عن عدد القتلىٰ في بغداد علىٰ يد هولاكو وجيشه: وقد اختلف في عدد وكمية القتلىٰ في بغداد، قال ابن كثير: وبلغ عدد القتلىٰ ثمانمائة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانمائة ألف.

وقد رجعت ثمانية مراجع تاريخية، فوجدت أنها جميعًا ذكرت أنهم بلغوا مليونًا وثمانمائة ألف، فلقد قيل: بأنهم - أي: التتار - قد تركوا كل ما تعلق به أمر دنيوي من عارف بالطب، أو بالهندسة، أو غير ذلك، أما غير هؤلاء فقد نحروا نحرًا.

قال ابن كثير: وأراد الوزير ابن العلقمي - قبحه الله ولعنه - أن يعطل المساجد والمدارس ببغداد وأن يستمد المشاهد - الأضرحة - وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها.

قال ابن كثير ﵀: ولما انقضىٰ الأمر المقدر وانقضت الأربعون يومًا، بقيت بغداد خاوية علىٰ عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلىٰ في الطرقات كأنهم التلول، بعضهم فوق بعض، كأنهم تل من الرمال، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتىٰ تعدىٰ الهواء وسرىٰ إلىٰ بلاد الشام.

سبحان الله!! حملت الريح النتن والمرض الذي من الجيف إلىٰ بلاد الشام، فمات خلق كثير في الشام من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع علىٰ الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال ابن كثير: ولما نودي في بغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنا والحشوش والآبار، خرجوا كأنهم موتىٰ نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده.

قال: وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلىٰ واجتمعوا تحت الثرىٰ بأمر الذي يعلم السر وأخفىٰ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنىٰ.

أما مراجع الخيانة والعار والشنار من الشيعة الذي ناصروا هولاكو علىٰ قتل أهل السنة، والذين زينوا له ذلك، والذين نافقوا وخانوا، حتىٰ دخلوا بين أهل السنة وكسبوا ثقتهم، ثم كادوا لهم، وقلبوا لهم ظهر المجن.

هؤلاء قد سلموا من القتل والتقتيل، لكن الله ﷻ لم يمهل ابن العلقمي، فإنه لم تمض عليه خمسة شهور إلا وقلاه أهل التتار فصار يركب علىٰ حمار بعد أن كان يركب علىٰ جيد الدواب ومعه الخدم والحشم، فسار مرة علىٰ حماره يقوده عبد له مملوك، فمر بامرأة فقالت: إيه يا بن العلقمي بعدما كنت وزيرًا لا يرىٰ طرف موكبك يكون حالك علىٰ هذا!!

فقال: آه ثم رجع إلىٰ بيته فلم يلبث يومين حتىٰ مات.

جمع الله عليه سوء الدنيا بتعجيل العقوبة، حتىٰ لا يستمتع بنتيجة فعله، ولعل الله ﷻ أن يجمع عليه أيضًا سوءًا في الآخرة.

وكل هذا فعله ابن العلقمي، بأن أضعف الجيش، وفعل ما فعل من تمكينه للتتار من دخول بغداد بعد أن سهل لهم ذلك وفعل ما فعل، كل ذلك طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضية، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، أو من العلويين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب علىٰ أمره، وقد رد الله كيده وأذله بعدما مات عاجلاً.

ثم قال ابن كثير: ولم يمهله الله تعالىٰ، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما تقدم

معنا أنه مات عاجلاً.

هذا هو الرأس الأول الرافضي ابن العلقمي، كان من سكان العراق وكاد لأهل السنة والجماعة حتىٰ تحقق لها ما أراد، وها هم أحفاده يعملون اليوم مثل عمله أو أشد.

الرأس الثاني للفتنة:

أما الرأس الثاني فهو نصير الدين الطوسي، وهو الذي دبر مع ابن العلقمي لأجل أن تسقط الخلافة الإسلامية السنية في بغداد، هو مرجع من مراجع الشيعة إلىٰ اليوم، وهو عالم مشهور، وهو صاحب المؤلفات الكثيرة، استأجره الخليفة هولاكو، فقام بتحريضه علىٰ غزو العراق، وقتل الخليفة المستعصم، ثم جاء في مقدمة الركب معهم يقودهم ويدلهم، ولعلكم تذكرون دبابات الأمريكان لما دخلت بغداد، وإذا عليهم جموع من أحفاد هؤلاء يدلونهم، ويوجهونهم، ويساعدونهم، ويشتغلون لهم مترجمين، ويدعمونهم، حتىٰ رأينا صور بعض هؤلاء الرافضة وقد دعا مجموعة من هؤلاء الأمريكان إلىٰ بيته ويذبح لهم الذبائح، لماذا يفعلون مثل هذا؟ إنما يفعلونه اقتداءً بمن سبقهم من أولئك الرافضة، بنصير الدين الطوسي، وبابن العلقمي.

يقول إبراهيم الزنجاني أحد أئمة الشيعة في كتابه عقائد الإمامية الاثنىٰ عشر (٣٢٣١) يقول: كان ابتداء دولة هولاكو خان في إيران عام ستمائة وخمسين للهجرة، وكان انتهاء دولته بموت سعيد خان سلطان يازنجان عام سبعمائة وستة وثلاثين.

قال: وحمل علىٰ العراق بقيادة نصير الدين الطوسي فيلسوف الإسلام، وبتأييد سديد الدين ابن العلقمي وزير الخليفة العباسي بتاريخ ستمائة وستة وخمسين، ثم قضوا علىٰ خلفاء بني العباس.

وقال مؤرخ الرافضة محمد باقر الخوانتاري في ترجمة المجرم الطوسي في كتابه روضات الجنان (٦/ ٢٧٩) يقول: ومن جملة أمره المشهور المعروف

المنقول حكاية استيزاره؛ يعني: كونه وزيرًا للسلطان المحتشم في محروسة إيران هولاكو خان بن جنكيز خان، وهو من عظماء السلاطين التترية وأشراف المغول.

قال: وجاء في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلىٰ بغداد لإرشاد العباد ولإصلاح البلاد وقطع دابر سلسلة البغي والفساد وإخماد دائرة الجور والإلباد، بإبادة دائرة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الضغام، إلىٰ أن أسال من دمائهم الأقدار كأمثال الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة ومنها إلىٰ نار جهنم دار البوار، ومحل الأشقياء الأشرار (يقصد بهم أهل السنة والجماعة).

مهلاً لا تتعجبوا:

ولا تتعجبوا أيها المسلمون العقلاء من هذين المجرمين الذين يقومون بالتخطيط مع التتار للقضاء علىٰ الخلافة العباسية لإقامة الخلافة الشيعية آيتهم العظمىٰ الخميني وهو مرجع من مراجعهم الكبرىٰ في الزمن الأخير، سواء في إيران أو في العراق أو في لبنان أو في غيرها.

يقول الخميني: ويشعر الناس بالخسارة أيضًا لفقدان الخواجة نصير الدين الطوسي وأضرابه ممن قدموا للإسلام خدمات جليلة، فيا ترىٰ ما هذه الخدمات الجليلة؟ إنه ما فعل شيئًا إلىٰ أن قتل أهل السنة.

ويقول الخميني أيضًا وهو يتكلم عن مسألة فقهية يتكلم عن عمل الشيعي تحت ولاية التتري أو النصراني أو اليهودي هل يجوز أم لا يجوز؟ فقال: ودخل نصير الدين الطوسي في ركب هولاكو الكافر، وهذا يكون نصرًا كبيرًا للمذهب لما يترتب عليه من نفع للإسلام.

وقال أيضًا وهو يفصل هذه المسألة: إذا كانت ظروف التقية تلزم أحدًا منا بالدخول في ركب السلاطين فهنا يجب الامتناع من ذلك حتىٰ لو أدىٰ الامتناع إلىٰ قتله، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين مثل

دخول علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي رحمهما الله.

والسؤال: ما النصر الحقيقي للإسلام والمسلمين في احتلال التتار وغزوهم؟ وما النفع إلا أنه قتل مليونًا وثمانمائة ألف من الأطفال والنساء والكهول والشباب، حتىٰ سالت الميازيب من السطوح بدمائهم؟

من علي بن يقطين؟

علي بن يقطين ترجم له نعمة الله الجزائري الشيعي في كتابه الأنوار النعمانية (١/ ١٩٢) فقال: وفي الروايات أن علي بن يقطين وهو وزير الرشيد اجتمع في حبسه جماعة من المخالفين - يعني: أهل السنة - وكان من خواص الشيعة، فكاد لهم فأمر غلمانه فهدموا عليهم سقف المحبس فماتوا جميعًا، وكانوا خمسمائة رجل تقريبًا.

قال: فأراد الخلاص من دمائهم، فأرسل إلىٰ مولانا الإمام الكاظم عليه السلام يسأله عن الحكم في هذه المسألة؟

فقال الكاظم له: إنك لو كنت تقدمت إلي قبل قتلهم فاستأذنت مني ما كان عليك شيء من دمائهم، وحيث إنك لم تتقدم إلي فكفر عن كل رجل قتلته منهم بسيس والسيس خير منه.

قال نعمة الله الجزائري معلقًا علىٰ هذا الكلام: فانظر إلىٰ هذه الدية الجزيلة التي لا تعادل دية أخيهم الأصغر كلب الصيد، فإن ديته عشرون درهمًا، ولا دية أخيهم الأكبر وهو اليهودي أو المجوسي فإنها ثلاثمائة درهم، ثم قال: وحالهم في الآخرة أخس وأنجس.

محبة آل البيت

لما وضع عمر رضي الله عنه الديوان بدأ بأهل بيت النبي ﷺ لبيان فضلهم وعلو منزلتهم.

وقد روىٰ الذهبي: أن عمر لما دون الديوان، ألحق الحسن والحسين

بفريضة أبيهما لقرابتهما من الرسول، ففرض لكل منهما خمسة آلاف درهمًا، وقد كانت المحبة والعلاقة بين الفاروق عمر وبين علي ﷺ قوية حميمة.

وقد روى الطبري وابن كثير والذهبي أن عمر ﷺ تزوج من أم كلثوم بنت علي من فاطمة الزهراء، وكان علي وزيرًا في زمن خلافة عمر، كما كان وزيرًا في زمن خلافة أبي بكر، فقد كانوا كما ذكرهم الله في القرآن الحكيم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

ومن المحبة التي يكنها عمر بن الخطاب ﷺ لابن عم رسول الله ﷺ ابن عباس ﷺ أنه كان يدخله في مجلس كبار الصحابة من مشيخة بدر ﷺ، وقد كان لهم أبناء في سنه ولم يحظ بهذا التكريم سواه، وفي هذا بيان لفضيلته ومكانته العلمية لدى الفاروق ﷺ.

فقد روى البخاري بإسناده إلى ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟

فقال: إنه ممن قد علمتم فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم.

قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني.

فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:١]؟ حتى ختم السورة.

فقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا.

فقال لي: يا بن العباس أكذلك تقول؟ قلت: لا.

قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح مكة فذاك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

قال الحافظ ابن حجر: وأخرج البغوي في معجمه «الصحابة» عن طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر، قال: كان عمر يدعو ابن عباس ويقربه ويقول: إني رأيت

رسول الله ﷺ دعاك يومًا فمسح رأسك وقال: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل». ففعل عمر هذا تقريرًا لجلالة قدر ابن عباس وبيان كبير منزلته في العلم والفهم، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن عمر رضي الله عنه كان يقول: «نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس»، وكان يقول إذا أقبل: «جاء الفتىٰ الكهول، وذو اللسان السئول، والقلب العقول».

وقد بين الفاروق رضي الله عنه للأمة عامة فضل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ومدىٰ احترامه وتواضعه ومعرفته لحقه، وذلك عندما استسقىٰ به، بل قد أقسم رضي الله عنه للعباس: أن إسلامه أحب إليه من إسلام أبيه ولو أسلم، فإن إسلام العباس أحب إلىٰ رسول الله ﷺ.

روىٰ الحاكم بإسناده إلىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها كانت إذا ذكرت فاطمة بنت النبي ﷺ قالت: «ما رأيت أحدًا كان أصدق لهجة منها إلا أن يكون الذي ولدها».

أتيته هرولة

ولقد قص الله تعالى علينا في القرآن خبر رجلين كلاهما غرق في البحر:

الأول: نبي من أنبياء الله.

والثاني: عدو من أعداء الله.

أما الأول فنبي الله يونس عليه السلام، أرسله الله إلىٰ قرية نينوىٰ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت معروف من بلاد غريبة.

فقال الله عز وجل: أما تعرفون ذلك؟

قالوا: ومن هو؟

قال: عبدي يونس.

قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟

قال: نعم.

قالوا: يا رب، أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء؟

قال: بلىٰ. قال: فأمر الله الحوت فطرحه بالعراء.

قال الله: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

يقول الحسن البصري: ما كان ليونس صلاة في بطن الحوت، لكنه قدم عملاً صالحًا في الرخاء.

هذا حال يونس ﷺ، أحبه الله فأنقذه من المصائب.

أما فرعون فقد أتاه الله أموالاً وملكًا، فاغتر برخائه ونعمائه، وأخذ يتلفت في ملكه ويقول للناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:٣٨].

أرسل الله تعالىٰ إليه موسىٰ، فذكره بحقيقته وأنه عبد مملوك لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فأعرض فرعون وكذب، وجعل يتتبع المؤمنين، حتىٰ فر موسىٰ وقومه من بطشه فلحقهم بجنده، فلما وصل موسىٰ إلىٰ البحر، فإذا أمواجه تتلاطم، وفرعون من ورائهم.

فقال أصحاب موسىٰ: ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾. فقال موسىٰ: ﴿ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢، ٦١].

فأوحىٰ الله إليه فضرب البحر بعصاه، فانفلق وصار الطريق بين أيديهم يبسًا، فلما وصل فرعون ورأىٰ الطريق وسط الماء حرك فرسه ودخل، فلما توسط الطريق فإذا بالأمواج تتلاطم عليه، فجعل يصيح ويستغيث، قال الله: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ

ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠].

ارتفعت دعوته إلىٰ السماء، فقالت الملائكة: أول شيء حصل لفرعون أن نزل جبريل من السماء، وقيل لفرعون: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس:٩٢، ٩١].

نعم، كلما أقبلت إلىٰ الله أقبل إليك، وإن أعرضت عنه أعرض عنك، اسمع إلىٰ قول الله: ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، نعم لما أحبوه أحبهم.

وقال: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ ﴾. نعم، لما نسوه استحقوا النسيان.

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾. وهذا جزاء الماكرين.

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾. نعم، جزاء وفاقًا.

بل لسعة رحمة الله، وعظم إكرامه لعباده يزيد لهم في الإحسان والإكرام، روىٰ مسلم أنه ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

نعم، رب حليم يحب الخير لعباده، يتقرب إليهم أكثر مما يتقربون إليه، يذكرهم أعظم مما يذكرونه، يسترهم وهم يعصونه، يحسن إليهم وهم يسيئون، يتحبب إليهم بالنعم وهم إليه بالمعاصي يتبغضون، خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد.

يسمعون الغناء فلا يعجل عليهم بل يحفظ عليهم أسماعهم، وينظرون إلى الحرام فيحلم عليهم ويحفظ أبصارهم، ويرقصون ويعصون وهو من ذلك يحب لهم التوبة والهداية.

وانظر إلىٰ من أقبل إلىٰ ربه وأحبه، فأقبل الله إليه وأحبه، إلىٰ من أتىٰ إلىٰ الله

يمشي، فأتاه الله هرولة.

انظر إلىٰ حبيبك وقرة عينك محمد ﷺ وقد خرج إلىٰ بدر لينصر الدين فإذ بين يديه جيش لا قبل له به فجعل يستغيث ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض».

ويعيد ويستجير، ويدعو دعاء الكسير، دعاء من ذلت لله رقبته، وسجدت له جبهته، وفاضت له عيناه.

فينظر الله إلىٰ اليدين الداعيتين، فإذا هم يدان طاهرتان، ما لمست حرامًا، ولا أعطت حرامًا، وينظر إلىٰ العينين فإذا هما في الليل باكيتان، وفي النهار مغضوضتان، وإذا الفم الداعي في النهار مسبح ذاكر، وفي الليل متعبد لربه شاكر، فتهتز أبواب السماء بملائكة أشداء، وينصر المحبون المتقربون، الذين أقبلوا إلىٰ ربهم فأقبل عليهم، تعرفوا إليه في الرخاء فعرفهم في الشدة، ويقتل من المشركين سبعون، ويؤسر منهم سبعون.

وينصرف رسول الله ﷺ بعد بدر منتصرًا مرفوع الرأس، ثابت الخطىٰ، فيصلي لربه ركعتين، فلما فرغ استنار وجهه، وظهر عليه السرور، وتبسم فسأله أصحابه عن تبسمه؟

فأخبرهم ﷺ أن جبريل أتاه علىٰ فرس أنثىٰ معقود الناصية، وقد عصم ثنييه الغبار، فقال: «يا محمد، إن ربي بعثني إليك، وأمرني أن لا أفارقك حتىٰ ترضىٰ، فهل رضيت؟»، فقال ﷺ: «نعم».

نعم، ولماذا لا يرضيه ربه وهو الذي يحبه ويطيعه، لم تكن محبته لربه ادعاء باللسان لا حقيقة له في الواقع، بل يحب ربه حبًّا صادقًا، يقدم أمره علىٰ كل أمره، ومراده علىٰ كل مراد، يعرف شرط المحبة فيعمل به: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

وكم وقع في معركة بدر من أعاجيب المحبين، الذين عرفوا ربهم وقدموا

محبته علىٰ كل حب، ورضاه علىٰ كل رضا، يمضون لرضاه ماشين ومهرولين.

في أثناء بدر يتتابع المحبون علىٰ رسول الله ﷺ، فيأتيه عوف بن الحارث فيقول بلسان المشتاق: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟! فيقول ﷺ: «غمسه يده في العدو حاسرًا».

فيعجب عوف، إن هجمت علىٰ العدو بسيف بتار، ضحك مني الرب القهار، فيميل إلىٰ درع حديد كان يلبسها حزامها، ثم يقذفها، ثم يأخذ سيفه فيقاتل حتىٰ قتل رضي الله عنه.

ويقبل صحابي آخر فيسأل: ما أحب العمل إلىٰ الله؟

ويقبل الثالث: ما أثقل شيء في الميزان؟

ورابع وخامس... نعم همم عالية، عرفت أن الله تعالىٰ هو أعظم المحبوبين، وأكرم الأكرمين، يجازي علىٰ القليل كثيرًا، وهذا فعل الملوك، ويتجاوز عن الأخطاء، وهذا فعل الأقوياء، ويجزي علىٰ الإحسان، وهذا فعل الكرماء.

كانوا يعرفون عظمة الله؛ لأن رسول الله ﷺ كان يعظمه بينهم.

واستمع إلىٰ العباس رضي الله عنه وهو يحدث عن رسول الله ﷺ كيف كان يعرفهم بربهم؛ ففي الحديث الحسن عند أحمد وغيره، عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ بالبطحاء، فمرت سحابة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟». قلنا: السحاب، قال: «المزن؟» قلنا: والمزن. قال: «والعنان». قال: فسكتنا. فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟». قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلىٰ سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه

كما بين السماء والأرض، والله تبارك وتعالىٰ فوق ذلك وليس يخفىٰ عليه من أعمال بني آدم شيء».

ومن مشىٰ إلىٰ ربه مقبلاً، صادقًا ما عنده، راجيًا عفوه ومغفرته، متبعًا لحبيبه محمد ﷺ، مقتديًا به في أقواله وأفعاله، راجيًا دخول الجنة والنجاة من النار، مستشعرًا أن الله يحبه، ويفرح بتوبته، ويزين له جنته، نعم يزينها ويقول: «ويوشك عبادي الصالحون أن يلقوا المؤنة والأذىٰ ويصيروا إليك».

من استشعر أن الله ينظر إليه وهو مبتلىٰ، وقد أعد في الجنة ما ينسيه الهموم والغموم، والآفات والكربات، من أيقن بذلك علىٰ دينه كالجبل، ولو وقفت في وجهه الدنيا كلها.

خالد بن سعيد بن العاص: كان شابًا في مكة بدعوة النبي ﷺ، ويراه يمشي في الطرقات يدعو الناس للإسلام، ويسمع الناس يسبونه ويكذبونه.

وكان خالد يعرض مع المعرضين، يعبد الأصنام، ويكفر بالملك العلام، حتىٰ بات ليلة من الليالي فرأىٰ في منامه أنه وقف به علىٰ شفير النار، وذكر من سعتها وعظمها ما الله أعلم به، فجعل يتهول من كبرها، ثم رأىٰ كأنه أتاه من يدفعه فيها ليتردىٰ في دركاته، ورأىٰ رسول الله ﷺ آخذًا بحقويه - أي: بمربط إزاره - يمسكه عن الوقوع فيها.

ففزع من نومه، وقعد متفكرًا علىٰ فراشه، وجعل يعجب مما رأىٰ، ويحدث نفسه قائلاً: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق، فخرج في الصباح يمشي، فلقي أبا بكر رضي الله عنه، فقال: يا أبا بكر، لقد رأيت رؤيا أفزعتني.

قال: ما هي؟ فقال: رأيت النار وكأن هناك من يدفعني فيها، وصاحبك محمد يمسك بحقوي يمنعني منها.

ففرح أبو بكر وقال: أريد بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها.

فانطلق خالد يلتمس رسول الله ﷺ، فلقيه بأجياد، فقال: يا محمد، إلام تدعو؟

فنظر ﷺ إليه ثم قال بكل رفق: «أدعوك إلىٰ أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر، لا يضر ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لا يعبده».

فقال خالد بكل شجاعة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. فسر النبي عليه الصلاة والسلام بإسلامه.

ومضىٰ خالد يسير في طرقات مكة وكأنك بالشيطان يعض أنامله غيظًا أن فقد جنديًا من جنوده، وخالد يمشي مسلمًا عزيزًا وكأنه والله جبل يمشي علىٰ الأرض.

كان خالد شابًا، وكان أبوه من كبار المشركين، فلما علم أبوه بإسلامه، أقبل إليه يسبه ويؤنبه، وخالد أسد ثابت كالجبال، فاشتد غضب أبيه، وجعل يضربه بعصا في يده حتىٰ كسرها علىٰ رأسه، ويهدده ويقول: والله لأمنعنك القوت والطعام، والله لأمنعنك المال، والله...

فقال خالد وهو يرفق بأبيه ويرجو إسلامه: وإن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به.

ولا يزال جبلاً ثابتًا علىٰ دينه، يناجي ربه ويقبل عليه، يذكره ويمشي إليه، حتىٰ مات علىٰ ذلك رضي الله عنه.

ولا يزال الله تعالىٰ يقبل إلىٰ عباده أكثر مما يقبلون عليه، يفرح بتوبتهم، وهو الغني عنهم، ويحلم بهم وهو القادر عليهم، يكررون العصيان، ويكرر التوبة، يعرضون عنه فيناديهم من بعيد، ويقبلون عليه فيفرح بهم من قريب، يغفر لهم ما مضىٰ، ويستر الفحشاء.

وانظر إلىٰ ذلك الرجل الذي امتلأ قلبه تعظيمًا لربه، ورغبة في قربه، أقبل

يومًا إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أحدنا يذنب، فقال ﷺ: «يكتب عليه».

فارتعد الرجل وقال: ثم يستغفر منه ويتوب. فقال ﷺ: «يغفر له ويتاب عليه».

قال: يا رسول الله، فيعود فيذنب، فقال ﷺ: «فيكتب عليه».

فقال الرجل مبادرًا: ثم يستغفر منه ويتوب، فقال ﷺ: «يغفر له ويتاب عليه».

فوقف الرجل ينظر متعجبًا، وكأنه يقول: إلىٰ متىٰ نذنب ونستغفر!! ونذنب ونستغفر!! والله يحلم ولا يعجل، فقال ﷺ: «ولا يمل الله حتىٰ تملوا».

فهو الغني عن عباده، القادر عليهم، ومع ذلك يرأف بمخطئهم، ويتجاوز عن عاصيهم، إن مشوا إليه فرح بهم فأتاهم هرولة، حلمه يسبق غضبه، لا يقنطهم من رحمته، ولا يرضىٰ أن يطرقوا بابًا غير بابه.

روىٰ مسلم أن رجلاً من العرب اسمه ضماد الأزدي كان يتعاطىٰ الطب والعلاج، وكان يرقي الناس من المس والجن ويعالج من الجنون، فقدم ضماد يومًا إلىٰ مكة، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: ذهب المجنون، جاء المجنون، رأيت المجنون، فسألهم من المجنون؟ فقالوا له: رجل اسمه محمد، مجنون.

فقال ضماد بكل شفقة: فأين هذا الرجل؟ لعل الله أن يشفيه علىٰ يدي، فدله بعضهم علىٰ رسول الله ﷺ.

فلما رآه ضماد فإذا أنوار النبوة تشع من وجهه الشريف، وإذا الإيمان قد غطاه بسكينته، والله قد زينه بخشيته، وعليه جلالة الهدىٰ، ونور التقىٰ، فأقبل ضماد حتىٰ جلس بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام، ثم قال: إني أرقي من هذه الرياح والأمراض، وإن الله يشفي علىٰ يدي من شاء، فهلم فلأعالجك.

فرفع النبي ﷺ بصره إليه ثم قال بكل ثقة: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

فانتفض ضماد، وقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعاد عليه ﷺ قائلاً: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

فانتفض ضماد أخرىٰ، وتغير وجهه، وأمطرت عليه سحب المهابة، وجعل يتبلع ريقه في فمه، وينظر إلىٰ رسول الله ﷺ، ويقول: أعدها علي، أعدها علي: فعجب ﷺ، وأعادهن عليه ﷺ.

فقال ضماد: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، والله لقد بلغن قاموس البحر - يعني: أصل البحر - ثم أقبل ضماد علىٰ هذا الرب الذي يحمد ويستعان، ويستغفر ويتاب إليه، الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ومد يده إلىٰ رسول الله ﷺ، وقال: هلم يدك أبايعك علىٰ الإسلام، فبايعه رسول الله ﷺ، ثم قال له عليه الصلاة والسلام: «وعلىٰ قومك»؛ أي: تبايعني أن تدعو قومك أيضًا إلىٰ الإسلام.

قال ضماد: نعم، وعلىٰ قومي، ومضىٰ إلىٰ قومه داعيًا متعبدًا، ولازال علىٰ ذلك حتىٰ مضىٰ إلىٰ ربه ماشيًا إليه، منطرحًا بين يديه، راغبًا فيما عنده، واثقًا بصدق وعده.

لما انتهت غزوة الخندق وكفىٰ الله المؤمنين القتال وهزم الكافرين، انصرفت جموع الكافرين إلىٰ مكة، فجعل عقلاؤهم يتفكرون فيما هم عليه من الهزائم المتتابعة.

قال عمرو بن العاص: لما انصرفنا يوم الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرىٰ أمر محمد يعلو الأمور علوًّا منكرًا، وإني لقد رأيت أمرًا فما ترون فيه،

قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي في الحبشة فنكون عنده، فإن ظهر محمد علىٰ قومنا، كنا عند النجاشي، فإنا إن نكن تحت ملك النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت ملك محمد، وإن ظهر قومنا عدنا إلىٰ مكة، ونحن ممن قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير.

قالوا: إن هذا لرأي.

قلت: فاجمعوا لنا هدايا نتقرب بها إلىٰ النجاشي، فجمعنا هدايا كثيرة، وخرج عمرو مع أصحابه إلىٰ الحبشة، وكان بينها وبين مكة البحر، وكان في الحبشة أيضًا بعض المسلمين الذين هاجروا إليه تخلصًا من أذىٰ قريش لهم.

وصل عمرو وأصحابه إلىٰ قصر النجاشي معهم هداياهم، وجلسوا ينتظرون الإذن بدخولهم عليه، فبينما هم كذلك إذ مر بهم داخلاً علىٰ النجاشي رجل جاء من المدينة؛ هو عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إلىٰ النجاشي لأجل المسلمين الذين في الحبشة، فدخل إلىٰ النجاشي وبلغه رسالة النبي عليه الصلاة والسلام ثم خرج.

فلما رآه عمرو التفت إلىٰ أصحابه وقال: هذا عمرو بن أمية، لو قد دخلت علىٰ النجاشي فسألته أن يمكنني منه فأذن لي فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أحسنت إليها حين قتلت رسول محمد إلىٰ ملك الحبشة، وكان عمرو صديقًا للنجاشي مقربًا عنده.

قال عمرو: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقي، هل أهديت لي من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدمًا كثيرًا؛ يعني: جلودًا، قال: ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله؛ فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، فتغير النجاشي وغضب، ثم رفع يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت الأرض لي

دخلت فيها فرقًا وفزعًا، وجعلت أهدئه وأقول: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك إياه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسىٰ فتقتله.

قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟!

فجعل النجاشي ينظر إلىٰ عمرو، فإذا هو قد كبرت سنه وهو يعبد أحجَارًا وأشجارًا، ثم قال له بلسان الداعية الموفق الذي يبحث عن الفرص ليرد العبيد إلىٰ معبودهم، قال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلىٰ الحق، وليظهرن علىٰ من خالفه، كما ظهر موسىٰ بن عمران علىٰ فرعون وجنوده.

فسكت عمرو وجعل يتفكر في حاله: هذا الرب العظيم، لماذا أعصيه؟ ماذا فعل لي لأقابله بذلك؟ أليس قد خلق فسوىٰ، وقدر فهدىٰ، وأخرج المرعىٰ، عجبًا!! كيف لا أجيب النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ عجبًا!! ما أحلمه، أعبد غيره وهو يرزقني ويعافيني، ويسترني ويحلم علي.

جعل عمرو يفكر والنجاشي ينظر إليه بعينين مشفقتين، ثم بادره النجاشي قائلاً: يا عمرو، أفتبايعني له علىٰ الإسلام؟

قال عمرو: نعم. ثم بسط عمرو يده وبايع علىٰ الإسلام، والكفر بعبادة الأصنام، ثم خرج إلىٰ أصحابه، وقال: لا مقام لكم في الحبشة، وكتم إسلامه عنهم، وركبوا البحر قافلين إلىٰ مكة، فلما وصلها هيأ راحلته، وجمع زاده عليها ومضىٰ إلىٰ المدينة.

فلما دخل المسجد علىٰ رسول الله ﷺ دنا ليعلن إسلامه، فابتهج النبي عليه الصلاة والسلام لرؤيته، فقال عمرو: فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك علىٰ الإسلام علىٰ أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، فقال ﷺ: «يا عمرو، بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها». فبايع عمرو علىٰ

الإسلام وصار بعدها من أحب الناس وأقربهم إلىٰ رسول الله ﷺ.

وانظر كيف إذا أقبل العباد إلىٰ الله، كيف يقبل إليهم عند حاجاتهم؛ فيكشف عنهم الكربات، ويستجيب الدعوات، تعرفوا إليه فعرفهم، وأطاعوه فأحبهم، وقفوا علىٰ بابه فقربهم.

لم يعرضوا عنه يومًا لما سمعوا للصلاة النداء، ولم يهتكوا الستر بينهم وبينه بالوقوع في فحشاء، ولم يدنسوا أسماعهم بغناء، ولا أموالهم بربا، تملك حب الله قلوبهم حتىٰ ذلوا لعظمته، وبكوا من خشيته، لم يرهم يومًا في مرقص ولا بار، ولا علىٰ فراش بغي ولا في بيت خمار، وإنما رأىٰ جباههم علىٰ الأرض ساجدة، وأعينهم عن الحرام غاضة، وألسنتهم عن القبائح ساكتة.

فتعرفوا إليه في الرخاء فعرفهم في الشدة؛ دعوه فاستجاب، واستغفروه فغفر وتاب؛ لأنهم كانوا يقبلون إليه وقت رخائهم، فأقبل إليهم في شدائدهم فكشفها عنهم.

هؤلاء لن يستفيدوا..

أذكر أن رسالة جاءتني علىٰ هاتفي المحمول.. نصها: فضيلة الشيخ.. ما حكم الانتحار؟

فاتصلت بالسائل فأجاب شاب في عمر الزهور..

قلت له: عفوًا لم أفهم سؤالك.. أعد السؤال!

فأجاب بكل تضجر: السؤال واضح.. ما حكم الانتحار؟

فأردت أن أفاجئه بجواب لا يتوقعه فضحكت وقلت: مستحب..

صرخ: ماذا؟!

قلت: ما رأيك أن نتعاون في تحديد الطريقة التي تنتحر بها؟

سكت الشاب..

فقلت: طيب.. لماذا تريد أن تنتحر؟

قال: لأني ما وجدت وظيفة.. والناس ما يحبونني.. وأصلاً أنا إنسان فاشل.. و.. وانطلق يروي لي قصة مطولة تحكي فشله في تطوير ذاته.. وعدم استعداده للاستفادة بما هو متاح بين يديه من قدرات..

وهذه آفة عند الكثيرين..

لماذا ينظر أحدنا إلىٰ نفسه نظرة دونية؟

لماذا يلحظ ببصره إلىٰ الواقفين علىٰ قمة الجبل ويرىٰ نفسه أقل من أن يصل إلىٰ القمة كما وصلوا..؟ أو علىٰ الأقل أن يصعد الجبل كما صعدوا..؟

ومـــن يتهيـــب صـــعود الجبـــال يعـــش أبـــد الـــدهر بـــين الحفـــر

تدري من الذي لن يستفيد من هذا الكتاب، ولا من أي كتاب آخر من كتب المهارات؟!

إنه الشخص المسكين الذي استسلم لأخطائه وقنع بقدراته، وقال: هذا طبعي الذي نشأت عليه..؟ وتعودت عليه، ولا يمكن أن أغير طريقتي..؟ والناس تعودوا عليَّ بهذا الطبع.. أما أن أكون مثل خالد في طريقة إلقائه.. أو أحمد في بشاشته.. أو زياد في محبة الناس له.. فهذا محال..

جلست يومًا مع شيخ كبير بلغ من الكبر عتيًّا.. في مجلس عام، كل من فيه عوام متواضعو القدرات.. وكان الشيخ يتجاذب أحاديث عامة مع من بجانبه..

لم يكن يمثل بالنسبة لمن في المجلس إلا واحدًا منهم له حق الاحترام لكبر سنه.. فقط..

ألقيت كلمة يسيرة.. ذكرت خلالها فتوىٰ للشيخ العلامة عبد العزيز بن باز.. فلما انتهيت.. قال لي الشيخ مفتخرًا: أنا والشيخ ابن باز كنا زملاء ندرس في المسجد عند الشيخ محمد بن إبراهيم.. قبل أربعين سنة..

التفت أنظر إليه.. فإذا هو قد انبلجت أساريره لهذه المعلومة.. كان فرحًا جدًّا لأنه صاحب رجلاً ناجحًا يومًا من الدهر..

بينما جعلت أردد في نفسي: ولماذا يا مسكين ما صرت ناجحًا مثل ابن باز؟

ما دام أنك عرفت الطريق لماذا لم تواصل..؟

لماذا يموت ابن باز فتبكي عليه المنابر.. والمحاريب.. والمكتبات.. وتئن أقوام لفقده.. وأنت ستموت يومًا من الدهر.. ولعله لا يبكي عليك أحد.. إلا مجاملة.. أو عادة..!!

كلنا قد نقول يومًا من الأيام.. عرفنا فلانًا.. وزاملنا فلانًا.. وجالسنا فلانًا!! وليس هذا هو الفخر.. إنما الفخر أن تشمخ فوق القمة كما شمخ..

فكن بطلاً واعزم من الآن أن تطبق ما تقتنع بنفعه من قدرات.. كن ناجحًا.. اقلب عبوسك ابتسامة.. وكآبتك بشاشة.. وبخلك كرمًا.. وغضبك حلمًا.. اجعل المصائب أفراحًا.. والإيمان سلاحًا..

استمتع بحياتك.. فالحياة قصيرة لا وقت فيها للغم.. أما كيف تفعل ذلك.. فهذا ما ألفت الكتاب لأجله.. كن معي وسنصل إلىٰ الغاية بإذن الله..

لماذا نبحث عن المهارات؟

زرت إحدىٰ المناطق الفقيرة لإلقاء محاضرة..

جاءني بعدها أحد المدرسين القادمين من خارج المنطقة..

قال لي: نود أن تساعدنا في كفالة بعض الطلاب..

قلت: عجبًا!! أليست المدارس حكومية.. مجانية؟!

قال: بلىٰ.. لكننا نكفلهم للدراسة الجامعية..

قلت: كذلك الجامعة.. أليست حكومية.. بل تصرف للطلاب مكافآت..

قال: سأشرح لك القصة..

قلت: هات..

قال: يتخرج من الثانوية عندنا طلاب نسبتهم المئوية لا تقل عن ٩٩٪.. يملك من الذكاء والفهم قدرًا لو وُزِّع علىٰ أمة لكفاهم..

فإذا تخرج وعزم أن يسافر خارج قريته ليدرس في الطب أو الهندسة.. أو الشريعة.. أو الكمبيوتر.. أو غيرها.. منعه أبوه وقال: يكفي ما تعلمت.. فاجلس عندي لرعي الغنم..

صرخت من غير شعور: رعي غنم!!

قال: نعم.. رعي غنم..

وفعلاً يجلس المسكين عند أبيه يرعىٰ الغنم.. وتموت هذه القدرات والمهارات.. وتمضي عليه السنين وهو راعي غنم.. بل قد يتزوج.. ويرزق بأولاد.. ويمارس معهم أسلوب أبيه.. فيرعون الغنم!!

قلت: والحل؟!

قال: الحل أننا نقنع الأب استخدام عامل موظّف راعي غنم.. يستأجره ببضع مئات من الريالات.. ندفعها نحن له.. وولده النابغة يستثمر مواهبه وقدراته.. ونتكفل بمصاريف الولد أيضًا حتىٰ يتخرج..

ثم خفض المدرس رأسه.. وقال: حرام أن تموت المواهب والقدرات في صدور أصحابها.. وهم يتحسرون عليها.. تفكرت في كلامه بعدها.. فرأيت أننا لا يمكن أن نصل إلىٰ القمة إلا بممارسة مهارات.. أو اكتساب مهارات..

نعم.. أتحدىٰ أن تجد أحدًا من الناجحين.. سواء في علم.. أو دعوة.. أو خطابة.. أو تجارة.. أو طب.. أو هندسة.. أو كسب محبة الناس..

أو الناجحين أسريًّا.. كأب ناجح مع أولاده.. أو زوجة ناجحة مع زوجها..

أو اجتماعيًّا.. كالناجح مع جيرانه وزملائه..

أعني الناجحين.. ولا أعني الصاعدين علىٰ أكتاف الآخرين..!!

أتحدىٰ أن تجد أحدًا من هؤلاء بلغ مرتبة في النجاح.. إلا وهو يمارس مهارات معينة – شعر أو لم يشعر – استطاع بها أن يصل إلىٰ النجاح..

قد يمارس بعض الناس مهارات ناجحة بطبيعته.. وقد يتعلم آخرون مهارات فيمارسونها.. فينجحون..

نحن هنا نبحث عن هؤلاء الناجحين.. وندرس حياتهم.. ونراقب طريقتهم.. لنعرف كيف نجحوا؟ وهل يمكن أن نسلك الطريق نفسه فننجح مثلهم..؟

استمعت قبل فترة إلىٰ مقابلة مع أحد أثرياء العالم الشيخ سليمان الراجحي.. فوجدته جبلاً في خلقه وفكره..

رجل يملك المليارات.. آلاف العقارات.. بنىٰ مئات المساجد.. كفل آلاف الأيتام.. رجل في قمة النجاح..

تكلم عن بداياته قبل خمسين سنة..

كان من عامة الناس.. لا يكاد يملك إلا قوت يومه وربما لا يجده أحيانًا!

ذكر أنه ربما نظف بيوت بعض الناس ليكسب رزقه.. وربما واصل ليله بنهاره عاملاً في دكان أو مصرف..

تكلم كيف كان في سفح الجبل.. ثم لا يزال يصعد حتىٰ وصل القمة..

جعلت أتأمل مهاراته وقدراته.. فوجدت أن الكثير منا يمكن أن يكون مثله بتوفيق الله..

لو تعلم مهارات وتدرب عليها.. وثابر وثبت.. نعم..

أمر آخر يدعونا إلىٰ البحث عن المهارات.. هو أن بعضنا يكون عنده قدرات علىٰ الإبداع لكنه غافل عنها.. أو لم يساعده أحد علىٰ إذكائها.. كقدرة علىٰ الإلقاء.. أو فكر تجاري.. أو ذكاء معرفي..

قد يكتشف هذه القدرات بنفسه.. أو يذكي هذه المهارات مدرس.. أو

مسئول وظيفي.. أو أخ ناصح..

وما أقلّهم..

وقد تبقىٰ هذه المهارات حبيسة النفس حتىٰ يغلبها الطبع السائر بين الناس.. وتموت في مهدها..

ونفقد عندها قائدًا أو خطيبًا أو عالمًا..

أو ربما زوجًا ناجحًا أو أبًا ناصحًا..

نحن هنا سنذكر مهارات متميزة نذكرك بها إن كانت عندك..

وندربك عليها إن كنت فاقدًا لها.. فهلمّ..

فهرسة الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الأرض تنتصر للرسول ﷺ	٥
مع ابن النضير	٥
أم أبي هريرة	٧
أبو طلحة وزوجه	٨
قبيلة دوس	٩
المشركون يشهدون	١٤
مقتل أمية بن خلف في بدر	١٦
الذراع المسموم ونجاة النبي المعصوم	٢٠
أكثر عقلاء المجانين شهرة	٢٢
التعامل مع الوالدين	٢٣
قصة الأسقف	٢٦
قتلت زوجها	٣٠
قصة غسيل الملائكة حنظلة	٣٠
قصة الشاب الأنصاري	٣٠
خيانات	٣١
طُرفة	٣٢
ماليزيا تدعو للتعدد	٣٢
نساء أندونيسيا	٣٣
تغير طارئ	٣٣
العقيدة والأخلاق	٣٥
الدعاة الصامتون	٣٦
سحر المرض	٤٠
سحر التهيّج	٤١

السحر.. ٤٢
رجل من أهل الجنة.. ٤٣
التعامل مع الأطفال.. ٤٤
التشدد في الدين.. ٤٥
الأيتام واللقطاء.. ٤٧
التبسم.. ٥١
أخبار العشاق.. ٥٢
العشيقة.. ٥٩
قصة فتاة.. ٧٨
خبر أم المؤمنين خديجة.. ٨٢
خبر أم عمار، سمية بنت خياط فهو عجب.. ٨٤
أم شريك غزية الأنصارية.. ٨٥
الغميصاء، أم أنس بن مالك.. ٨٦
ذئب يتكلم.. ١٠١
سعد بن معاذ في مكة.. ١٠٢
خطة قتل النبي ﷺ.. ١٠٥
الشاة المسمومة!!.. ١٠٧
ربي قتل ربكما!!.. ١٠٨
وعليكم السلام.. خبيب..!!.. ١١٠
عجب الله من صنيعكما!.. ١١٣
أو لننزعن الثياب!!.. ١١٤
غزاة البحر إلىٰ قبرص.. ١١٦
انشقاق القمر.. ١١٧
أشار للسماء فأطاعته.. ١١٨
استجابة جمل.. ١٢٠

مسحة مباركة ١٢١
شفاء عيني علي ١٢٦
يفهم الجذع.. ويواسيه!! ١٢٦
النخلة تمشي إليه.. .... ١٢٧
انقياد شجرتين له ﷺ ١٢٨
ماء المزادتين ١٢٩
ميضأة أبي قتادة ١٣١
غزوة تبوك.. مليئة بالعجائب ١٣٢
مع أبي جهل ١٣٦
قصة سراقة.. من أحداث الهجرة المباركة ١٣٧
من يمنعك مني؟ ١٣٨
هي بنت لا ولد ١٣٩
تكثير الطعام ١٤٣
أصابع ينبع منها الماء ١٤٦
شفاء الأمراض: ١٤٦
عين ترد إلىٰ مكانها ١٤٩
حنين الشجر ١٥٠
النبي ﷺ وحفصة ١٥١
اجتهاد السلف في الصيام ١٥٢
اليهود وتفويت فرص الخير ١٥٣
السلطان يحبس رجلا ١٦٠
صفاء نفوس المؤمنين ١٦١
قيام الليل ١٦٩
السلف والقرآن ١٧٣
عبد الله بن المبارك والفقير ١٧٤

وما الله.. ١٧٥
جيران الحرام.. ١٧٦
طاوس بن كيسان والحجاج.. ١٧٧
القابضات علىٰ الجمر.. ١٧٨
ذكريات تائب.. ١٨٤
قصة قتل المائة.. ١٩٧
خاتمة سوء.. ١٩٨
امرأة تتعرض لأحد الصالحين.. ٢٠٠
رحلة المشتاق.. ٢٠٦
مسيلمة الكذاب.. ٢١١
أحد ملوك غسان.. ٢١٤
الأعشىٰ بن قيس.. ٢١٥
عبيد الله بن جحش.. ٢١٦
الجبال الراسيات.. ٢١٧
هل لك من خبيئة؟.. ٢٢٢
عيش السعداء.. ٢٢٤
توبة ماعز بن مالك.. ٢٢٨
موتة سوء.. ٢٢٩
سعادة دائمة.. ٢٣٠
قصة زواج جابر بن عبد الله.. ٢٣١
توبة القعنبي.. ٢٣٢
وداعًا أيها البطل.. ٢٣٣
موت سعد بن معاذ.. ٢٣٩
موت أنس بن النضر.. ٢٤٠
أم عمار بن ياسر، سمية بنت خياط.. ٢٤٠

أم شريك غزية الأنصارية.......... ٢٤١
مسيرة أبطال.......... ٢٤٢
مقتل طاغية من الكفار يسب الرسول ﷺ.......... ٢٤٥
جلسة مع مغترب.......... ٢٤٨
محاضرة في إيطاليا.......... ٢٥٥
ثلاثون مغتربا.......... ٢٥٦
لا تكن جبانًا.......... ٢٥٧
إياكم ومحقرات الذنوب.......... ٢٥٩
الآن انتهيت من الحساب.......... ٢٥٩
حبسني عن الجنة إبرة.......... ٢٦٠
سيدنا أنس بن مالك ينصح كبار التابعين:.......... ٢٦٠
قصة الفتىٰ البكاء من خشية الله تعالىٰ.......... ٢٦١
نكبات في تاريخ الأمة الإسلامية ﴿التتار﴾.......... ٢٦٤
القرار الشجاع.......... ٢٦٥
قصة الخندق.......... ٢٦٨
أبو أحمد بن جحش.......... ٢٧٢
عياش بن أبي ربيعة.......... ٢٧٣
عبد الله بن سلام.......... ٢٧٥
وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم.......... ٢٧٧
السعادة الزوجية.......... ٢٧٩
مسئولية الرجل في أسرته.......... ٢٨٢
تعليم الإمام أحمد لولده.......... ٢٨٤
حرص الوالد علىٰ الرضاعة من حلال.......... ٢٨٦
تلقين الأم التوحيد لولدها.......... ٢٨٧
تأثير الأصحاب في تربية الأولاد.......... ٢٨٩

نتيجة إهمال التربية في الصغر.. ٢٩٢
صلاح الأبناء بصلاح الأمهات.. ٢٩٥
الحرص على الكسب الحلال.. ٢٩٧
فن التعامل مع الناس.. ٢٩٨
النعيم يغير الطباع.. ٢٩٩
تواضع المصطفى ﷺ.. ٣٠٠
خيانات الشيعة الروافض.. ٣٠١
محبة آل البيت.. ٣١١
أتيته هرولة.. ٣١٣
هؤلاء لن يستفيدوا.. ٣٢٤
لماذا نبحث عن المهارات؟.. ٣٢٦
فهرسة الموضوعات.. ٣٣١